الدكتور امحمد بن عبود

التاريخ السياسي والاجتماعي لاشبيلية

في عهد

دول الطوائف

تقديم الدكتور وليم مونتغمري واط

جائزة المغرب

1983

تحت اشراف المعهد الجامعي للبحث العلمي

خطط وجـه الكتاب : الأستاذ المنصور الهلالى

التاريخ السياسي والاجتماعي لاشبيلية
في عهد دول الطوائف
(414 هـ / 1023 م - 484 هـ / 1091 م)

الدكتور امحمد ابن عبود

التاريخ السياسي والاجتماعي لاشبيلية في عهد دول الطوائف

تطوان

1983

مطابع الشويخ «ديسبريس» - تطوان

الإهداء

إلى ذكرى أبي الـذي وهب حياته من أجل استقلال وطنه وإلى أمي التي تحملت الاعبـاء بعده بشجـاعة وصبر وحكمة .

محتوى الكتاب

الفصل الاول

دولة بني عباد : تحليل لقيام دولتهم وسقوطها

I - القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد
(414 هـ / 1023 م - 433 هـ / 1041 م)

II ـ المعتضد بن محمد بن عباد

(433 هـ / 1041 م. ـ 461هـ / 1068م.)

III ـ المعتمد محمد بن عباد بن عباد

(461 هـ. / 1068 م. ـ 484 هـ. / 1091 م)

الفصل الثاني

الحكومة والادارة في دولة إشبيلية الطائفية

I ـ النظام السياسي الاشبيلي

II - الجيش الاشبيلي

III - المؤسسات الدينية والقانونية

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إشبيلية

I - الاقتصاد الاشبيلي

II - التركيب الاجتماعي

III - التغيير الاجتماعي والاستقرار

الفصل الرابع

السياسة الخارجية الاشبيلية

المصادر والمراجع

اختزال العناوين

« أعمال الاعلام » . . .	« أعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلال من ملوك الاسلام » لابن الخطيب
« اعتبارات »	« اعتبارات عن عهد ملوك الطوائف » للدكتور حسين مؤنس
« الاحاطة »	« الاحاطة في أخبار غرناطة » لابن الخطيب .
« البيان المغرب » . . .	« البيان المغرب في أخبار ملوك الاندلس والمغرب » لابن عذاري
« الحلة السيراء » . . .	« الحلة السيراء » لابن الابار
« الحلل الموشية » . . .	« الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية » لمؤلف أندلسي مجهول
« الذخيرة »	« الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام
« الروض المعطار » . . .	« كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار » للحميري .
« المعجب »	« المعجب في تلخيص أخبار المغرب » للمراكشي .

« الكامل في التاريخ » . . . « الكامل في التاريخ » لابن الأثير .

« المسالك والممالك » . . . « المسالك والممالك » للبكري .

« المقدمة » . . . . « مقدمة » ابن خلدون .

« المغرب في حلى المغرب » . . . « المغرب في حلى المغرب » لابن سعيد .

« أول تاريخ عام » . . . « أول تاريخ عام لاسبانيا » لألفونسو العاشر وسانشو الرابع .

« بغية الملتمس » . . . « بغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس » للضبي .

« تاريخ رودريكي » . . . « تاريخ رودريكي » للمطران رودريكي .

« تذكرة ابن حمدون » . . . « تذكرة ابن حمدون السياسية والادب الملكية » لابن حمدون .

« تاريخ بني عباد » . . . « تاريخ بني عباد » لدوزي .

« ترتيب المدارك » . . . « ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك » للقاضي عياض .

« جذوة المقتبس » . . . « جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس » للحميدي .

« خريدة القصر » . . . « خريدة القصر وجريدة اهل العصر » للاصفهاني .

« ديوان ابن حمديس » . .	« ديوان ابن حمديس » لابن حمديس
« ديوان ابن زيدون » . .	« ديوان ابن زيدون » لابن زيدون .
« دول الطوائف » . .	« دول الطوائف » لمحمد عبد الله عنان .
« رسالة في القضاء » . .	« رسالة في القضاء والحسبة » لابن عبدون .
« سراج الملوك » . .	« سراج الملوك » الطرطوشي .
« صبح الاعشى » . .	« صبح الاعشى في صناعة الانشاء » القلقشندي .
« طوق الحمامة » . .	« طوق الحمامة في الالفة والالاف » لابن حزم .
« قلائد العقيان » . .	« قلائد العقيان في محاسن الاعيان » لابن خاقان .
« كتاب الاكتفاء » . .	« كتاب الاكتفاء » لابن الكردبوس .
« كتاب التبيان » . .	« كتاب التبيان » لعبد الله بن بلقين
« كتاب حسن التوسل » .	« كتاب حسن التوسل إلى صناعة الترسل » للحلبي .
« كتاب الديباج » . .	« كتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب » لابن فرحون .

« كتاب الصلة » . . . . « كتاب الصلة في تاريخ ائمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم » لابن بشكوال .

« كتاب العبر » . . . . « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر » لابن خلدون

« ملحمة السيد » . . . . « ملحمة السيد » لرودريغو دياث السيد .

« نقط العروس » . . . . « نقط العروس » لابن حزم .

« نهاية الارب » . . . . « نهاية الارب في فنون الادب » للنويري .

« وفيات الاعيان » . . . . « وفيات الاعيان في أنباء الزمان » لابن خلكان .

ABBREVIATIONS OF JOURNALS

Abbreviation	Journal
A. A.	Al - Andalus
A.E.M.	Anuario de Estudios Medievales
A.E.S.C.	Annales: Economies, Sociétés, Civilisations
A.H.R.	American Historial Review
B.H.S.	Bulletin of Hispanic Studies
C.H.E.	Cuadernos de Historia de España
C.H.M.	Cahiers d'Histiore Mondiale (Journal of World History)
C.S.S.H.	Comparative Studies in Society and History
E.I. 1	Encyclopedia of Islam, first edition.
E.I. 2	Encyclopedia of Islam, second edition.
E.O.	Estudios Orientales
H.T.	Hespéris - Tamuda
J.R.A.S.	The Journal of the Royal Asiatic Society
M.A.	Moyen Age
M.C.V.	Mélange de la Casa Velasquez
P.P.	Past and Present
R.E.I.	Revue des Etudes Islamiques
R.H.	Revue Historique
R.I.E.E.I.M.	Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islamicos en Madrid.
R.O.	Revista de Occidente
R.O.M.M.	Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée
S.I.	Studia Islamica
T.	Tradition

شكر

إني أدين بالشكر العميق لعمي الحاج محمد أحمد بن عبود الذي مكنتني عنايته ومساعدته بصفته وصيا علي خلال الحياة من إنهاء هذه الاطروحة . كما أتقدم بخالص شكري وامتناني للمشرفين عليها وهما الأستاذ الدكتور وليام مونتغومري واط والدكتور مايكل ماكدونالد . لقد كان الاستاذ واط خلال سنوات تهيء الاطروحة عنصرا ملهما وخير معين لي ، وإنني لأرى فيه المثال الذي يجب أن يقتدي به كل باحث .

أما مساهمة الدكتور ماكدونالد المباشرة في إنجازي لهذه الاطروحة فتعد جميلا لا أستطيع رده وأريد أن أشكره بصفة خاصة على شعوره القريب بالمسؤولية المهنية . كما أريد أن أشكر الاستاذ ج . ر . والش الذي أفادني إفادة تامة في ميدان المنهجية التاريخية .

وأتقدم كذلك بالشكر الجزيل للأستاذ محمد بن تاويت والأستاذ الحسن بن عبد الوهاب وصهري الأستاذ عبد اللطيف الخطيب ولصديقي الدكتور أنغوس ماكاي على مدهم يد المساعدة لي وإعارتهم لي كتبهم الشخصية . كما أنوه بمساعدة زملائي في قسم الدراسات العربية والاسلامية بجامعة إدنبره وهم الدكاترة خالد العلوي من باكستان وعبد الرحيم علي من السودان ومحمد الحداق من السعودية وياسين صيلان من تركية وكريس فيرارد من اسكوتلاندا كما أشكر الاخوان الاخرين في القسم الذي ربطتني بهم علاقة الصداقة والمودة .

ولا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر إلى الانسة إيرين كروفارد ، كاتبة القسم ، على تطوعها ضرب هذه الاطروحة على الالة الكاتبة تحت ضغوط شاقة وكذلك على طيبوبتها حيث جعلت من القسم مكانا يشعر كل من يعمل

فيه بالسعادة والوئام ، وأريد أن أشكر موظفي مكتبة ادنبره الجامعية عامة والآنسة ماركريط داولين المكلفة بقسم إعارة الكتب من المكتبات الاخرى. كما أشكر الاستاذ عبد الرحمن الفاسي مدير المكتبة الملكية سابقا بالرباط الذي منحني ميكروفيلم لنسختين من القسم الثاني من «ذخيرة» ابن بسام. وأخيرا أشكر زوجتي لما قدمته لي من مساعدة وتضحية خلال المدة التي قضتها معي في إدنبره.

أما عملية نقل هذا الكتاب من اللغة الانجليزية إلى العربية فلقد أنجزت نتيجة مساعدة ثمينة قدمها لي بعض الاصدقاء والاقارب في أوقات فراغهم فبعد قيامي بتعريب الاطروحة التي كتبتها في الاصل بالانجليزية ثم قدمتها في جامعة إدنبره للحصول على درجة الدكتوراه (Ph. D.) سنة 1978، كان من الضروري أن أحصل على مساعدة من تمتع بتكوين عربي متين لتهذيب الاسلوب وتقريبه إلى القارئ العربي، وأريد بهذه المناسبة أن أشكر الاخوة الاساتذه إبراهيم الخطيب وعبد اللطيف الناصري وعبد العزيز السعود لمراجعتهم فصول الكتاب المختلفة، كما أشكر صهري الاستاذ عبد اللطيف الخطيب الذي قرأ الكتاب جملة فزاد أسلوبه تهذيباً مقربا إياه إلى العربية الفصحى. فلكل هؤلاء أقدم شكري العميق ليس فقط على مساعداتهم المذكورة وإنما لكونهم أقنعوني أكثر ولو بكيفية غير مباشرة على أن اللغة العربية قادرة على القيام بدورها الثقافي في عالمنا العربي مع كل ما أصابه من تقدم تكنولوجي وهيمنة وتغلغل اللغات الاوربية فيه. وأخيرا أشكر الاستاذة خديجة حركات على مراجعتها الكتاب بعد طبعه ووضع لائحة الخطأ والصواب. وهكذا وبفضل هذه المساعدات تمكنت من نقل النص الانجليزي الاصلي لهذا الكتاب إلى عربية محترمة ومقبولة وإن لم تلب رغبة أو شروط بعض فقهاء اللغة.

وأخيراً هناك بعض الملاحظات البسيطة عن النص العربي لهذا الكتاب تسهيلا على القارئ: حولت الهوامش المتعلقة بالقسم الثاني من «ذخيرة» ابن بسام المخطوط إلى طبعة تحقيق الدكتور إحسان عباس.

وبما أن هذا الكتاب كان أطروحة في الاصل، فإنه لم يهتم بالاشارة إلا إلى المصادر الاساسية، وبدلا من المجهود الذي كنت أنوي تخصيصه لاعادة

المقدمة

لقد أخذ الدارسون العصريون بصفة عامة فترة دول الطوائف مأخذ السهولة، اذ كان اهتمامهم الكبير ينصب على فترة بني أمية على حساب القرن الهجري الخامس. فقد جرى تصوير عهد ملوك الطوائف إما استمراراً لعهد بني أمية الذي سبقه، أو مقدمة لعهد المرابطين الذي تلاه. ورغم أنه يحتمل كلا التأويلين فيجب تصور عهد الطوائف أولا في نطاق مستقل، ذي خصائص ينفرد بها عن غيره. لذا يجب تجنب الاغراء باعتبار القرن الخامس الهجري في الاندلس امتداداً لعهد بني أمية، على ما يجمع بين العهدين من روابط. وهذا أمر صعب لان المؤرخين الذين درسوا عهد الطوائف في الماضي كانوا في معظمهم يهتمون في المقام الاول بدولة بني أمية أو دولة المرابطين. فكانت مناهجهم ونظراتهم إلى تاريخ دول الطوائف مطبوعة بطابع خاص، الامر الذي جعلنا بحاجة الى منهاج تاريخي يضع عهد الطوائف في المقدمة، فضلا عن النظر إليه في سياقه العام.

يشكل القرن الهجري الخامس كيانا منسجما ليس فقط كفترة زمنية تعادل مئة سنة، وإنما كعهد تميز بانقسام الاندلس وانحلالها الى دول طوائف

فقد كانت جل القوى التي أدت الى بروز ظاهرة دول الطوائف قوى معاصرة وحديثة النمو رغم محافظتها الحتمية على مقومات من الماضي فمسرح الاحداث خلال عهد الطوائف كان في نواحي عديدة شبيها بالذي كان عليه عهد بني أمية، اذ كانت الظروف الجغرافية والطقسية متطابقة، وكانت الاحوال الاجتماعية على درجة كبيرة من التشابه، سلاليا وثقافيا واقتصاديا، بل ان البنية نفسها لم تتغير تغيراً جذريا. ورغم ذلك لم يتغير المناخ السياسي تغيراً أساسيا لا رجعة فيه. فقد كانت للبعد السياسي أهمية بالغة خلال عهد الطوائف بسبب غياب إطار سياسي شامل في الاندلس خلال القرن الخامس للهجرة وتأثر المشهد الاجتماعي والاقتصادي تأثراً مهولا. ونتيجة لذلك فان أي فهم للقوى الاجتماعية والاقتصادية الكامنة وراء التغيرات والتقلبات التي عرف بها عهد الطوائف سيبقى ناقصا ما لم تقيم الحالة السياسية تقييما حقا. فلم تكن القوى الاجتماعية متسترة خلف مظهر سياسي، بل ان القوانين الاجتماعية والسياسية كانتا مندمجتين بحيث أصبح التمييز بينهما أمراً صعب المنال، وانحلال الاندلس خلال القرن الهجري الخامس يفترض أن الوحدات السياسية الاجتماعية الحديثة النمو مثل الدولة الطائفية تجب دراستها بطريقة منفردة لكي يتم إلقاء المزيد من الاضواء على التاريخ الاندلسي العام في الفترة المذكورة ولا يمكن اعتبار عهد الطوائف مرحلة انتقالية أو ظاهرة عابرة لان نفس النمط قد تكرر في حالتين، وانه لمن المشروع أن نتساءل : ألم تؤثر مقومات من عهد الطوائف الاول في القرن الخامس الهجري على العهدين الطائفيين الثاني والثالث اللذين تليا حكم المرابطين ثم الموحدين؟. ونتيجة لهذا فان فهما أعمق لعهد الطوائف خلال القرن الخامس الهجري غدا أمرا ملحا.

ويجب أن يكون حاضراً لدينا عند دراستنا لتاريخ دولة إشبيلية الطائفية عنصر منهجي أساسي هو النظر الى الاندلس في سياق زماني ومكاني عام. فالنظر إلى القرن الخامس الهجري في حد ذاته طريقة ملائمة للاحالة على فترة زمنية مجردة. لذا نفترض أن تاريخ القرن المذكور سيرورة مستمرة بين قرنين، فيمكن تصور تاريخ اشبيلية في عهد بني عباد داخل النطاق العام للاندلس الذي يمكن أن يعتبر بدوره وحدة متفاعلة مع وحدات أكبر كالممالك المسيحية الشمالية، أو المغرب. وباختصار يجب أن نتصور اشبيلية خلال عهد بني عباد في آن واحد كنتاج لاندلس القرن الهجري الخامس وكجزء لا يتجزأ منه. لقد ركزنا على التأثير الخارجي في اشبيلية. ولكننا لم نهمل مساهمتها في التطورات العامة بالاندلس. ان نظرتنا الى اشبيلية كدولة طائفية تنسحب على الحكام والسكان الاشبيليون ونحن ننظر إليهم في النطاق الاقتصادي والاجتماعي العام. فنحن لم نتجاهل دورهم كوحدة بشرية جماعية ساهمت في صناعة المصير الاشبيلي. لذلك فإن هدفنا هو خلق منهج متوازن وشامل لدراسة اشبيلية في عهد بني عباد.

ان الالحاح على البعدين السياسي والاجتماعي في هذه الاطروحة ينتج عن اعتبارات عدة، هي عملية أكثر منها فلسفية. فبصرف النظر أولا عن الاشعار العديدة التي وصلتنا من أندلس القرن الهجري الخامس فان معظم المادة التاريخية لهذه الفترة هي أساساً مادة سياسية واجتماعية. ثم ان هذه الدراسة، فضلا عن تركيزها على البعدين السياسي والاجتماعي، تضع جميع العناصر الاخرى (كالعنصرين الاقتصادي والقضائي) التي تمس أولها صلة بتاريخ اشبيلية القرن الخامس الهجري. ونود في الختام أن تكون هذه الدراسة السياسية والاجتماعية حول اشبيلية نافعة للذين يدرسون هذا الموضوع مركزين على جوانب أخرى.

سنعالج في الفصل الاول من هذا الكتاب موضوع قيام وسقوط دولة بني عباد مع تحليل الاسباب الداخلية التي أدت الى تولي القاضي بن عباد الحكم في إشبيلية في سنة 414هـ - 1023م وتوطيد المعتضد بن عباد لحكمه بين 433هـ - 1041م و 461 هـ - 1068م، وانتشار وتوسع ثم سقوط الحكم على يد المعتمد بن عباد سنة 484هـ - 1091م. كما سنحلل في هذا الفصل أيضاً أهم الاحداث الداخلية في اشبيلية خلال عهد بني عباد.

ويدرس الفصل الثاني نظام اشبيلية السياسي ثم تنظيم وتركيب الجيش ونظام القضاء. وسنركز على النظام السياسي مع مقارنة خصائصه المختلفة بنظام دولة بني أمية الذي اتخذته اشبيلية نموذجاً لنظامها السياسي. وبعد توضيحنا في الفصل الاول للافراط الذي كانت تتصف به سلطة حكام بني عباد سنتطرق في الفصل الثاني الى كيفية ممارسة الحاكم لسلطته في النظام السياسي حيث أنه شكل في الواقع أبرز مصدر للسلطة.

أما القسم الذي نتطرق فيه للعدالة باشبيلية فسنحيطه باهتمام وافر لسببين :

1) لكونه شكل أهم عنصر في مراقبة الحاكم أو على الاقل في حصر هيمنته داخل النظام ككل.

2) لاختلاف نهجنا في دراسة طبيعة المذهب المالكي وتأثيره في الاندلس خلال القرن الخامس الهجري عن النهج الذي سلكه عامة الدارسين المهتمين بالتاريخ الاندلسي. فمؤلف هذا الكتاب لا يقبل مفهوم المذهب المالكي كما تصوره وكتب عنه معظم المؤرخين الفرنسيين والاسبانيين. فلقد كان مذهب مالك بن أنس في شكله ومضمونه متشابهاً من حيث تطبيقه في الاندلس والمغرب وأنحاء أخرى من العالم الاسلامي. والمقياس الذي

يجب اتخاذه عند مقارنة المذهب المالكي في الاندلس والمغرب هو مدى تشابه ملامحه الاساسية وخصائصه السطحية. فالمشكل مشكل اختيار، والتفريق بين مذهب مالك في الاندلس والمغرب ليس مهما الا اذا أعطينا الاولوية الاختلافات السطحية على حساب تشابههما الجوهري .

لقد كانت الدراسات المتعلقة بالمجتمع الاندلسي وخاصة المجتمع الاشبيلي في القرن الهجري الخامس تعتمد في مادتها على الانتاج الادبي (8) . الا أننا اتخذنا في الفصل الثالث نهجاً يرتكز على الجوانب السياسية والاجتماعية الخالصة. وكان مشكلنا الاساسي في هذا الفصل محاولتنا استغلال المصادر المحدودة في محاولة ابراز جوانب من المجتمع الاشبيلي تجلب اهتمام علماء الاجتماع ومنها التركيب الاجتماعي والحركية الاجتماعية .

وسنتطرق أخيراً في الفصل الرابع للعلاقات الخارجية بين اشبيلية والدول الطائفية الاخرى وقشتالة والمغرب . وخلافا للفصل الاول الذي ركزنا فيه على فترة كل حاكم على حدة فستكون معالجتنا لسياسة اشبيلية الخارجية معالجة شاملة حيث اعتبرناها جسماً ملتحماً ومتطوراً . وسنفرغ بعدها لمناقشة سياسة اشبيلية على المستوى النظري ثم نحلل تطورها في إطار الخلفية العامة للاندلس . كما سنحلل أهداف السياسة الخارجية المباشرة ونجاحها من جهة ، وكذلك أهدافها البعيدة المدى وفشلها النهائي من جهة أخرى .

---

8) على سبيل المثال أنظر كتاب « الشعر الاندلسي المعبر بالعربية الفصحى في القرن الحادي عشر الميلادي : ملامحه العامة وقيمته الوثائقية » لهنري بيرس : Henri Pérès, La poésie andalouse en arabe classique au XIe siècle : ses aspects généraux et sa valeur documentaire, 2hd ed., Paris 1953.

وانظر كتاب : صالح خالص، « إشبيلية في القرن الخامس الهجري » . ؟ بيروت ، 1965.

لقد اعتمدنا في هـذا الكتاب بالدرجة الاولى على المصادر الاساسية في الحواشي. أما المراجع الثانوية فقد تجنبنا الاعتماد عليها، بصفة مباشرة، إلى أقصى درجة. ويرجع سبب هذا الاختيار المنهجي إلى توقي الوقوع في فخ الوصول الى افتراضات واستنتاجات خاطئـة. ونرجو باعتمادنا الشبيـه بالمطلق على المصادر الاساسية أن تكون البراهين المساندة لآرائنا متينة ومعللة. ومع ذلـك فإن لاختيارنا هـذا سلبيات من حيث أننا لا نشير إلى المراجع الثانوية التي لها أهميتها عند مناقشتنا لمشاكل أو نظريات معينة، علماً منـا أن للمتخصص اطلاعاً على محتوى المراجع الثانوية فيما يخص المواضيع التي نتطرق إليهـا، وأن بمستطاع القـارىء الرجوع الى المصادر الثانوية المثبتة في البيبليوغرافيا

لقد اعتمدنا في هذا الكتاب على مجموعة واسعة من المصادر الاساسية يختلف استعمالنا لها ويمكن تقسيم أنماطها على النحو التالي :

1) ـ التواريخ « العالمية ».
2) ـ المعاجم العامة للسير والبيبليوغرافيا.
3) ـ معاجم سير ومؤلفات الفقهاء ورجال الدين.
4) ـ مختارات أدبيـة.
5) ـ «الكرونيكاس» أو سجل الوقائع المسيحية والتواريخ الاسلامية.
6) ـ المؤلفات الجغرافية.
7) ـ المذكرات.
8) ـ المؤلفات الادبية.
9) ـ رسائل في القضاء والحسبة.

10) ـ مؤلفات أخرى في رتبة خاصة مثل مجموعات الامثال أو المؤلفات الجامعة .

11) ـ مجموعات النقود والمآثر والنقوش والرسائل ووثائق أخرى .

إن مصادر دراسة تاريخ اشبيلية والاندلس في عهد دول الطوائف (القرن الخامس الهجري ـ الحادي عشر الميلادي) وفيرة إذا اعتبرنا أن فترة اهتمامنا تبعد عنا بأكثر من تسعة قرون . وبالرغم من أن المصادر لا تفيدنا كثيراً في جوانب كثيرة من التاريخ الاشبيلي والاندلسي إبان فترة دول الطوائف فهناك حقيقة أخرى هي أن المصادر الموجودة لم تستغل بكيفية علمية إلا على نطاق محدود جداً ، وذلك رغم تحقيقات قيمة لعدد من المصادر التاريخية الفريدة

ويمكن إبراز أهمية مصادر تاريخ الاندلس إبان القرن الهجري الخامس من خلال مقارنتها بمصادر بعض الفترات التاريخية الاخرى كعهد بني أمية. فنجد على سبيل المثال أن المؤرخين الاسبانيين والفرنسيين والعرب بذلوا مجهودات جبارة أسفرت من دراسات ومقالات عديدة حول دولة بني أمية بالاندلس .

ونلاحظ أن هناك خللا في التوازن بين قلة مصادر دولة بني أمية وفقر مضمونها من جهة، وكثرة الابحاث والمقالات حول العهد المذكور من جهة أخرى . فاذا اعتبرنا مصادر الاندلس خلال القرن الخامس الهجري وجدنا أن عددها وقيمتها التاريخية يفوقان أهمية مصادر القرون الثلاثة التي سبقتها بل ان بعض مصادر الاندلس خلال القرن الخامس الهجري تنفرد بصفات لم تتميز بها المصادر التي تناولت فترات أخرى من التاريخ الاندلسي . فمن أبرز من ترك لنا تراثاً يعكس فيه عصره بروح نقدية وتعمق في فهم

الاوضاع الاجتماعية والسياسية وأبعاد الاخطار التي نتجت عن تطورها، نجد علي ابن حزم. ثم يمكن ذكر أبي مروان بن خلف بن حيان الذي أجمع المستشرقون على اعتباره أعظم مؤرخ أندلسي.

إن المصادر التي تناولت فترة دول الطوائف تشمل مؤلفات جمة في ميادين مختلفة. لذلك يجب على المؤرخ الذي يعتمدها أن يقوم بانتقاء دقيق مبني على أسس متينة وتقييم حذر يفرق بين الذي يبدو مزوراً وسطحياً وبين الذي يحتمل أن يكون أصيلا هاماً. كما يتعين عليه أن يستغل تلك المصادر بكيفية مختلفة نظراً لتنوعها، ومما لا جدال فيه فان القيمة الاخبارية للمصادر ككل ذات أهمية كبرى وذلك رغم الفراغ الموجود في مناطق وجوانب معينة. فمن التواريخ «العالمية»، كتاب «الكامل في التاريخ» لابن الاثير الذي يحتوي على مجال تاريخي ضخم ويعتبر مرجعاً تكميلياً مفيداً. ومن المعاجم العامة للسير والبيليوغرافيا كتاب «وفيات الاعيان» لابن خلكان، وهو مفيد في تحديد تراجم الشخصيات التاريخية. أما معاجم سير ومؤلفات الفقهاء والعلماء فمنها «كتاب الصلة» لابن بشكوال و «ترتيب المدارك» للقاضي عياض. ولهذه الكتب إفادة خاصة في دراسة دور العلماء والفقهاء في بيئتهم الاجتماعية والسياسية. ومن المنتخبات الادبية «قلائد العقيان» لابن خاقان و «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لابن بسام. وللكتابين أهمية بالغة لتوفرهما على مختارات من الاشعار خلال القرن الخامس الهجري ولابرازهما أهم الشخصيات الادبية ونشاطها في الميدانين الاجتماعي والسياسي. ويمكن اعتبار «الذخيرة» أوثق مصدر تاريخي لدراسة اشبيلية والاندلس في عهد دول الطوائف لما يشتمل عليه من مختارات كثيرة من كتاب «المتين» لابن حيان.

ثم إن الكتب التاريخية ككتاب « البيان المغرب » لابن عذاري و«المعجب في تلخيص أخبار المغرب » للمراكشي تحتوي على معلومات مفصلة حول الحكام والاحداث الخ . . . ومن المؤلفات الجغرافية كتاب «المسالك والممالك» للبكري الذي عاش خلال القرن الهجري الخامس . ونجد من المذكرات مؤلفا وحيدا يرجع الى القرن الخامس الهجري هو كتاب « التبيان » للامير عبد الله بن بلقين الزيري والذي له قيمة تاريخية بالغة . ومن المؤلفات الادبية المفيدة الدواوين الشعرية كديوان ابن زيدون و«ديوان ابن حمديس » . ويقتضي الاعتماد على الشعر كمصدر تاريخي كثيرا من الحذر ، بيد أن القيمة التاريخية الفريدة لشعر القرن الخامس الهجري تنبثق من كونه يعكس الجو العام وعقلية الفئات الاجتماعية الاكثر امتيازا . ومن الرسائل في الحسبة والقضاء تبرز «رسالة في القضاء والحسبة» لابن عبدون . وهي تصور لنا أحوال العدل في اشبيلية . ومن المؤلفات التي تأتي في رتبة خاصة « ري الاوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام » للزجالي الذي يعكس عقلية وقيم المجتمع الاندلسي . و « نقط العروس » لابن حزم الذي يفيدنا بمعلومات دقيقة حول طبيعة حكام الاندلس . ومن الكتب الجامعة « نفح الطيب » للمقري . ونجد في الختام نقوشا ونقودا في كتاب « نقود ملوك الطوائف الاسبانيين » لجورج مايلز (Coins of the Spanish Mulûk at - Tawaif) وكتاب « نقوش عربية من اسبانيا» لليفي بروفنصال (Inscriptions arabes d'Espagne) كما توجد مجموعة من الرسائل التي كتبها الحكام كالمعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين وألفونسو السادس . ثم هناك رسائل أخرى للادباء أمثال ابن زيدون وابن حزم . ونوجد بعض هذه الرسائل منقولة في مؤلفات كالكتب التاريخية والمختارات الادبية والمؤلفات في البلاغة .

وتختلف درجة الاعتماد التي يمكن وضعها على المصادر لدراسة القرن الخامس الهجري . فبينما عاصر بعض المؤلفين أمثال عبد الله بن بلقين والبكري وابن حزم وابن زيدون والحميد وابن حيان عهد دول الطوائف عاش آخرون بعد هذه الفترة بقليل أو كثير . فقد كتب كل من ابن عبدون وابن بشكوال وابن بسام خلال القرنين الخامس والسادس للهجرة . كما أنتج بعض الكتاب أمثال ابن خلكان وابن عذاري خلال القرن الهجري السابع ، بينما كان انتاج كل من ابن الخطيب وابن خلدون في القرن الثامن ، وحتى في فترة متأخرة كالقرن الهجري العاشر نجد الكتاب الضروري الجامع وهو « نفح الطيب » للمقري . ومع ذلك فان تاريخ المؤلف ليس معيارا في حد ذاته لقيمة الكتاب من ذلك أن السبب الرئيسي لقيمة « نفح الطيب » بالنسبة لمن يدرس تاريخ الاندلس خلال القرن الهجري الخامس يرجع الى كونه يقتبس كثيرا من مصادر سبقته وضاعت بأكملها أو فقدت أجزاء منها . وهناك خلاف حول تواريخ تأليف بعض الاعمال المنسوبة لمؤلفين مجهولين مثل كتاب « ملحمة السيد » (Poema de Mio Cid) ومع ذلك هناك كتب متأخرة لم تضبط تواريخ تأليفها مثل « الحلل الموشية » و « كتاب الاكتفاء » وملحمة السيد . الا أنها تحتوي على بعض المعلومات المفصلة التي لا توجد في غيرها حول أحداث بالغة الاهمية في القرن الهجري الخامس . منها احتلال ألفونسو السادس لطليطلة واحتلال « السيد » لبلنسية .

ولقد ألفت بعض المصادر التي يعتمدها مشارقة اهم علم محدود بتاريخ الاندلس ومصادره . ومن الصدفة أننا نجد النص الكامل لرسالة ألفونسو السادس الى يوسف بن تاشفين منقولا في كتاب يرجع الى القرن الثامن

الهجري حول الاسلوب والبلاغة وهو كتاب «حسن التوسل» للمؤلف المصري الحلبي. ولقد ألف بعض الكتاب تآليفهم عن التاريخ الاندلسي وهم بالمشرق حيث لم يتمكنوا من الوقوف على المصادر اللازمة. وهذا حال المراكشي، الامر الذي يفسر سبب وقوعه في أغلاط متعددة في كتابه « المعجب ».

وتكمن القيمة التاريخية لعدد من المصادر المتأخرة في كونها اقتبست أو نقلت من مصادر سابقة ضاع بعضها ومن هذه المؤلفات كتاب «المتين» الذي هو عبارة عن تاريخ عهد ملوك الطوائف لمؤلف معاصر هو ابن حيان. فلقد كان أصل هذا الكتاب يتألف من ستين جزءاً، فضاعت (3). ومع ذلك فقد نقل عدد من المؤرخين اقتباسات منه على نطاق واسع فرغم أن ابن بسام يركز أساسا على التقديم الادبي والتعليق في كتاب «الذخيرة» فانه يقتبس كثيراً من ابن حيان فيما يخص المعلومات التاريخية، كما نجد اقتباسات من كتاب «المتين» في جل كتب المؤرخين المسلمين الذين يدرسون الاندلس خلال القرن الهجري الخامس (4). وان لم يكن هذا مكانا مناسباً لتحليل مكانة ابن حيان كمؤرخ فتجب الاشارة الى أن الاعتراف المطلق به من

---

3) يذكر بروكلمان ان كتاب «المتين» كان يحتوي في الاصل على ستين جزءاً كانت توجد بمكتبة تونس ، إلا انها فقدت (كارل بروكلمان ، «تاريخ الادب العربي » C. Brockelmann, Geschichte der Arabischen Litteratur , vol. I, p. 338).

4) لقد اعتمد عدد من المؤلفين على كتاب «المتين» كما أخذ البعض اقتباسات منه ومن هذه المؤلفات ما يلي : «الحلة السيراء» لابن الابار و «البيان المغرب » لابن عذاري و«المغرب في حلى المغرب» لابن سعيد و«نفح الطيب» للمقري. وتعكس هذه المجموعة التأثير الكبير الذي تركه كتاب «المتين» على عدد من المؤلفين خلال فترة تناهز الخمسة قرون

طرف المتخصصين في الدراسات الاسبانية كأعظم مؤرخ أندلسي اعتراف له ما يبرره من خلال الاقتباسات التي وصلتنا من كتاب « المتين ».

ومن المصادر التي اعتمدناها في هذا الكتاب، كتاب « الذخيرة » لابن بسام وكتاب « التبيان » لعبد الله بن بلقين. أما « الذخيرة » فهي أهم المصادر لدراسة الاندلس في القرن الهجري الخامس (5). ونقدر أهمية القسمين الاول والرابع في كونهما يشتملان على أطراف منيرة حول الشعراء الذين كان لهم دور هام في تاريخ اشبيلية ومنهم ابن زيدون. كما يشمل القسمان روايات مهمة حول تاريخ بعض الدول الطائفية كقرطبة وطليطلة واشبيلية. ومع هذا فإن القسم الثاني الذي يدرس الشخصيات الادبية البارزة، في الغرب الاندلسي بما فيه اشبيلية هو القسم الذي لا يمكن الاستغناء عنه في دراسة تاريخ اشبيلية. والنقط التالية تثير أهمية هذا المصدر بالنسبة للمؤرخين لاشبيلية.

1) رغم أن الاهداف الاساسية من القسم الثاني من «الذخيرة» أهداف أدبية فانه يطلعنا على سير أبرز الشخصيات السياسية الاندلسية في الغرب الاندلسي خلال عهد دول الطوائف ومنها حكام بني عباد وابن عمار والقاضي ابن الوليد الباجي الخ . . ويمكن من خلال المعلومات البيليوغرافيا

---

5) هناك دراسة نقدية لكتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لابن بسام وهي عبارة عن أطروحة لنيل الدكتوراه (ب. إ. ناصيف، الذخيرة لابن بسام الشنتريني، دراسة نقدية لمحتواه» B. E. Nassif. La Dajira de Ibn Bassam al-Santarini. Estudio critico de su contenido un published doctoral thesis. Madrid, 1962).

وتجب الاشارة الى أن الاهتمام الاساسي يقع بالدرجة الاولى على الطابع الادبي في كتاب « الذخيرة ».

للشخصيات المختلفة المدروسة في القسم الثاني من « الذخيرة » أخذ انطباع حي حول عقلية ومزاج وقيم وسلوك الساسة الاندلسيين في تلك الفترة . فبينما يشكل العدد الكبير من الشخصيات المدروسة مساهمة فعالة في تصورنا للمزاج العام الذي اتصفت به الاحوال السياسية في الاندلس فان ضم أبرز الشخصيات يلقي أضواء على مشاكل محددة. وتزداد القيمة الحقيقية لمثل هذه المعلومات عند ما نعتبر قلة المصادر الموثوق بها لدراسة فترة تبعد عنا بتسعة قرون، فنجد أن مؤرخ هذه الفترة يرحب بأية معلومات جديدة شريطة أن يكون واثقاً من صحتها وأصالتها .

2) يعطينا القسم الثاني أيضاً معلومات ثمينة بشأن أهم الاحداث التاريخية في شرق الاندلس خلال القرن الخامس الهجري، منها سقوط اشبيلية في أيدي المرابطين أو حروب المعتضد بن عباد مع المظفر بن الافطس.

3) مما يهتم به المؤرخ العصري بصفة خاصة أن ابن بسام قد عاصر بعض الاحداث التي يعالجها في القسم الثاني من « الذخيرة »، فكان له اتصال مباشر ببعض الشخصيات التي تناولها بالدرس. ومما يكتسي أهمية بالغة في النهاية الطابع الموضوعي لما كتب، ثم اعتماده على ابن حيان أعظم المؤرخين الاندلسيين .

ومن المسلم به أن مذكرات الامير عبد الله بن بلقين التي عنوانها كتاب «التبيان» مصدر فريد لدراسة الاندلس خلال القرن الهجري الخامس(6).

---

6) انظر في هذا الشأن تحليلا نقدياً وترجمة الى الانجليزية مع تعاليق مفصلة «لكتاب التبيان» أمين توفيق الطيبي « التبيان لعبد الله بن بلقين آخر أمير زيري في غرناطة»:
A.T.Tibi, The Tibyan of Abdullah b. Buluggin, Last Zirid Amir of Granada *un published Ph. D. thesis, Oxford, 1972* .

ولم يكن الامير عبد الله شخصية معاصرة فقط، بل شارك في عدد من الاحداث التاريخية التي يناقشها . لقد ألف عبد الله كتابه في المغرب بعد احتلال يوسف بن تاشفين لدول الطوائف. ولذلك كان عبد الله مقلالا فيما قاله عن يوسف، ولكنه استطاع أن يناقش تاريخ غرناطة وعلاقاتها بالدول الطائفية الاخرى مثل اشبيلية بحرية تامة. ولا تنحصر قيمة كتاب «التبيان» في كونه مصدراً مهماً للمعلومات، فعبد الله بن بلقين يقدم لنا أفكاره والدوافع الخفية وراء قراراته، بل انه يذهب إلى تحليل سلوك وعقلية خصومه أمثال وزير المعتمد بن عباد، ابن عمار، أو ألفونسو السادس. وينقل أحيانا اقتباسات من الشخصيات التي يشير اليها مثل رسل ألفونسو السادس، سيسناندو ، دافديث وألفا فانييث وبيدرو أنسوريث. وأخيراً فرغم اهتمام عبد الله أساسا لتاريخ غرناطة فانه يناقش أبرز الاحداث التاريخية في القرن الخامس الهجري مثل احتلال ألفونسو السادس لطليطلة في سنة 478هـ ـ 1085 م. ومعركة الزلاقة في سنة 479هـ ـ 1086م التي شارك فيها.

وللمعلومات الواردة في المصادر المسيحية إسهام كبير في تكميل أو مطابقة أو معارضة المعلومات الواردة في المصادر الاسلامية أو العربية ويتمكن المؤرخ من خلال اختلاف نظرة كل منها اختبار المادة ومعالجة المشاكل المختلفة بموضوعية أكثر، ومع الاسف الشديد فإن الوقائع التاريخية المسيحية (كرونيكاس) التي اهتمت بالقرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) قليلة ولا يمكن استعمالها إلا في نطاق محدود، ولم تهتم هذه الاخيرة بالمجتمع الاندلسي الاسلامي في حد ذاته بل انحصر ذكرها لهذا المجتمع في إطار علاقاته مع الحكام والقادة المسيحيين أمثال ألفونسو السادس و«السيد القنبياطور» رودريغو دياث. ولكن هناك روايتان تاريخيتان

مسيحيتان ذاتا أهمية خاصة وهما «تاريخ رودريكي» (Historia Roderici)
و «السجل الاول للوقائع العامة الاسبانية» (Primera crónica general de España)
باللغة الاسبانية القديمة يعتبر المصدر الاول الذي كتب باللاتينية لمؤلف مجهول الاسم، أقدم رواية تاريخية مسيحية في اسبانيا (إذ يرجع تاريخها إلى حوالي القرن الثاني عشر الميلادي) وتتطرق لاحداث القرن الحادي عشر الميلادي. ولقد نسب هذا العمل المطران إسمه رودريغو (Rodrigo). (7) أما الكتاب الثاني وهو أول رواية تاريخية باللغة الاسبانية فلقد جمعت بإذن من الملك الفونسو العاشر وتوبع جمعها تحت رعاية الملك سانشو الرابع. ويمتاز المصدر الثاني بمعلومات طريفة كما يعتمد بدوره على كتاب «تاريخ رودريكي». (8) ولهذين المصدرين أهمية كبيرة في دراسة علاقات إشبيلية بالدول المسيحية، كما يعطياننا معلومات وأخبارا مفصلة عن أهم أحداث القرن الحادي عشر الميلادي، منها احتلال الفونسو السادس لطليطلة ومعركة الزلاقة واحتلال السيد (El Cid) لبلنسية.

وهناك كتاب «ملحمة السيد» (Poema de Mio Cid) أو (Cantar de Mio Cid)
وهو من المصادر الاندلسية المعتمدة في دراسة القرن الحادي عشر الميلادي

7) انظر تحليلا لكتاب «تاريخ رودريكي» في كتاب رامون مينندث بيدال، «اسبانيا على عهد السيد»: Ramon Menendez Pidal, La España del Cid, vol. 2, Madrid, 1929, pp. 901 - 15.

8) حول هذا العمل انظر: الفونسو العاشر وسانشو الرابع، السجل الاول للوقائع العامة الاسبانية.

Alfonso X and Sancho IV, Primera crónica general de España, *Madrid, 1955, vol. 1, pp.* XV - LXXII, and vol. 2, pp. CXXXIX - CCVIII.

بالرغم من الانتقادات العديدة التي وجهت لهذا المصدر بشأن أصالته التاريخية (9) . فرغم وجهة نظر المؤرخين القائلة بأن كتاب «ملحمة السيد» محدود الفائدة كمصدر تاريخي شأنه شأن أية ملحمة حيث يجب الاعتماد عليه بحذر، فإن هذا العمل يشير إلى عدد من الشخصيات التاريخية التي لا يشك في صحة وجودها التاريخي، كما أنه يعكس الروح العامة السائدة في قشتالة خلال القرن الحادي عشر الميلادي وعقلية القشتاليين المعاصرين له وذلك بحدة ووضوح كبيرين، بالاضافة إلى أن المعلومات الواردة في هذا الكتاب لا تعارض الارتسامات العامة التي يمكن استنباطها من المصادر التاريخية الموثوق بها .

إننا نجد في الملحمة صدى صفتين من خصائص قشتالة في القرن الحادي عشر الميلادي تبرزان بروزاً كاملا وهما : الجشع المفرط للكسب

---

9) من أدق التعليقات لكتاب « ملحمة السيد » تلك التي قام بها كولن سميث : Colin Smith, Poema de Mio Cid, Oxford, 1972. ومع ذلك فلو كان المحقق كولن سميث مطلعاً على اللغة العربية لتمكن من استعمال المصادر العربية ولاستطاع اتخاذ منهج أكثر موضوعية عند تحليله لأصالة الملحمة التاريخية في مقدمته • فعلى سبيل المثال ; لا يناقش سميث في قسم من مقدمته يحمل عنوان « ملحمة وتاريخ » الروايات التاريخية حول عدد من الشخصيات الموجودة في الملحمة في المصادر العربية «كالذخيرة» لابن بسام وكتاب التبيان » لعبد الله بن بلقين و « الحلل الموشية » لمؤلف أندلسي مجهول الاسم . وكانت النتيجة ان تقييم سميث لأصالة الملحمة كان ناقصاً ويتصف بعدم التوازن .

المادي والعنف الغريزي (10) ونجد انعكاسا بالغا لهذا العنف في المصادر التاريخية، وبالرغم من البعد المثالي السائد في الملحمة فإنها لا تعارض الواقع التاريخي لتلك الفترة لان الاندفاع القوي للكسب المادي الذي تعكسه الملحمة كان عنصرا محركا أساسيا وراء ديناميكية السيد وأتباعه (11) !..

ومع ذلك فبدلا من أن تعكس الملحمة هذا العنف وهذا الشره بكيفية فجة فإنها اعتبرتها داخل إطار الشرعية والقداسة نظرا لمساندة الملك ألفونسو

---

10) فعلى سبيل المثال، تعتبر القوة من جملة خصائص السيد الباهرة كما يعتبر استعمال القوة ضد المسلمين واجبا خلقيا ، أما العنف فكان حاضرا في وصف احتلال السيد لحصون مختلفة مثل كاستيخون (*Castejon*) والكوثر (*Alcocer*) واتيكا (*Ateca*) وتيرير (*Terrer*) (ملحمة السيد ، 26 - 17 .Poema de Mio Cid, p.p) وكان يعتمد على العنف اللفظي في التعبير عن الشعور الفياض للمشاركين في محاكمة أميري كاريون (نفس المصدر ، صفحات 96 - 103) ، بل وحتى السيوف التي يحملها أصحاب السيد وصفت « بالسيوف المذية » (**Espadas dulces o Tajadores**) (نفس المصدر ، ص . 94) .

11) فعلى سبيل المثال ، يقسم السيد عادة الغنائم المحصل عليها من المسلمين على رجاله في مناسبات كالدفاع عن بلنسية ضد ملك إشبيلية (ملحمة السيد 41 - 40 .Poema de Mio Cid, pp) ولقد حصل السيد على مساندة الملك القشتالي له من جديد بعد أن كان غاضبا عليه وذلك بمناسبة تقديم السيد هدايا للملك المذكور منها مائة خيل بعثها له بعد دفاعه عن بلنسية (نفس المصدر ، صفحتي 41 - 42) وعند محاكمة أميري كاريون طلب السيد منهما إعادة السيفين اللذين كان قد وهبهما إياهما واللذان يحملان إسم « كولادا » (**Colada**) و « تيزون » (**Tizón**) كما طلب منهما مبلغا ماليا قدره ثلاثمائة مارك كان قد منحها لهما أيضا ، وأخيرا طلب العدالة لابنتيه اللتين أضر بهما الاميران (نفس المصدر ، صفحات 96 - 97 - 99) .

السادس والكنيسة لهما. ومن هنا فرغم طرد الملك للسيد رودريغو دياث في الآونة الاولى، فانه أعجب به فيما بعد بل رحب به ودافع عنه كبطل (12)

لقد شكلت العقيدة العميقة للسيد مصدر الالهام خلال الاوقات الحرجة. وعلاوة على ذلك، ترك السيد زوجته وابنتيه في دير سان بيدرو دي كاردنيا تحت رعاية الراهب دون سانشو عندما نفي. كما أن جيروم - الذي كان فرنسيا في غالب الظن والذي قاتل بجانب السيد - قد عين أسقفا على بلنسية عندما احتلها السيد (13).

ولهذا فان كتاب «ملحمة السيد» يشكل مصدراً لا يمكن الاستغناء عنه عند مناقشة القوة الاجتماعية والتاريخية الاساسية وراء تطور مملكة قشتالة التي شرعت بعد سنة 478 هـ - 1085م. في نهج سياسة تهدف احتلال الاندلس برمتها كما أن دور الكنيسة الروحي قد سيطر في الملحمة. ولكن سلطة الملك كانت العنصر السياسي الموحد الذي لم يكن لبطل الملحمة بد من الخضوع لقوته ونفوذه.

---

12) على سبيل المثال انظر الخطاب الافتتاحي للملك خلال محاكمة أميري كاريون (نفس المصدر ، ص. 95).

13) نفس المصدر ، صفحات 9 - 11 - و 42 - 43).

الفصل الاول

دولة بني عباد: تحليل لقيام دولتهم وسقوطها

القاضي محمد بن اسماعيل بن عباد (414/1023 ـ 433/1041)

الاحوال العامة في الاندلس قبل مجيء بني عباد

لم يسبق في التاريخ لدولة ضاربة في الحضارة أن تفككت أواصرها الداخلية وانفصم عقدها، سياسياً الى جزئيات مستقلة مثلما حصل في الاندلس خلال القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) . ثم انه من النادر ان تتمكن كيانات سياسية صغيرة من المحافظة على استقلالها الذاتي طيلة المدة التي استطاعت دول الطوائف خلالها انجاز ذلك. وما تزال هذه الظاهرة تتسم بالغموض لان التاريخ الاندلسي خلال القرن الخامس للهجرة ما يزال بدوره بحاجة الى الكثير من البحث . ومن جراء ذلك ظهرت الضرورة الملحة للنظر الى فترة ملوك الطوائف نظرة جديدة تأخذ بالاعتبار الادق مدى تأثيرها في التاريخ الاندلسي كله .

لقد انحل النظام الاداري والسياسي العام بالاندلس خلال القرن الهجري الخامس فوصل أقصى درجات الانفصال وأبعد حدود اللامركزية . فبعد سقوط

دولة بني أمية فقدت قرطبة بصفة نهائية دورها الذي نهضت به ، كمركز استقطاب ، الى نهاية القرن الهجري الرابع ، فقد تحولت الاقاليم الاندلسية الى مناطق نفوذ شبه مستقلة ومنعزلة، أي ما يعرف بدول طوائف، فأصبحت النزعة الاقليمية هي النتيجة الحتمية التي قضت نهائياً على الخلافة بقرطبة المضمحلة أوائل القرن الخامس الهجري . واستمرت هذه الاقليمية فأصبحت تشكل قالباً للاضطرابات السياسية التي زعزعت الاندلس طيلة ذلك القرن . فاللامركزية والاقليمية والتفرقة أصبحت عناصر أساسية ميزت وحددت فترة تاريخية اختصت بظاهرة فريدة هي ظاهرة نمو دول الطوائف .

ان القوى المعقدة في الاندلس والتي كانت تتداخل أحياناً وتتصارع أطواراً أخرى قد فرضت نفسها بطرق متعددة وحسب ظروف مختلفة طيلة القرن الهجري الخامس الذي اكتسبت خلاله العوامل المذهبية أهمية بالغة في صياغة التطورات السياسية بالاندلس .

ولقد كانت قوى الوعي الاسلامي الجماعي تنطلق كردة فعل كلما حدث في الشمال تهديد مسيحي ذو أبعاد خطيرة . ويبدو أن العناصر الاسلامية قد أبرزت اتجاهين متعارضين إذ حافظ ملوك الطوائف من جهة على مظاهرهم الاسلامية بقصد اضفاء صبغة شرعية على هيمنتهم واستئثارهم بأقاليم خلافة دولة بني أمية السابقة ، رغم عوامل الانفصال ، ثم المعارضة الاسلام التي نتجت عن تفككهم وقيام دولة الطوائف فيما بينهم . ومن أبرز الامثلة في هذا الصدد الاستنجاد بيوسف بن تاشفين الذي قرره ملوك الطوائف وبرروه بأسس ودواع دينية ، رغم وجود أسباب مخالفة ولا صلة لها بالدين في المدين القريب والبعيد، لمناهضة سياسة ألفونسو السادس

العدوانية بعد سنة 478 هـ / 1085 م (1) . ولقد ميزت المصطلحات الاسلامية خطب ملوك الطوائف ورسائلهم ، نثراً وشعراً . فعلى سبيل المثال نذكر أن جواب المعتمد بن عباد على رسالة ألفونسو كان مليئاً بصياغات دينية ، كما تبدو تلك الخاصية بوضوح في مذكرات الامير عبد الله بن بلقين بن زيري ، حاكم غرناطة ، عند ما يضيف مبررات اسلامية سنداً لمعظم القرارات التي اتخذها ، بل انه يذهب الى الاستدلال بالقرآن وإيراده أساساً ومرجعاً بديهياً لتبرير مواقفه . ومما يشير الى النزعة الدينية لدى ملوك الطوائف اختيارهم للالقاب كالمعتضد بدين الله والمعتمد على الله والمستعين بدين الله رغم أن ذلك الوجه الاسلامي الظاهر لملوك الطوائف كان يتناقض مع أعمالهم العديدة المعارضة للدين ، الامر الذي يثبت سطحية الاحتمال الاول . ومن خلال انتقاد هذه الاعمال ورغم التأييد الداخلي والشعبي الذي كان يحظى به ملوك الطوائف فان حركة ثقافية قوية قد نمت واستطاعت أن تتحدى حقهم في الحكم ، وذلك بواسطة تدعيم مطالبها بمبدأ الشرعية الاسلامية فقد ضمت هذه الحركة الثقافية المعارضة أفراداً ذوي مهن مختلفة ينتمون الى جميع أنحاء الاندلس ، جمع بينهم تنديدهم الصريح بملوك الطوائف وانضواءهم تحت ظل لواء واحد في سعيهم لتوحيد الاندلس . فبينما كان ملوك الطوائف يرغبون في المحافظة على الحالة التي وفرت الاستقرار اللازم لبقائهم كان مناضلوا الحركة الثقافية يستهدفون أحداث تغيير جذري للاندلس عن طريق ضم أقاليمها المشتتة وتوحيدها من جديد . ولقد كان التعبير عن السخط

---

1) يأتي تحليل سياسة ألفونسو السادس تجاه دول الطوائف بعد احتلال طليطلة سنة 478 هـ / 1085 م ، بالتفصيل في الفصل الرابع من هذا الكتاب .

الشائع يجري على عدة مستويات استوعبت زيارات القاضي أبي الوليد الباجي لابرز ملوك الطوائف ومحاولة اقناعهم بمسالمة بعضهم لبعض وتوحيد الاندلس ، وذلك إثر عودته من المشرق عام 426 هـ / 1034 م . (2) ، وكذلك الادانات المرة التي تبرز في منتخبات من كتاب المتين لابي حيان ، وكذلك أيضاً في سخرية ابن حزم والجارحة وفي النضال الفعلي لمؤيدي يوسف بن تاشفين المخلصين كالقاضي ابن سهل وباديس بن ورّدي أو القليعي (3) . ولقد انعكست الادانة العامة لملوك الطوائف على الشعر السياسي في تلك الفترة فأصبح ذلك الشعر بادانته وسيلة اعلامية فعالة (4) .

---

2) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ، « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » القسم 3 ، ج . 1 ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ليبيا - تونس ، 1398 هـ . - 1978 م . صفحتي 95 - 96 ، (بعد إعطاء معلومات مفصلة حول الكتب الواردة في الهوامش عند ذكرها لاول مرة سنستعمل اختصارات ترمز إليها كلما ذكرت من جديد) .

3) الامير عبد الله بن بلقين بن زيري ، « كتاب التبيان » ، تحقيق إفاريست ليفي بروفنصال ، القاهرة ، 1955 ، صفحات 117 - 118 ، 146 .

4) ربما كان أشهر شعر هجائي يدين ملوك الطوائف الابيات التالية من شعر أبي الحسن علي بن رشيق القيرواني :

« مما يزهدني في أرض أندلس   سماع مقتدر فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها   كالهر يحكي انتفاخاً صولة الاسد »

(أبو محمد عبد الواحد بن علي المراكشي ، « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » ، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ، 1949 ، ص ، 75 ، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد « كتاب رايات المبرزين وغايات المميزين » ، ص . 101 ، الذي حققه ونقله الى الاسبانية اميليو غارسيا غومث تحت عنوان :

El libro de las banderas de los campeones , ed. and tans. into Spanish by Emilio García Gómez, Madrid, 1942, p. 101.

ورغم مساهمة هذه الحركة في الانهيار النهائي لدول الطوائف ، فان النقص في تنظيمها وصدورها عن نوازع وأغراض شخصية كانت في طليعة العوامل التي مكنت المرابطين الاكثر نظاماً من قيادة الاندلس بعد انتصارهم على ملوك الطوائف. وبالاضافة الى ما سلف فان المعارضة الثقافية كانت منظمة تنظيماً معنوياً أكثر مما كان تنظيماً سياسياً.

ولقد برزت على المستوى الداخلي قوة وعي أخرى عند ما اجتمعت أو تصادمت أطراف عرقية مختلفة. فان المجتمع الاندلسي المتعدد الاجناس والذي كان يتألف من العرب والبرابرة ، والصقالبة واللاتينيين قد اهتز وغدا أكثر حساسية خلال القرن الخامس الهجري المضطرب فمع انتشار القلق الاجتماعي وفشو الاضطراب والعنف تشكلت التكتلات العرقية فأصبحت الوسيلة الوحيدة للحصول على الامن وتقوية أسباب الدفاع. فرغم البعد السلالي وضرورته كعنصر في تحليل العلاقات بين ملوك الطوائف فإنه لا يجب تصويره كعامل قار مسيطر. ويمكن إثبات تهافت النظرة العرقية بإيراد أمثلة للتعايش السلمي بين دول الطوائف، عربية وبربرية من جهة، وبربرية وصقلبية من جهة ثانية، وصقلبية وعربية من جهة أخرى. فعلى سبيل المثال نذكر أن إشبيلية تمتعت على عهد بني عباد بعلاقات سلمية مع زعيم قرمونة ، محمد بن البرزالي ، بينما نجد الامير عبد الله بن بلقين ، حاكم غرناطة ، يعبر عن عميق شكره للمعتمد الذي قدم له مساعدات في وقت الازمة وانعدام الاستقرار الداخلي (6) . كما ساهم التزاوج أيضاً في تمتين

6) يثني الامير عبد الله بن بلقين على المعتمد بن عباد كلما ذكر إسمه ، مثلا أنظر «كتاب التبيان» ، ص. 83.

الولاء بين أعراق مختلفة . من ذلك زواج المعتضد بن عباد ببنت مجاهد العامري ، أخت علي بن مجاهد ، حاكم دانية (6) . كما أن هناك أمثلة كثيرة للمواجهات العسكرية بين دول الطوائف المنتمية إلى أصل عرقي متشابه ، الامر الذي تبرزه النزاعات الداخلية بين العرب والبربر والصقالبة . وكمثال على الاصطدامات بين ملوك الطوائف المنتمين الى الاصل الواحد يمكن ذكر اصطدام المعتمد بابن جهور وقتال الامير عبد الله بن بلقين لاخيه تميم ، أو تحالف محمد البرزالي والمعتضد ضد بربري آخر هو يحيى ابن حمود (7) . وسبق لقاسم بن حمود أن اصطدم بأخيه علي، ثم بابن أخيه يحيى بن حمود (8) ويمكن القول في النهاية بأن التقسيم العرقي لدول الطوائف . إذا ما تجاهلنا دور السكان الاصليين بالاندلس . كان ينبني على الاصل العرقي لملوك الطوائف أنفسهم ، ويتجاهل التنوع السلالي للسكان المحليين في تلك الدول .

---

6) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الابار القرطبي ، «الحلة السيراء» ، ج 2 ص 48

7) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ، «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» ، القسم 1 ، ج . 2 ، تحقيق إحسان عباس ، ليبيا ـ تونس ، 1398 هـ / 1978 م ، ص . 160 و«كتاب التبيان» صفحات 90 ـ 95 ، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ، «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» ، القسم 1 ، ج 1 ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ليبيا ـ تونس ، 1395 هـ / 1975 م ، صفحات 316 ـ 318 .

8) ابو العباس احمد بن محمد بن عذاري المراكشي ، «البيان المغرب في أخبار ملوك الاندلس والمغرب» ، ج . 3 ، تحقيق إفريست ليفي بروفنصال ، باريس 1930 ، صفحات 124 ـ 125 ، 136 ، و«الذخيرة» ، القسم 1 ، ج 2 ، صفحات 481 ـ 482 ، 485 .

وقد كان الجشع الفردي والحرص على الكسب وإيثار المصلحة الشخصية عوامل تطغى أحياناً على جميع الاعتبارات الاخرى في تقرير التطورات السياسية بين دول الطوائف، وداخل الدولة الواحدة منها أيضاً. فقد كان القرن الخامس الهجري عهداً جرى فيه استغلال النفوذ الى درجة بعيدة فصار وسيلة لتصفية الحسابات والخلافات على مستوى الافراد والدول معاً. وهكذا وجدت الطموحات الشخصية تربة خصبة لنموها، فحتى إذا لم نعتبر أن الجيل الاول من ملوك الطوائف فرض سلطته على مختلف أقاليم دولة بني أمية بطريقة غير شرعية فان هناك أمثلة عديدة لمغامرين ثاروا على ملوك الطوائف أنفسهم. فكتاب «التبيان» للامير عبد الله بن بلقين يسلط الاضواء على هذا المشكل عند ما يعطينا أمثلة مفصلة للمتمردين أو القوى المتمردة التي هددت وحدة غرناطة. لقد حاول أخو عبد الله، تميم، الذي كان يحكم مالقة، احتلال أراضي غرناطة، فلما هزم عسكرياً، استمر في الالحاح على مطالبه لدى يوسف بن تاشفين حتى بعد معركة الزلاقة. وبعد أن هزم الامير عبد الله قائده المتمرد، ابن تاقناوت، أعدم مؤيديه أيضاً. وكان قائده على أرجونة وأنتقيرة، كباب بن تميت، قد أشعل نار الفتنة بين المعتمد والامير عبد الله، حتى قمعه هذا الاخير (10). أما الجالية اليهودية المرهقة بالضرائب في اليوسنة فثارت بقيادة ابن ميمون، على عبد الله، إلى أن توصلت معه إلى إتفاق بتدخل مؤمل قائد عبد الله على حصن لوشة، وجماعة من أحبار اليهود (11).

---

9) «كتاب التبيان»، صفحات 90 ـ 95، 106 ـ 107، 113.

10) نفس المصدر، صفحات 95 ـ 100.

11) نفس المصدر، صفحات 130 ـ 132.

لقد منيت ثورة مؤمل على عبد الله بالفشل ، فلما يئس من الحصول على مساندة يوسف اضطر الى الفرار (12) . أما نعمان ، وهو القائد الذي هزم مؤمل ، فقد التحق بصفوف جيش يوسف بعد معركة الزلاقة وقاد القوات المنتصرة خلال احتلاله لليوسنة وحصون أخرى في أراضي بغرب غرناطة (13) ولم يفشل تمرد قواد زناتة على عبد الله إلا بفضل العمل الحازم الذي نهض به عبد الله في الوقت المناسب (14) . وان مما يساعد كثيراً على استجلاء الامر شكوك عبد الله المفرطة في موظفيه الكبار وقواده بغرناطة ، وكذلك لجوؤه باستمرار الى اتخاذ التدابير الاحتياطية فقد ألغى على سبيل المثال منصب الوزير واعتبر كل موظف مسؤولا لديه بصفة مباشرة (15) . ومن الذين ثاروا على المعتمد ، ابن رشيق ، ورفيقه وصديقه الحميم سابقاً ، ابن عمار (16) . وكانت الثورات على ملوك الطوائف هي القاعدة ، لا الاستثناء. فقليل منهم لم يتعرض لمتحد ثائر . غير أن الملاحظ بصورة غالبة هو أن القواد المحليين كانوا يتمتعون بنفوذ فعلي داخل ثغورهم ، مع محافظتهم على ولاء شكلي إزاء ملوك الطوائف وخلاصة القول هي أن المصلحة الشخصية للثوار تستنبط من انعدام دوافع مذهبية جادة في تحريك أعمالهم ويمكن أن نلاحظ نفس الامر بالنسبة لملوك الطوائف خصوصاً إذا اعتبرنا

---

12) نفس المصدر ، صفحات 134 ـ 138 .

13) نفس المصدر ، صفحات 138 ـ 139 ، 144 ، 148 .

14) نفس المصدر ، صفحات 133 ـ 135 .

15) نفس المصدر ، ص . 86 .

16) نفس المصدر ، صفحات 110 ـ 112 ، 79 ـ 81 .

مناوشاتهم السخيفة ومحاولات بعضهم تخريب بعض ، فضلا عن سياستهم الداخليـة التعسفية القائمة علـى الشطط والافراط في فرض الضرائـب (17) .

لقد كانت للعوامل الجغرافية دلالـة ضئيلـة في تحديد الاصطدامات العسكرية بالاندلس ، خلافا للشمال المسيحي حيث كانت أحـوال الطقس الباردة والغابات والجبال حواجز طبيعية تعوق الجيوش الاسلامية عن القيام بحملات كحملات المنصور بن أبي عامر . إلا أن الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية أثرت كثيراً في تطور الاحداث خلال القرن الخامس للهجرة ، وكذلك تدخل الافراد انطلاقا من محض إرادتهم . ان الوجود الكامن لمجموعة من القوى المتفاعلة التي تعايشت في انسجام أحيانا وتصادمت في أطـوار أخرى قد تغيرت أنماطها بطرق مختلفة حسب تغير الظروف . ومن هنا نجد التناقضات التي شكلت النمط الاساسي للنزعات السياسية بين دول الطوائف. ومع ذلك فان تضارب القوى المتناقضة وبروزها على المستوى السياسي خلال القرن الهجري الخامس لا يشير الى تفكك طبيعي للمجتمع الاندلسي لانـه سبق لهذا المجتمع أن أثبت إلتحامه بفضل تفاعل ثقـافي فريد مستمر . فاستبداد بني أبي عـامر قد أثـار بتعصبه ردود فعـل قوى خفيـة مختلفة ومقهورة ، عززت الدفاع عن المصالح الضيقة للجماعات . واستغلال بني أبي عامر للنفوذ حال دون أيـة محاولة إيجابية لانقاذ الهيكل السياسي المنهار لدولة بني أمية . كما أن الخطر العنيف للنشاطات السياسية المشروعة في مجتمع سبق له أن كان متسامحا وبالغ التسييس كانت لـه نتيجة حتمية

---

17) نفس المصدر ، ص . 109 .

بعيدة المدى في شكل انفجارات عنيفة وتقسيم نهائي للاندلس الى دويلات متعددة. وخلال الفترة الانتقالية لهيمنة دولة بني أبي عامر كان دورهم الذي يبدو وحدوياً عند قيادتهم للاندلس قد تضاءل أمام العواقب السلبية الناتجة في المدى البعيد عن خنق جميع القوى السياسية الموجودة بالاندلس. ولقد كان الطابع التوسعي لدولة بني أبي عامر ومظاهرها الشبه للامبريالية تعكس مظهراً خارجياً يتناقض مع الباطن الذي كان يخفي عناصر الضعف والتعفن.

ورغم أن بداية دولة بني أبي عامر سجلت النهاية الفعلية لدولة بني أمية فان المنزلة الشرعية والروحية لهذه الدولة استمر الاعتراف بها طيلة حكم بني أبي عامر، فقد كان حكامهم، فعلا، يديرون خلافة قرطبة باسم بني أمية. وبعد سقوط الناصر سليمان بن الحكم في سنة 407 هـ./ 1016 م. اختفى هشام الثاني من المسرح السياسي وبغيابه انتهى الى الابد دور الامويين كقوة معنية للمحافظة على المركزية والالتحام. وبفقدان هيمنتهم السياسية لم يردد صدى ماضيهم المجيد إلا حفنة من ملوك الطوائف ادعوا اكتشاف هشام الثاني. لقد أعقب وفاة الحكم المستنصر بالله في 2 صفر 366هـ./ 30 شتنبر 976م. دخول فئات مختلفة في الصراع من أجل الحكم فأدى ذلك الى اثارة عوامل عدة أدت الى الانهيار النهائي للخلافة الاموية بالاندلس. ويتحدث الامير عبد الله بن بلقين عن « ... احماله (المنصور بن أبي عامر) لاهل الدولة الحكمية، وتقصيهم بالقتل ... » (18). ونتيجة لقتل المغيرة بن عبد الله الناصر، بعد وفاة أخيه الحكم، ضعفت معارضة مؤيدي القائدين الصقلبيين، فائق وجؤذر،

---

(18) نفس المصدر، ص. 15.

ثم سحقت (19) أما ولي العهد هشام المؤيد فلما بلغ العاشرة استنصر فوراً كخليفة في 13 صفر 366هـ / 1 اكتوبر 976 م. ثم اعترف به في أنحاء الاندلس كافة (20). واستولى مدبرا القتل، وهما الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ومحمد بن علي بن أبي عامر، على الحكم بصفتهما مشرفين على هشام الثاني، بل انهما حظيا بتأييد صبح، أم الخليفة الصبي، التي كان لها تأثير كبير بسبب تعيينها للموظفين السامين وتدخلاتها السياسية (21). وتدريجيا أدى انعدام الثقة بين عثمان المصحفي ومحمد بن ابي عامر من جهة وطموح كل منهما الى تصفية أولهما وانفراد الاخير بالحكم.

لقد نجح محمد بن أبي عامر في ادراك بغيته باستغلال وضعيته التي ازدادت نفوذا بينما تضاءلت سلطات المصحفي (22). فمن الناحية الادارية ارتقى محمد بن أبي عامر من منصبه الاول كوزير الى منصب القائد

---

19) ابو العباس احمد بن محمد بن عذاري المراكشي، «البيان المغرب في اخبار ملوك الاندلس والمغرب»، ج 2، تحقيق ج. س. كولان وافريست ليفي بروفنصال، لايدن، 1951، صفحات 261 ـ 264؛ وأبو العباس احمد بن محمد المقري، «نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب»، ج. 1، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1939 ـ 1942، ص. 272.

20) ابو عبد الله محمد بن عبد الله لسان الدين بن الخطيب، «أعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلال من ملوك الاسلام»، تحقيق افريست ليفي بروفنصال، الرباط، 1934، صفحات 48 ـ 57؛ «المعجب»، ص 26.

21) «البيان المغرب»، ج 2، صفحات 261 ـ 262؛ «المعجب»، ص 74.

22) «البيان المغرب»، ج 2، ص. 264؛ ابو الحسن علي بن بسام الشنتريني، «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، القسم 4، ج. 2، تحقيق إحسان عباس، ليبيا ـ تونس 1399 هـ / 1979 م، صفحات 64 ـ 66.

إشبيلية الطائفية إلا بضعة أيام ، (43) والانهار ، علاوة على دورها في الري ، كانت ذات أهمية بالغة كوسيلة للنقل . (44) وزيادة على ذلك كان عدد القرى في المناطق الريفية كبيراً حيث نجد ما يقرب من إثني عشرة ألف قرية . (45) ومن منتوجات الاندلس الفلاحية الزيتون واللوز والرمان والبرقوق والموز والتين في أنواع مختلفة . (46) وإلى جانب ذلك ازدهرت منتوجات كانت تستخرج من النبات كالعطور وأخرى كالتوابل مثل الزعفران. (47) واعتبرت المعادن من أهم الثروات الطبيعية التي جادت بها أرض الاندلس، فمنها الفضة في منطقة قرطبة بينما كان يتم تحويل الرمال في مدينة لبلة الى زجاج . (48) وبالنسبة للرخام فكان يستخرج من عدة مناطق ، فمثلا في قرطبة وجد الرخام الابيض والاحمر ، أما الرخام الاسود وهو أقل قيمة من سابقيه فتعددت نواحيه . (49) وزيادة على ما ذكر اشتهرت مواد ومنتوجات أخرى كالخشب والصباغة التي غلب عليها اللون الاحمر خاصة . ومن منتوجات النسيج ثوب حريري ملون عرف باسم المبلد كما كان يصدر الى المشرق زليج ملون ولامع عرف باسم الزليجي . (50) وفي إشبيلية عرفت المنتوجات المعدنية شهرة واسعة ضاهت الشمال المسيحي ومن جملتها صناعة الاقواس والرماح والسهام بالاضافة الى صناعة السرج المزينة . (51)

وساهمت هذه المنتوجات وغيرها في إنعاش الحركة التجارية في المدن الاندلسية من جهة وبين الاندلس وكل من المغرب

فقد بلغ مجموع حملاته العسكرية في أراضي ممالك قشتالة وليون ونافارا وجلاقة الشمالية ثلاثا وخمسين حملة . وانفردت هذه الغزوات بتواترها نظرا لانها أصبحت حدثا سنويا ، كما تميزت بمجالها الكبير حيث أنها شملت أطرافا بعيدة من اسبانيا الشمالية، مثل سانتياغو دي كومبوستيلا ، واختصت بالفوز الذي توجت به ، حتى اضطرت الممالك المسيحية الى نهج سياسة دفاعية مستمرة . ولما كان الهدف الرئيسي من هذه الغزوات اقتصاديا فإن الثروات التي تم الحصول عليها ساهمت مباشرة في تقوية مركز وحكم محمد بن أبي عامر في الداخل . وقد امتدت مجهودات المنصور بن ابي عامر العسكرية الى داخل المغرب ، حيث كانت الاصطدامات الداخلية تعكس الصراع المباشر بين الادارسة من جهة والزناتيين والمغراويين من جهه أخرى ، مؤيدين ، على التوالي ، من طرف الفاطميين في مصر وبني أمية (ثم بني أبي عامر في الاندلس) .

ورغم النجاح العسكري المستمر للمنصور بن ابي عامر ، بعد القضاء على الحاجب المصحفي ، فانه لم يتمكن من سحق جميع العناصر المعارضة . فبعد سيطرته التامة على الجهازين الاداري والعسكري ، اصبح المنصور بن أبي عامر بمنأى عن تأثير صبح ، أم هشام الثاني ، وشكل خطرا على وضعية هشام الثاني كخليفة شرعي . ونتيجة لذلك أخذت صبح تبذل مجهودات خفية لتحريض غالب و زيري بن عطية من بعده ، على تحدي الحكم العامري .

واتخذت معارضة غالب لمحمد بن أبي عامر شكل مواجهة عسكرية انتهت بمقتل أولهما في معركة سان فيسينتي قريبا من أتيينثا

في 4 محرم 381 هـ / 9 أبريل 991 م. (28). ثم نظم المنصور بن ابي عامر هجومات في أراضي ليون ضد راميرو الثالث انتقاما منه لمشاركته في جيش غالب ، فانتصر عليه وعلى حليفه ، سانشوا ملك نافارا ، وغارسية فرناندو ، ملك قشتالة .

أما مساندة صبح لزيري فكانت مالية نظرا لانها كانت تتمتع بحرية التصرف في خزينة الدولة . وجاء رد فعل محمد بن أبي عامر لمعارضة زيري في 8 جمادى الاولى 386 هـ / 24 ماي 996 م . في شكل نقل للمدخرات المالية للدولة الى بلاطه وذلك برضا العلماء والوزراء وقبول هشام الثاني (29). ولمواجهة خطر مؤيدي الامويين الموجه ضده ، نظم استعراضا ضخما شارك فيه هو وابنه عبد الملك وهشام الثاني الذي كان يرتدي زي الخلافة(30). وهكذا استطاع محمد بن أبي عامر ان يقضي على جميع المعارضين لحكمه الذي استمر الى 3 صفر 392 هـ /دسمبر 1001م - يناير 1002م. عند ما مات من مرض عضال خلال حملة عسكرية داخل الاراضي القشتالية (31) .

لقد كانت لطول حكم المنصور بن أبي عامر نتيجة سلبية نظرا لقضائه على مفهوم شرعية الحكم لدى المدعين مستقبلا للخلافة . فبعد أن أبطل محمد بن أبي عامر دور هشام الثاني تولى الامر من بعده ابنه عبد

---

28) « البيان المغرب » ، ج. 2 ، صفحتي 298 ـ 299 .
29) « الذخيرة » ، القسم 4 ، ج 1 ، صفحتا 71 ـ 72 .
30) « المعجب » ، صفحات 40 ـ 42 و « الذخيرة » ، القسم 4 ، ج 1 ، ص ، 72 ،
31) « الذخيرة » ، القسم 4 ، ج 1 ، صفحات 73 ـ 78 .

الملك الذي خلفه أخوه عبد الرحمان (82) . غير أن أناسا غيرهم أخذوا يعملون من أجل الحصول على الحكم بنفس الطريقة التي استعملها المنصور ابن ابي عامر ، أي انتهاج خطة العنف. ففي جمادى الاولى أو جمادى الثانية 399 هـ / يناير - فبراير 1009م. خلع محمد بن هشام ابن عبد الجبار المعروف بالمهدي ، عبد الرحمن بن ابي عامر ثم صلبه ، كما تخلى عن ولاته لهشام الثاني، رغم ان هذا الاخير أعيد الى الحكم في سنة 400هـ . / 1009م. (83). لقد كان قيام المهدي مميـزا لبدايـة الفتنة التـي أدت الـى ظهـور دول الطوائف . وكان تدمير مدينة الزهراء رمزا دالا عليها (84) . ويلي ذلك تهديم قرطبة بعد مقاومة استمرت ثلاث سنوات . استسلمت بعدها لسليمان ابن الحكم بن سليمان الذي دخل العاصمة الاندلسية في 403هـ / 1012 م . حيث قتل فيما يبدو هشام الثاني (85) . ولقد اختلف المؤرخون عامة ، وحتى المعاصرون منهم للقرن الهجري الخامس ، حول ضبط الفترة التي حكم خلالها هشام الثاني . فمنذ بداية حكمه الشكلي ، مكث هشام المؤيد في بيئة منعزلة ، محاطا باللعب والموسيقيين والجواري ، فلم يحصل على أي تكوين في تسيير شؤون الدولة . ورغم عزلته فقد برزت صورته لدى العامة ، فحصل على قبول وتقدير متعاظمين . ومن أجل اعطاء الشرعية

---

(82) «المعجب» ، ص . 40 وللاطلاع على رواية دقيقة لفترة حكم عبد الملك وعبد الرحمن ، انظر كتاب «البيان المغرب» ، ج . 3 ، صفحات 2 - 60 .

(83) «المعجب» ، صفحتي 40 - 41 ؛ «البيان المغرب» ، ج . 3 ، صفحات 50 - 53 ، 58 - 60 .

(84) - البيان المغرب - ، ج . 3 ، ص . 64 .

(85) «المعجب» ، صفحات 41 و 43 .

لمطالب وحركات سياسية متنازعة خلال ستين عاما فان صورته عادت الى الحياة فيما بعد .

لقد ظل هشام الثاني الخليفة الصوري طوال فترة دولة بني ابي عامر واستمر مركزه الرمزي خلال حكم المنصور بن أبي عامر إبان فترة حكم ابنه عبد الملك بن أبي عامر (36) . ولقد احدث هشام الثاني استياء ومعارضة شاملة للحكم العامري في جميع انحاء الاندلس منذ ما عين عبد الرحمن بن ابي عامر خلفا شرعيا له ومنحه لقب «ولي عهد المسلمين» . وهكذا هيأ رسميا نزع السلطة الشرعية من أيدي الامويين (37) . لقد عجلت انتفاضة المهدي محمد بن هشام العنيفة باضمحلال مركز هشام الثاني، نظرا لان هذا الاخير صرح علنا بتنازله عن الخلافة (38). ورغم أن هشام الثاني عاد الى الحكم في الفترة المتراوحة بين 400 هـ / 1009م و 403هـ / 1013م. فان قتله خلال مسيرة سليمان بن الحكم على قرطبة قد أدى الى نهاية الدولة الاموية التي استمر احتضارها مدة طويلة ففي سنة 407 هـ / 1016 ـ 1017 م . قاد علي بن حمود حركة ضد قرطبة كان هدفها ارجاع هشام الثاني المزعوم الى الحكم بعد بعثه فعندما هدد يحيى بن حمود حكم القاضي بن عباد باشبيلية، صرح هذا الاخير باكتشافه هشام المؤيد

---

36) هناك برهان على مركز عبد الملك المتصاعد في رسالة منسوبة الى هشام الثاني حيث يخاطب هذا الاخير عبد الملك . بلقب المظفر ويمنح ابنه محمد منصب ذي الوزارتين. ويوجد النص الكامل لهذه الرسالة في « البيان المغرب» ج 3، صفحات 16 ـ 17
37) « البيان المغرب » 3 ، ج ، صفحتي 38 ـ 39 .
38) نفس المصدر ، صفحات 59 ـ 62 .

في سنة 426 هـ / 1034 ـ 1035 م. فأيده عدد من ملوك الطوائف الآخرين(39). أما تاريخيا، فباستثناء تأكيد وجوده الحقيقي، تبقى شخصية هشام الثاني سرا خفيا. ان صورة هشام كقوة تحريك أساسية في الاندلس ظلت آخر أثر من الفترة الطويلة لحكم بني أمية.

إن الصراعات الدموية حول قرطبة العاصمة أدى في نهاية الامر الى فرض حكم بني حمود عليها. ومع ذلك فان هذا الانتصار لم تصاحبه اعادة توحيد الاندلس نظرا لان بعض دول الطوائف تمتعت بسيادة فعلية طول هذه الفترة بينما وجدت دول طائفية أخرى نفسها داخل مسلسل الانفصال عن العاصمة المركزية قرطبة (40).

وفي سنة 404 هـ. / 1013ـ 1014 م. توصل علي بن حمود الذي كان يحكم سبتة آنذاك برسالة مزعومة من هشام الثاني، يطلب منه فيها مساعدته لاسترجاع قرطبة التي كان يسيطر عليها الناصر محمد بن سليمان، كما يعده بحق استخلافه عليها (41). لقد أدت هذه الرسالة التي مكنت

---

39) نفس المصدر، ص. 198؛ «أعمال الاعلام» ص. 179؛ «الذخيرة»، القسم 3، ج. 1، صفحتا 17 ـ 18.

40) «الذخيرة»، القسم 1، ج. 2، صفحات 666 ـ 669؛ ومن بين الامثلة على دول الطوائف التي حصلت على استقلالها خلال القرن الخامس الهجري بعد انهيار خلافة قرطبة الدول الآتية: سرقسطة (379 هـ. / 989 م.)، ورندة (383 هـ. / 993 م.) و مالقة (391 هـ. / 1000 م.)، وبلنسية (399 هـ. / 1008 م.) و دانية وطرطوشة (400 هـ. / 1009 م.) والمرية ومورسية ومورورو (403 هـ. / 1012 م.) وقرمونة (404هـ. / 1013 م) وطليطلة (418 هـ. / 1027 م.).

41) «المعجب»، ص. 44.

من قيام علي بن حمود كمرشح قوي للخلافة الاندلسية ، الى تأييد عامر ابن فتح ، حاكم مالقة ، وبلقين بن زيري ، حاكم غرناطة ، له ، الامر الذي أدى الى الاحتلال العسكري لقرطبة حيث قيل ان هشام الثاني قد وجد بها مقتولا .

ثم أعلن علي نفسه خليفة في ذي القعدة 407 هـ . / 1016 م . (42) . ورغم أنه استهل حكمه بتطبيق العدالة حيث فرض القانون والنظام فانه بدل سياسته بعد ثمانية أشهر عند ما تزايد شكه بشأن السكان المحليين نتيجة تأييدهم لمطلب المرتضى بتولي الخلافة الامر الذي أدى الى حالة عنف أدت بدورها الى اغتياله من طرف ثلاثة فتيان صقالبة وهو بحمام قصره(43) . وخلفه أخوه القاسم بن حمود الذي كان يحكم اشبيلية والذي التحق بقرطبة حيث أعلن خليفة في ذي القعدة 408 هـ . / مارس - أبريل 1018 (44) . وانتهى حكمه الاول عند ما أسقطه حفيده يحيى بن حمود ، حاكم مالقة ، في ربيع الاول 412 هـ . / يونيو - يوليوز 1021 (45). ولكن

---

42) «الذخيرة» ، القسم 1 ، ج . 1 ، ص. 97 ؛ «المعجب» ، صفحتا 49 ـ 50 .

43) «الذخيرة» ، القسم 1، ج . 1 ، صفحتا 100 ـ 101 ؛ لقد بايع خيران العامري، حاكم مورسية عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الناصر المرتضى من عائلة بني أمية خليفة شرعيا وذلك ليناقس طلبات علي بن حمود ؛ البيان المغرب ، ج . 3 ، ص . 121 ؛ .

44) «الذخيرة» القسم 1، ج. 1، صفحات 481؛ البيان المغرب، ج. 3، صفحتا 122، 124؛ «المعجب» ، ص . 50 .

45) «الذخيرة» ، القسم 1، ج . 1 ، صفحتا 481 ـ 482 «البيان المغرب» ، ج ، 3 ، ص . 124 ؛ «المعجب» ، 50 .

القاسم بن حمود دخل قرطبة من جديد وبويع بها في ذي القعدة 413 هـ. / اكتوبر - نوفمبر 1023 (46).

وأخيرا ثارت العامة عليه بعد سبعة أشهر من استهلاله الثاني على الحكم بقرطبة، فعندما فشلت محاولته للتغلب على القرطبيين، فر الى إشبيلية حيث كان يحكم ابنه محمد. وذلك في شعبان 414 هـ. / 1024م. الا أن أبواب مدينة إشبيلية سدت في وجهه. وبعد تطويق قصر ولديه محمد والحسن داخل المدينة، قررت مجموعة من أعيان إشبيلية تحت القيادة الجديدة للقاضي بن عباد إطلاق سراحهما (47). ويمكن تفسير مناعة إشبيلية بصعوبة أسوارها الضخمة الحديثة البناء (48). أما القاسم الذي تخلى عنه القسم الاكبر من جيشه ليلتحق بجيش يحيى بن حمود في مالقة فقد هرب الى أن التحق به حفيده يحيى في شريش، حيث ألقي عليه القبض وعاد به سجينا الى مالقة. وتوفي القاسم في سنة 427 هـ. / 1035 م. في سجن حفيده إدريس، ثم دفنه ابنه محمد بالجزيرة

---

46) «الذخيرة»، القسم 1، ج. 1، صفحتا 484 - 485؛ «البيان المغرب»، ج. 3، ص. 134؛ «المعجب»، ص. 50؛ «نفح الطيب»، ج. 2، ص، 33.

47) «الذخيرة»، القسم 1، ج. 1، ص 485؛ «الذخيرة»، القسم 2، ج. 1، ص. 16؛ «البيان المغرب»، ج. 3، صفحتا 133 - 134؛ «المعجب» ص. 51؛ الحلة السيراء، ج. 2، ص 36.

48) بنى عبد الرحمن الحكم (206 هـ. / 821 م. - 238 هـ / 852 م.) حائط اشبيلية المبني بالحجر عندما تعرضت المدينة لهجومات المجوس (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، «جغرافية الاندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك»، تحقيق الدكتور عبد الرحمان علي الحجي، بغداد، 1387 هـ. - 1968، ص. 112).

الخضراء (49). وفي هذه الاثناء أصبحت إشبيلية سيدة مصيرها ، بينما غرقت قرطبة في سلسلة من عمليات قتل الحكام ، والتمردات العامة التي أدت تدريجيا الى تأسيس جمهورية تحت حكم بني جهور .

(2) قيام القـاضي بن عباد باشبيلية

إن إشبيلية التي كانت قد نجت من السيطرة المركزية لقرطبة عند ما حكمها القاسم قد تمتعت لاول مرة بحكم أحد أهاليها ، وذلك عند ما بسط القاضي بن عباد حكمه في سنة 404 هـ . / 1023 م. (50). وبعد امسـاك هذا الاخير بزمام السلطة أصبح حكام بني عباد يقررون سياسة إشبيلية داخل وخارج حدودها التي كانت تتوسع باستمرار . وهكذا اتخذ تاريخ إشبيلية اتجاها جديدا حيث أثر في التاريخ الاندلسي بصورة لم يسبق لهـا نظير .

إن الوعي السياسي والمناورات الماهرة والزعامة التي فرضها القاضي بن عباد بطرق دبلوماسية خصال ساهمت كلها في اقامة بني عباد باشبيلية، بنفس درجة الحسم التي ساهمت بها الحالة السياسية العامة بـالاندلس بعد

---

(49) «الذخيرة» ، القسم 1 ، ج . 1 ، صفحتا 485 ـ 486 ؛ «المعجب» ، صفحات 51 ـ 53؛ ابو العباس أحمد بن محمد المقري ، « نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسـان الدين بن الخطيب » ، ج . 2 ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، 1367 هـ . / 1949 م . ص . 33 ؛ « البيان المغرب » ، ج . 3 . صفحتا 124 ـ 125.

(50) أبو عبد الله محمد بن فتوح الحميدي ، «جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس» ، القاهرة ، 1952 ، ص ، 50 ؛ « نفح الطيب » ، ج . 3 ، ص . 22 .

التشتت الكلي لخلافة بني أمية. وكانت تصرفاته، التي تتسم بالحذر والدهاء، عند ما عمل قاضيا ابان حكم القاسم بن حمود تتناقض مع صرامته وقسوته وعمله للتخلص المنهجي من جميع منافسيه لدى ترسيخ حكمه تبعا للرفض الجماعي لسيطرة بني حمود الفعلية على إشبيلية في سنة 414 هـ. / 1023 م. والمناورات التي مكنت القاضي من الحصول على الزعامة المطلقة على إشبيلية، تشير الى معنى عميق للادراك والصرامة لبذل الجهد في سبيل طموحات بعيدة المدى. لقد فـرض القاضي بن عباد نفسه حاكما مطلقا على إشبيلية، وذلك من خلال استراتيجية طويلة المدى، لا يستطيع القيـام بها الا منظم قدير يخطط ويضبط توقيت كل حركة قبل أن يجعلها واقعا.

كان القاضي بن عباد في سنة 414 هـ. / 1023 م. قد تغلب على عدة عراقل هامة واستخدم وسائل متنوعة للسيطرة على إشبيلية. وبمـا أن حكمه لم يقم على أسس شرعية فقد فرض سيطرته معتمدا على مبدأ ضمني بقبوله من طرف أغلبية الاشبيليين. كانت الخلافة الوراثية باعتبارها مبدأ شائعا بغير منازع ويقبله الجميع تتنافر مع الواقع الاشبيلي بعد القضاء على بني أمية ومع المكانة الشخصية للقاضي بن عباد كمرشح محتمل لحكم إشبيلية. غير أن الامر الذي سـاعد القاضي هو انعدام منـافس له يستطيع مزاحمته بواسطة الوراثة.

إن الروح الواقعية المفرطة التي تميز بها القاضي قد قللت الى أقصى درجة من أثر انعدام مبرر نظري لحكمه منذ البدايـة. كما أنه استطاع تدريجيا أن يضمن السلطة اللازمة لتطبيق حكمه على الصعيد العملي. لذلك فاكتسابه التدريجي لقاعدة متينة لحكمه يمكن اعتباره نتاجا لسلطته وليس سببا لوضعيته الراهنة كحاكم. لقد تغلب على هذه المرحلة باستعمال خطتين:

(أ) فبدون تنازله عن حقه في الحكم لم يقدم أي مطلب بشرعية حكمه حتى عند ما كان حاكماً بالفعل . فهو على سبيل المثال لم يتخذ أي لقب شرفي واحتفظ بلقبه السابق كقاض (51) . (ب) . لقد ربط القاضي موقفه كحاكم فعلي بموقف هشام الثاني الذي كان معترفاً به من طرف الجميع عند ما أعلن في سنة 426 هـ / 1034 م عن اكتشافه لهشام الثاني (52) . وزيادة على ذلك اتخذ القاضي بن عباد عدة تدابير لتدعيم وضعيته حاكماً لإشبيلية ومن أهم العوامل التي ساهمت في تنمية قوته السياسية ، قاعدته المالية ، حيث قيل إنه ملك ثلث إشبيلية (53) . لقد ضمن أبوه ، القاضي إسماعيل بن عباد ، الذي كان محل تقدير الجميع ، المقام الاجتماعي العالي لأسرته بفضل حسن تسييره لشؤون إشبيلية وهو قاض بها . كما أن

---

(51) ولعل قلة الألقاب المطلبة المنقوشة في النقود التي تحمل اسم القاضي بن عباد تؤكد هذا الموقف . (Antonio Prieto y Vives, *Los reyes de Taifas : estudio histórico - numismático de los musulmanes españoles en el siglo V de la hégira (XI de J. C.)*, Madrid, 1926, p. 227).
كتاب « مطمح الانفس ومسرح التأنس في ملح أهل الاندلس » لأبي نصر الفتح بن أحمد بن خاقان في كتاب « تاريخ بني عباد » لرينهارت دوزي :
P. A. Dozy, *Historia Abbadidarum*, vol. I, Leiden, 1846, p. 24.

(52) « أعمال الاعلام » ، ص . 179. وأبو محمد علي بن أحمد بن حزم ، « نقط العروس » ، تحقيق س . ف . سيبولد وترجمه الى الاسبانية لويس سكودي اوثينا ، بلنسية ، 1974 . ص . 35 و « البيان المغرب » ، ج . 3 ، صفحات 197 ـ 199 ؛ « الذخيرة » ، ج . 1 ، صفحتا 16 ـ 17 .

(53) « أعمال الاعلام » ، ص . 177 و « البيان المغرب » ، ج. 3 ، ص . 195 ؛ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، « كتاب العبر » و « ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر » ، ج . 4 ، القاهرة ، 1284 هـ ، ص . 156 و « والذخيرة » ، القسم 2 ، ج . 1، ص . 16 ،

المترتبات الدينية لمنصب القاضي محمد بن عباد قد أضافت وزناً لمكانته (54).

لقد استطاع القاضي أن يفرض زعامته وينمي تأثيره السياسي باستغلاله للتهديدات الخارجية وللفراغ السياسي باشبيلية ، وكذلك باخضاعه الرؤساء المحليين الآخرين لسيطرته . ولقد مكنت هذه العوامل الاساسية الثلاثة القاضي بن عباد من خلافة بني حمود . إن حكم القاسم بن حمود لم يكن قائماً على أسس متينة حينما فرض سيطرته على قرطبة ، الامر الذي أدى الى غيابه عن إشبيلية التي بقيت تحت القيادة الضعيفة لابنه محمد بن حمود . وأدى سلوك القاسم المتعجرف تجاه سكان إشبيلية الى تخلي هؤلاء عن جزء من مساندتهم له ، الشيء الذي أدى بدوره الى احداث فراغ سياسي . فلقد ارتكب القاسم أفدح أخطائه السياسية عندما بعث الى الاشبيليين رسالة يأمرهم فيها باعداد المدينة لاستقبال جيوشه (55) . واستغل القاضي محمد بن عباد هذا التهديد أحسن استغلال لضمان أمن مدينة إشبيلية وسلامتها . وذلك لاثارة السخط العام واشاعة الشكوك حول القاسم بن حمود وكذلك حول ولده محمد (56) . وأدى التخلص من بني حمود الى انفراد القاضي بن عباد بالسلطة وقضائه على امكانية مشاركة زعماء آخرين له في الحكم . أما الزعماء المحليون الذين كانوا مهددين من طرف جيش

---

54) « أعمال الاعلام » ، ص . 122 و « الذخيرة » القسم 2 ، ج . 1 ، صفحتا 15-16.

55) « البيان المغرب » ، ج . 3 ، ص . 196 ، و « أعمال الاعلام » ، ص . 179 .

56) « الذخيرة » ، القسم 1 ، ج . 1 ، ص . 485 ، و « أعمال الاعلام » ، ص . 179 ، و « العبر » ، ج . 4 ، ص . 156 .

القاضي بن عباد فلم ينتبهوا الى قوته السياسية المتزايدة الا عند ما فجعلت فجأة في قمع أي اعتراض محلي على مركزه كحاكم مطلق (57) .

لقد وقع الزعماء الاشبيليون المحليون في فخ القاضي بن عباد عند ما استعمل الاوليغارشيا التي أسست لمواجهة الخطر الحمودي . ونظراً لوضعية قوته النسبية فانه لم يقبل اقتراح الزعماء المحليين بتحمل المسؤولية الكاملة في تسيير شؤون إشبيلية حينما برز خطر القاسم بن حمود (58) . ويبرز هذا القرار الفطنة الكبرى التي اتصف بها القاضي ، لانه لو وقع في اغراء قبول الرئاسة دون غيره في تلك الظروف لتحمل وحده مسؤولية مواجهة بني حمود ، معرضاً نفسه بذلك لمؤامرات المنافسين المحليين . فبموافقته على ترأس مجموعة من الوزراء عينهم وجهاء إشبيلية أخذ مركز القيادة دون أن يكون قد تحمل مسؤولية النتائج السلبية لاعمالهم (59) .

---

57) « الذخيرة » ، القسم 2 ، ج . 1 ، صفحتا 15 ـ 16 .

58) نفس المصدر

59) لقد جاءت الاقوال بخصوص وصف هذه المجموعة من الوزراء بطرق مختلفة عند مؤرخين مختلفين ، فيصف ابن عذاري هذه المجموعة كالتالي :

« وكانوا جماعة منهم بنو / أبي بكر / الزبيدي / النحوي / وبنو مريم وبنو العربي وغيرهم . . . » (البيان المغرب » ، ج 3 ، ص 195)

ويقدم ابن بسام الاسماء التالية :

« وكان الذي وطد له ذلك نفر من أكابرها المرتسمين بالوزارة . . . وكانوا جماعة منهم بنو أبي بكر الزبيدي النحوي وبنو مريم صنائع بن عباد وغيرهم . . . » (« الذخيرة » ، القسم 2 ، ج . 1 ، ص . 15).

ويصفها المراكشي بالعبارات التالية : ←

ولا شك أنهم فوجئوا بتردده الظاهر في الامساك ، ولم يكونوا مستعدين عند ما خلع القاضي بن عباد وزراءه بصورة غير متوقعة ، ففرض سيطرته الفعلية على إشبيلية بعد القضاء على بني حمود (60) .

ولقد كانت روابط القاضي محمد بن عباد ببني حمود عميقة الجذور في إشبيلية ، فقد فرض نفسه قاضياً على تلك المدينة خلال حكم القاسم بن حمود، وذلك عند ما لم يعد بمستطاع أبيه القاضي إسماعيل بن عباد مواصلة العمل

ـــــ به ، متوارد اختيارهم بعد محض الرأي وتنقيح التدبير على القاضي أبي القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد اللخمي .. وأبى ذلك على ان يختاروا له من أنفسهم رجالا سماهم الهي يكونوا له أعواناً ووزراء وشركاء ... وهؤلاء المسمون هم . الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي ومحمد بن يريم الالهاني وأبو الاصبغ عيسى بن حجاج الحضرمي وابو محمد عبد الله بن علي الهوزني ، في رجال آخرين ذهبت مني أسماؤهم إلا أني أعرف قبائلهم وبيوتهم . ففعلوا ذلك ... » (« المعجب » ، صفحتا 94 - 95) .

وهناك وصف آخر في كتب أخرى منها « الحلة السيراء » ، ج . 2 ، ص . 37 . وخلافاً لابن بسام وابن عذاري ، يؤكد المراكشي في كتابه « المعجب » أن تكون هذه المجموعة من الوزراء جاء بعد هزيمة محمد بن حمود وهذا لا يفسر طرد هذا الاخير من إشبيلية . وعلاوة على ذلك ، لولا خطر محمد بن حمود ، لما احتاج القاضي بن عباد أن يتولى الحكم بمساندة الوزراء ، ولانفرد بالحكم منذ البداية . وفي النهاية ، واعتباراً لكون ابن بسام عاش في فترة أقرب من الاحداث ، يجب اعتباره المصدر الاكثر ثقة . ونزيد على ذلك أن المراكشي ألف كتابه « المعجب » وهو بعيد عن الاندلس فكانت المصادر تنقصه وكان يعتمد في ذلك على ذاكرته (« المعجب »، ص . 4).

60) « البيان المغرب » ، ج . 3 ، ص 195 و « المعجب » ، ص . 61 و « أعمال الاعلام » ، ص . 178 و « الحلة السيراء » ، ج . 2 ، ص . 37 و « الذخيرة » ، القسم 2 ، ج . 1 ، صفحتا 15 - 16 .

في ذلك المنصب (61) . كان القاضي محمد بن عباد يتعاون مع القاسم بن حمود وابنه محمد ، وكان يحصر نشاطه في ميدان واجباته الرسمية كقاض.

ورغم ابتعاده عن السياسة الى غاية سنة 414 هـ . / 1023 م. فان مركزه ووضعيته مكناه من التقرب الى الحكم وملاحظة ضعفهم . كما أن دهاءه وحلمه جعلاه يعمل في خفاء دون أن يكون موضع شك أو رقابة .

فرض القاضي محمد بن عباد نفسه حاكماً على إشبيلية سنة 414 هـ . / 1023 م. نتيجة اطلاعه ومعرفته الشخصية بحاكم بني حمود وبسبب تأييد الاعيان المحليين له حيث كانت صلاته بهم وثيقة ومستمرة . وكان نجاحه وسيلة في أيدي أعيان إشبيلية مكنتهم من التخلص من حكام بني حمود . وبذلك استطاع أن يفرض نفسه قائداً بدون منازع . وباثارة القاضي للقوى الغاضبة كما تتمثل في الشعب الاشبيلي والاعيان المحليين ضد قمع بني حمود استطاع أن يصد كلا القوتين عن مواجهته . وعند ما أنهكت القوتان بعضهما تمكن القاضي بن عباد من الانفراد بالحكم (62) .

ومن جهة أخرى كان للجيش دور حاسم في بلوغ القاضي هدفه النهائي . فقد انتهى خطر جيش بني حمود عند ما فرض الاشبيليون على جيش محمد بن حمود مغادرة مدينتهم ، فأغلقوا أبوابها أمام جيش القاسم

---

61) « أعمال الاعلام » ، ص . 177 و « الذخيرة » ، القسم 2 ، ج . 1 ، ص . 15 .

62) « البيان المغرب » ، ج . 3 ، صفحتا 195 ـ 196 و « أعمال الاعلام » ، ص . 178 و « الذخيرة » ، القسم 2 ، ج . 1 ، صفحتا 15 ـ 16 .

بن حمود بعد فشله في استرداد قرطبة . وهكذا بادر القاضي بن عباد الى تكوين جيش يخضع لسيطرته المباشرة سعياً في بسط نفوذه . واستعمل فيما بعد ثروته الضخمة للحصول على هذا الهدف ، حيث اشترى عبيداً وجند مرتزقة ، منشئاً بهذه الطريقة جيشاً من أقوى جيوش الاندلس (63) .

ومن جملة العوامل الاساسية التي ساهمت في ابراز دور القاضي في الميدان الديبلوماسي واظهار براعته في التفاوض نظرته الواضحة والشاملة لاهدافه البعيدة المدى . فمفاوضاته لمجموعة معينة كانت تساهم دائماً في تقوية مواقفه بالنسبة لمجموعة أخرى ، ومفاوضاته مع ابن حمود والجيش وأعيان إشبيلية خير مثال على هذه الملاحظة. لقد كان محمد بن حمود الذي حكم بواسطة وزيره محمد بن خالص أبرز خطر على القاضي بن عباد (64) . فعند ما وجد نفسه في وضعية التفوق اتخذ القاضي بن عباد موقفاً حازماً فألزم محمد بن حمود بمغادرة إشبيلية دون أي تنازل . ولما أدرك القاضي البعد الحقيقي لخطورة محمد بن حمود على مركزه ، هاجمه مستعيناً بوزرائه ، فأخرجه من إشبيلية سنة 414 هـ / 1023 م . (65). وعند ما طوق القاضي قصر محمد بن حمود وهاجمه ، تفاوض مع أبيه القاسم بشأن اطلاقه ، فوافق القاضي على مغادرة محمد بن حمود لاشبيلية بشرط أن يتخلى بنو

---

63) « الذخيرة » ، القسم 2 ، ج 1 ، صفحتا 15 ـ 16 و « البيان المغرب » ، ج . 3، صفحتا 196 ـ 197 و « الحلة السيراء » ، ج . 2 ، ص . 38 و « أعمال الاعلام » ، ص . 178.

64) « الذخيرة » ، القسم 1 ، ج . 2 ، ص . 488 و « أعمال الاعلام » ، ص . 178 .

65) « الذخيرة » ، القسم 1 ، ج . 2 . ص . 486 و « المعجب » ، ص . 94 .

حمود عن كافة مطالبهم فيها (66) وبعد تلبيته هذين الهدفين أرغم القاضي الجيش الاشبيلي الذي كان قد استخدمه في الهجوم على قصر محمد بن حمود ، على التشتت خارج إشبيلية ذلك انه أسر قائده ، محمد بن زري ابن دوناس ، ثم أطلقه شريطة أن يغادر المدينة نهائياً . (67) . ومن العوامل الاساسية لنجاح القاضي بن عباد قدرته على استمالة الجيش عند اصطدامه بمحمد بن حمود . وقد حصل على ذلك عند ما وعد محمد بن دوناس بمبايعة إشبيلية له كحاكم لقاء تأييد هذا الاخير له (68) .

ثم أبرز القاضي بن عباد قدرته على التفاوض بذكاء عند ما حاصرت مدينة إشبيلية جيوش يحيى بن حمود في سنة 414 هـ . / 1023 م . (69) ، واستطاع القاضي بن عباد أن يقنع يحيى بن حمود بالتخلي عن تطويق المدينة مقابل الاعتراف بسيادته عليها (70) . ولقد حقق هذا الهدف بتقديم ابنه عباد ، رهينة ، دليلا على اخلاصه (71) . وكان هذا القرار بارعاً حيث إنه أرضى يحيى بن حمود من جهة، وساهم في مضاعفة سيطرة القاضي داخلياً باعتباره الرجل الوحيد الذي استطاع أن يقدم التضحية اللازمة

---

66) « الذخيرة » . القسم 1 ، ج . 2 ، ص . 486 .
67) « الذخيرة » ، القسم 1 ، ج . 2 ، ص . 486 و « كتاب العبر » ، ج . 4 ، ص . 156 .
68) نفس المصدر .
69) « الذخيرة » ، القسم 2 ، ج . 1 ، ص . 19 .
70) نفس المصدر .
71) نفس المصدر .

لصد الخطر الذي كان يهدد إشبيلية . وعلاوة على ذلك فلم يكن اعتراف القاضي بن عباد بسيادة يحيى الا اسمياً ، ذلك أنه تخلى عنه فيما بعد ، الامر الذي أدى الى نشوب نزاع في قرمونة بين القاضي بن عباد ويحيى بن حمود في محرم 427 . هـ / نوفمبر - ديسمبر 1035 م. انتهى بهزيمة يحيى ومصرعه ، (72) .

(8) - تدعيم سلطة القاضي بن عباد

عند ما أقام القاضي بن عباد دولته فقد كان تعزيز مركزه كحاكم على إشبيلية قد أصبح حقيقة ثابتة . فقد استطاع بعد قضائه على الاخطار الداخلية توحيد قوى إشبيلية السياسية تحت لواء واحد ، وتم الاعتراف به في جميع أنحاء الاندلس كأحد ملوك الطوائف الاقوياء المحظوظين. ويمكن القول بأن ثلاثة عوامل قد ساهمت في تحقيق هذه الوضعية ، وهي ولاؤه المعلن لهشام الثاني وقدرته على تحويل الاخطار والفوز بطاعة وولاء دول الطوائف ، وأخيراً هجوماته العسكرية على دول طائفية أخرى .

وبعد الانتشار الواسع للشائعة الشعبية المتعلقة بالظهور الجديد لهشام الثاني في ألمرية في سنة 426 . هـ / 1034 م . أعلن القاضي أنه اكتشفه بنفسه (73) . ورغم جاذبية مثل هذا الحدث لخيال العامة وأثره في بعض

72) « البيان المغرب » ، ج . 3 ، ص . 199 و « المعجب » ، ص . 84 .

73) « الذخيرة » ، القسم 2 ، ج 1 ، صفحتا 17 - 18 و « البيان المغرب » ، ج 3 ، ص . 198 و « أعمال الاعلام » ، ص . 179 .

ملوك الطوائف . فلقد أدرك البعض منهم حقيقة تلك الخدعة الرامية الى توحيد القوى لمواجهة الخطر المتنامي ليحيى بن حمود على إشبيلية ، وذلك باعلان الولاء لخلف الحصري بوصفه هشام الثاني (74) إن جميع المصادر الرئيسية متفقة على الطبيعة المزيفة لذلك الادعاء ، كما يبدو ذلك عند كتاب ثقاة كابن حزم وابن بسام وابن حيان ولكن يمكن تفسير نجاح هذا الادعاء بالحاجة العامة الى وجود سلطة مركزية في الاندلس ففي وقت كانت فيه الاندلس أشبه بفسيفساء من الدول الطائفية نجد أن قوة موحدة جذبت اهتمام اعوام الاندلسيين رغم سذاجة الادعاء من جهة ومحاولة بعض ملوك الطوائف انكار أهميته السياسية من جهة أخرى. ولكن فشل هذا الادعاء في محاولة توحيد الاندلس من جديد يرجع جزئياً الى رفضه من طرف ملوك الطوائف الذين بعثوا مندوبيهم الى إشبيلية للتأكد من صحته ، فأدخلوا الى غرفة مظلمة لمشاهدة الخليفة المزعوم من وراء حجاب (75) . ورغم قدرة هذا الزعم على اعادة توحيد الاندلس ، فيجب البحث في النوايا الحقيقية على المستوى الشخصي . ونتيجة لذلك نجح هذا الزعم في تحقيق طموح القاضي بن عباد حيث أنه حول خطر يحيى بن حمود عن إشبيلية ودعم سلطة القاضي على المستوى الداخلي والخارجي معاً . إن ولاء القاضي بن عباد لهشام الثاني المزعوم أعطى حكمه درجة من الشرعية كان دائماً في حاجة إليها نظراً لانه لم يكن يتوفر على أية أسس نظرية للحكم .

---

74) « نقط العروس » ، ص . 25 .

75) « البيان المغرب » ، ج . 3 ، ص . 200 و « أعمال الاعلام » ، ص . 180 .

وفي سنة 433 هـ . / 1041 م . رسخ القاضي بن عباد دعائم حكمه ووطدها توطيداً متيناً وقد ساهمت خاصياته كقائد داهية وسياسي محنك في حصوله على الحكم ثم في المحافظة عليه . وهكذا استطاع القاضي بن عباد خلال مدة حكمه أن يعطي سلطته صفة الشرعيـة . وذلك بولائه لهشام الثاني وانشائه جيشاً منظماً ينتهج خطـة هجوميـة ضد دول الطوائف المجاورة له وتخلصه من عدوه الاول . يحيى بن حمود وإذا كان القاضي قد توفي قبـل ادراك بغيته ، فانه وفر الشروط اللازمة لكي يخلفه ابنه المعتضد .

2 ـ المعتضد عباد بن محمد بن عباد 433 هـ./ 1041 م . ـ 461 هـ./ 1068 م

(1) ظروف خلافة المعتضد لابيه وأساليبه في الاحتفاظ بالحكم

عند ما التحق المعتضد عباد بن محمد بن عباد بالحكم في جمادى الثانية 433 هـ / يناير فبراير 1042 م . كانت شرعيته كحاكم لاشبيلية قد أصبحت أمراً منتهياً . ومن هنا اتخاذه فيما بعد ألقاباً كفجر الدولة ثم المعتضد بالله (77) . على أن اكتمال شرعية المعتضد كحاكم لم يتأت الا عن طريق الاعتراف بقيادته من طرف دول الطوائف الاخرى ، الامر الذي

---

76) « الحلة السيراء » ، ج . 2 ، ص . 141 و أما الحميدي الذي عاصر الاحداث فانه يحدد تاريخ وفاته حوالي سنة 480 هـ . / 1088 م . («جذوة المقتبس» ، ص . 81) .

77) « الذخيرة » ، القسم 2 ، ج . 1 ، 24

تجلى في وصف ابن حيان له « كزعيم جماعة أمراء الاندلس » (78) . ولقد وجد المعتضد أنه من المناسب الابقاء على اعترافه بهشام الثاني كخليفة الاندلس، لكنه تخلى عن ذلك في سنة 451 هـ / 1059 م. عند ما لم يعد ذلك الزعم مجدياً (79) .

ورغم أن أثر المعتضد كان أكثر نجاحاً باعتماده على وسائل العنف من ارتكازه على أية تصورات لتبرير شرعية حكمه ، فان صورته كحاكم شرعي كانت منتشرة بطريقة مذهبـه بواسطة جاذبيـة الازياء والحلل التي كان يرتديها والحفلات المترفة التي كان يقيمها والقصور الرائعة التي شادها الخ... (80) واستغل المعتضد شرعية مركزه لاخفاء جرائمه، فكان ذلك من أهم العوامل التي ساهمت في تنفيذ قراراته وتطبيق سياسته .

ظل المعتضد حاكماً على إشبيلية بلا منازع طيلة اثنين وثلاثين عاماً . وقد كان حاكماً مطلقاً اذ كانت سياسته تستهدف إبادة كل من كان خطراً على مركزه ، وحتى من كان من المحتمل أن يصبح خطراً عليه . وكان سلوكه نحو الاصدقاء والاعداء في غالب الاحيـان سلوكاً غريزياً أكثر منه عقلانياً أو دينياً أو فلسفياً أو عاطفياً . واستطاع أن يفرض نفسه كطاغية يطاع ويحترم عن خوف على المستوى الداخلي والخارجي معاً .

---

78) نفس المصدر و في مقدمة رسالة من رسائله يلقب أبو الوليد بن زيدون المعتضد بلقب الحاجب فخر الدولـة وألقـاب أخرى من الالقـاب الخليفيـة («الذخيرة» ، القسم 1 ، ج . 1 ص . 405)

79) « المعجب » ، ص . 96 و « جذوة المقتبس » ، ص . 80 .

80) « البيـان المغـرب » ، ج . 3 . ص . 205 و « أعـلام الاعمـال » ، ص . 182 .

فكان وزراؤه يخشونه مثلما يخشاه منافسوه من ملوك الطوائف الذين عجزوا عن التنبؤ بمفاجآته المتصفة بالتلقائية والعنف . وخلافاً لوضعية القاضي بن عباد ، الذي حصل على الحكم من خلال الصراع مع أطراف منافسة أخرى ، فان خلافة المعتضد لابيه كانت وراثية . ورغم سنه المبكر (اذ لم يكن قد نيف على السادسة والعشرين من عمره عند ما شغل منصب حاكم إشبيلية) فان المعتضد كان قد أعد أحسن الاعداد لممارسة منصبه الجديد . وسبق للمعتضد أن مر بتجربة مأساوية عند ما كان في السابعة من عمره وقدم رهيناً ليحيى بن حمود بعد المفاوضات التي جرت بين هذا الاخير والقاضي بن عباد سنة 414 هـ / 1023 م. (81) ومن المحتمل أن أسره في هذا السن المبكر كان له أثر عليه من الوجهة النفسية حيث تصلبت مواقفه . الشيء الذي كان يفسر جزئياً ، عزمه المستمر في القضاء المبرم على منافسيه . وقد ساهمت نشأته بقصر أبيه في تسهيل اتصاله المباشر بوتيرة تسيير دواليب الحكومة ، بينما مكنته مشاركته في الحملات العسكرية التي نظمها أبوه من معرفة المتطلبات الاساسية لاستخلاص الحكم

---

81) يصف ابن بسام حدث تقديم عباد ليحيى بن حمود رهينة ثم يصف الظروف التي أدت إلى انفراد القاضي بن عباد بالحكم في إشبيلية سنة 414 هـ / 1023 م ـ 1024 م . واعتباراً أن عباد (وهو المعتضد فيما بعد) خلف أباه سنة 433 هـ / 1042 ـ 1041 م. وهو في سن السادسة والعشرين ، وعندما سلم رهينة كان يبلغ سبع سنوات في سنة 414 م . / 1023 ـ 1024 م . يمكن تحديد سنه إذ ذاك استناداً الى تاريخ ميلاده في صفر 407 هـ ، / يوليو ـ غشت 1016 م ، حسب محمد عبد الله عنان (دول الطوائف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، 1969 ، ص . 139) .

والمحافظة عليه وقد اعتمد خلال حكمه بطريقة واسعة على الجيش لمواجهة خصومه وتوسيع الرقعة الترابية لاشبيلية .

ورغم افتقار المعتضد للحصافة والدهاء فقد اعتمد القوة وسيلة أساسية لتنفيذ سياسته . وأبرز مثال على ميله الغريزي للعنف حديقته الشهيرة المليئة بجماجم أعدائه الذين ذهبوا ضحية حروبه واغتيالاته . ونظراً لمحافظته الدائبة على هذه الحديقة الغريبة فان وجودها قد استمر الى أن أعيدت الجماجم الى ذويها كي تدفن ، وذلك بعد سقوط إشبيلية في أيدي المرابطين سنة 484 هـ / 1091 م . (82) : وكانت من بينها جماجم محمد بن عبد الله البرزالي والحجاب بن خزرون وابن نوح ويحيى بن حمود (83) . ولقد كان المعتضد يباهي بحديقته ويعتبرها رمزاً لانتصاراته وقوته الباهرة ، كما استعملها في ارهاب حلفائه وضيوفه .

وعند ما ولي المعتضد حكم إشبيلية لم يلبث أن فرض سلطته بالقوة ، فكان أول عمل قام به هو تصفية جميع الموظفين ، الذين ورثهم عن فترة حكم أبيه ، وذلك بنفيهم ومصادرة أملاكهم أو حرمانهم من موارد العيش أو قتلهم (84) . وقد استمر في سياسته هذه التي قضت على المعارضة في مرحلة تكوينها طوال حكمه . ونظراً لموقفه القوي ازاء ملوك الطوائف عامة

---

82) « البيان المغرب » ، ج . 3 ، ص . 306 و « الذخيرة » ، القسم 2 ، ج . 1 ، صفحات 26 ـ 28 .

83) نفس المصدر ، ص . 28 .

84) « المعجب » ، ص . 96 .

فقد استعمل المعتضد تفوقه بهدف استغلالهم وتسليط بعضهم على بعض. وكانت حوافزه من وراء مساندة ملوك الطوائف تتحول بتحول الظروف، كما كانت سياسته محضة، تتوافق مع التكتيك الذي اتخذه في تطبيق خطته لتقوية هيمنته. ويمكن ذكر مثال مدهش في هذا المجال وهو تحول التعايش التقليدي بين بني عباد وحاكم قرمونة، محمد بن عبد الله البرزالي، الى عداوة بين إشبيلية وقرمونة فيما بعد. وفي سنة 427 هـ / 1035 م ساهم القاضي بن عباد في اعادة محمد البرزالي الى مكانته كحاكم على قرمونة، وذلك عند ما استولى عليها يحيى بن حمود وهو الذي حالفه المعتضد عند ما قرر الاستيلاء عليها لنفسه في سنة 459 هـ / 1066 م (85). فبعد استفادته غير المباشرة من الخدمات التي قدمها البرزالي لابيه في مواجهة أعداء أقوياء كالمظفر بن الافطس، حاكم بطليوس، ويحيى بن حمود، حاكم مالقة، لم ير من المربح استمرار تحالفه مع قرمونة رغم أنها دولة طائفية أضعف بكثير من دولة إشبيلية.

(2) ـ اتخاذ المعتضد العنف سلاحاً

من المظاهر الشنيعة لحكم المعتضد اتخاذه القتل وسيلة للتخلص من منافسيه السياسيين، وهو ما سجله كتاب سيرته الاوائل بدقة. ولقد حالت هذه الوضعية دون تطور أعمال منافسيه وخصومه الى درجة من الخطورة تهدد كيانه. فقد كانت الاغتيالات تدبر وتنفذ من طرف المعتضد بدقة،

(85) «البيان المغرب»، ج. 3، ص. 312.

وذلك لاسباب عديدة وأساليب قاسية وإن كانت فعالة. وإذا كانت معظم حالات الاغتيال المدبرة مرتبطة الى حد ما بكفاحه حرصاً على سلطته ، فهناك حالات أخرى لا يمكن أن تنسب الا الى خصائص شخصية ، والى تحويله وسائل حماية نفسه من خصومه السياسيين الى أهداف في حد ذاتها .

لقد وصف كتاب السير أمثال ابن بسام تفاصيل الظروف التي قتل فيها عدد من وزراء المعتضد ، فيمكننا أن نذكر على سبيل المثال مغادرة صديق للمعتضد هو عمر بن الحسن الهوزني لاشبيلية قبل استيلاء المعتضد على الحكم في سنة 440 هـ / 1048 م ، وذلك خوفاً على أمنه . الا أنه قتل بعد عودته الى إشبيلية من جولة في سورية والعراق ومصر والمغرب في ربيع الاول 460 هـ / يناير فبراير 1067م. (86) ومن ضمن أمثلة أخرى مقتل أبي الوليد إسماعيل بن محمد بن الحبيب على يد المعتضد في سنه العشرين ، وأبي الحسن الغالب بن حفص الذي قتله المعتضد نتيجة لكراهية ابن زيدون له وتآمره عليه (87) .

واذا كانت ردود فعل المعتضد العنيفة قد ساهمت في المحافظة على حكمه ، فانها يجب أن نعتبر بالدرجة الاولى تعبيراً عن حالة جنونية تتميز بالتركيز على الذات . ويؤيد هذا الاستنتاج عدة أمثلة حيث أن اعتماده المفرط على العنف لم يؤد الى أي هدف ظاهر سواء كان سياسيا أو غيره . كما أن تلقائيته في اتخاذ القرارات ولجوئه المفاجيء الى العنف

(86) « الحلة السيراء » ، ج ، 2 ، صفحتا 239 ـ 240 .
(87) نفس المصدر ، صفحتا 450 ـ 451 .

تشير الى انعدام التوازن في عقله . ولا شك أن المثـال الذي يبعث على اندهاش أكبر هو جرأته في قتل ابنه إسماعيل (88) . فقد روى ابن حيان (89) أن خلافاً شجر بين المعتضد وابنه عند ما رفض هذا قيادة الجيش الاشبيلي في الهجوم على قرطبة سنة 450 هـ . / 1058 م . نظراً لصغر حجم ذلك الجيش. وغادر إسماعيل إشبيلية متوجهاً الى الجزيرة الخضراء . وهو يقود قافلة تنقل ممتلكاته الثمينة فمنع في الطريق من الدخول الى عدد من الحصون التي كانت تحت سيطرة أبيه . ثم سمح له المسمى علي حصاد بدخول حصن شذونة . وفاوض حصاد المعتضد بشأن عودة إسماعيل فوعده المعتضد بالعفو عن ابنه خوفاً من التحاقه بأعدائه من ملوك الطوائف أمثـال المظفر بن الافطس حاكم بطليوس . ورغم ذلك فما كاد إسماعيل يصل إشبيلية حتى بادر أبوه بالقائه في السجن . واعتقل مؤيديه ومن بينهم الوزير أبو عبد الله محمد بن أحمد البزلياني الذي كان قد نظم هروب إسماعيل وجماعته من إشبيلية . ثم قطع رؤوسهم .

---

88) نص من كتاب « الذخيرة » ، القسم 2 في كتاب « تاريخ بني عباد » لراينهارت دوزي: R.P.A. Dozy, *Historia Abbadidarum*, vol. I, Leiden, 1864, pp. 258 and 259
إن هذا المقطع لا يوجد في تحقيق د. إحسان عباس لكتاب « الذخيرة » ، « المعجب » ، ص . 97 و « أعمال الأعلام » ، ص . 181 و « كتاب العبر » ، ج . 4 ، 157 .

89) نص من كتاب «الذخيرة» ، القسم 2 في كتاب «تاريخ بني عباد» لراينهارت دوزي R. P. A. Dozy, *Historia Abbadidarum*, vol. 1, pp. 256 - 59 غير وارد أيضاً في تحقيق د. إحسان عباس .

وقد دفع هذا التعسف باسماعيل الى اعداد محاولة لاغتيال والده، غير أنها باءت بالفشل وأدت الى إعدام مؤيديه كما أدت الى نهايته.

وسجلت هذه الجريمة بكيفية فريدة في رسالة بليغة أرسلها المعتضد إلى بعض ملوك الطوائف يشرح فيها الظروف ومبررات قتله لاسماعيل (90) كان هنالك مبرران أساسيان لاتخاذه ذلك القرار :

1) محاولة إسماعيل اغتياله.

2) أصبح من واجبه وقدره أن يجازي ابنه بالعقوبة القصوى نظراً لان هذا الاخير فرض عليه هذا الموقف الصعب. إن الرسالة تعبر عن ورطة المعتضد ازاء اغتيال ابنه الذي كان محبوباً لديه ووليا لعهده. وكان ذلك القرار ينم عن شعور فائض. الا أن ما وصل إليه من استنتاج هو أن مواجهة الواقع أمر حتمي لا مفر منه، وتبرهن الرسالة بوضوح على أن ذلك العمل لم يكن جريمة وحشية متعمدة بل انفعالا عاطفياً تجاه تحد خطير. ولقد تجلى ألم المعتضد النفسي نتيجة لهذه التجربة في صدمته وانفعاله لمدة ثلاثة أيام بعد هذا الحدث المثير.

ومن الامثلة التكميلية التي تدل على سلوكه غير الطبيعي إقدامه على قتل أخيه وصنه وابن عمه، حسب ما نقله ابن حزم (91). وكانت شهوته للانتقام، أحياناً، الدافع الوحيد لقتل أعدائه. ومن أبرز الامثلة في هذا الصدد قصة رجل أعمى من قرية إشبيلية كان قد هرب الى مكة واستقر

90) نفس المصدر، صفحات 264 ـ 266.

91) «نقط العروس»، صفحتا 167 ـ 168.

بها. فطورد بأمر من المعتضد ودس له السم. (92). لقد اعتبر المعتضد عداوة هذا الرجل أكثر أهمية من مغادرته لاشبيلية والتخلي عن السياسة والانعزال في حياة التأمل والعبادة. ونجد مثلا مشابها في المؤذن الاشبيلي الذي طورد في طليطله وقتل ليحمل رأسه الى المعتضد (93). وإذا كانت دوافع اغتيال المعتضد لبعض خصومه نفسية أو شخصية فقد كانت نتائجها المباشرة وغير المباشرة. سياسيا، لصالح تدعيم استقرار حكم المعتضد الذي كانت واقعيته وانتهازيته سلاحين فعالين لقمع أدنى خطر سياسي وذلك بواسطة الاغتيال. وإذا كانت دوافع اغتيالات المعتضد سياسية بصفة جزئية، فإن لبعض اغتيالاته الاخرى دوافع سياسية صرفة. ومثال ذلك دفعه لمحمد بن نوح الدمري، حاكم مورور، وعبدون بن خزرون، حاكم أركوش، وأبو نور بن أبي قرة، حاكم رندة. الى الاختناق في حمام ببلاطه بعد أن رفضوا مساندته ضد أعدائه. ولم ينج منهم الا أبو نور (94). ورغم وضعيتهم كحلفاء وضيوف فان المعتضد لم يتردد في قتلهم بغية الاستيلاء على دولهم الطائفية. ومن جهة أخرى، فلكي يعاني أولئك من مثل هذا المصير الشقي نتيجة لثقتهم المفرطة في المعتضد، فلا شك أن هذا الاخير كان يتوفر على قدرة خارقة في الخداع والاقناع في نفس الوقت.

---

92) «المعجب»، صفحتا 97 ـ 98.

93) «المعجب»، ص. 98.

94) «البيان المغرب»، ج. [illegible]، صفحات 295 ـ 96 و«أعمال الاعلام»، ص. 181 وكتاب العبر، ج 4، ص. 157.

(1) خلافة المعتمد لابيه

انتهى حكم المعتمد محمد بن عباد الذي كان في ظاهره مزدهرا بنهاية الدولة العبادية وادماج المرابطين لاشبيلية في المغرب، فضلا عن الاسباب الخارجية (التي سنعالجها بمزيد من الدقة في الفصل الرابع) والظروف الداخلية وعواملها. فلم يكن المعتمد يتوفر على شخصية ومزاج كافيين يؤهلانه لمنصب حاكم شبه مطلق، يقع النظام السياسي بأكمله على عاتقه. ولذلك لم يستطع فرض زعامته كقائد صارم، خصوصاً وأنه كان معرضاً لضغوط شديدة ومتزايدة في شكل تهديدات خارجية قاهرة، مما مكن المعتمد من خلافة المعتضد عند وفاته في سنة 461هـ. / 1068م.، ووفاة أخيه الاكبر، إسماعيل في سنة 450هـ. / 1058م. (95). ان الالقاب الفخمة التي اتخذها محمد بن عباد كالمعتمد على الله كانت عبارة عن رمز لفترة حكمه الذي كان عند قيامه متينا الى درجة أنه حافظ عليه لمدة تقارب عشرين عاماً، غير أن هزيمته النهائية في رجب 484هـ. / 1091م. أدت الى ضم إشبيلية للمغرب (96). ونفس القوى الداخلية والخارجية التي كانت السبب في سقوط إشبيلية

---

95) كان حكم المعتمد من رجب 461هـ. / أبريل ـ ماي 1069م الى رجب 484 هـ / مارس ـ أبريل 1092 م. («المعجب» ص. 102) ؛ نص من كتاب «قلائد العقيان» في كتاب «تاريخ بني عباد» لراينهارت دوزي ؛
R. P. A. Dozy, *Historia Abbadidarum*, vol. 1, Leiden. 1864, p. 48.

96) «الذخيرة» ، القسم 2 ، ج. 1 ، صفحتا 52 و 56.

قد قررت مصير دول الطوائف الاخرى التي سقطت تحت ضربات الجيش المرابطي غير أن انهيار حكم المعتمد جاء أيضاً نتيجة قوات داخلية متضاربة تصادمت طيلة القرن الهجري الخامس، فشل المعتمد في توجيهها فضلا عن حصرها.

وكان المعتمد لما تولى الحكم يتمتع باعتراف وقبول عامين من طرف الجميع بفضل مجهودات أبيه وجده في تدعيم السيادة الدائمة لبني عباد على إشبيلية. ولذلك لم يواجه المعتمد أية معارضة جماعية مثل التي هددت القاضي ابن عباد، كما لم يتعرض لمؤامرات عديدة دبرها أفراد مثـل التي تسلطت على المعتضد فألجأته الى استعمال العنف والقتل. ومع ذلك فان المعتمد كان يحكم في ظروف مشابهة للتي حكم فيها سلفاه، ويشير هـذا الامـر الـى الاحتمال التالي: نظرا لوجود معارضة للقاضي والمعتضد فمن المرجح أن يكون المعتمد قـد تعرض لاخطار مماثلة بسبب عدم إدخال أية تحسينات على النظام. ولكن يجب الانتبـاه الى أن المعارضة التي واجهت المعتمد اتخـذت شكلا جديدا اتصف بالتخفي والدهاء. فلم يتخد المعتمد، خلافا لابيه، تدابير وقائية في سياسته للحفاظ على حكمه. ويمكن لهذه الوضعية أن تلقي ضوءاً على أسباب تأثير وزير المعتمد، ابن عمار، في توجيه سياسة إشبيلية إلى درجة أن شخصاً، هو (عبد الله بن بلقين) تمكن من انتقاده (97).

97) « كتاب التبيان » ، صفحتي 79 ـ 86.

4) الاسباب الخارجية والداخلية لضياع سلطة المعتمد

إن عواقب عدم الاستقرار المتواصل الذي زعزع الحياة الاجتماعية في إشبيلية خلال عهد بني عباد قد شكل مساهمة أساسية في الانهيار النهائي للحكم. فلقد أثرت حالة الحرب المستمرة على نمو النظام الاشبيلي اجتماعيا واقتصاديا حيث كان مضطرا الى تحمل ثقل حملات عسكرية لا قبل له بها نظرا لاستمرارها وتزايد اتساع نطاقها .

كما كانت هناك أسباب أخرى ساهمت في انعدام الاستقرار منها ما كان بعيد المدى كأداء الجزية ، فقد انعدم الاستقرار في إشبيلية أول الامر نتيجة للصراعات حول خلافة قرطبة ، غير أن استمراره أصبح سببا لانهيارها عند ما منعت إشبيلية من سلوك خطة تلائم حاجياتها. وقد تجلى انعدام الاستقرار في جل جوانب الحياة باشبيلية . ومن الامثلة على هذه الحالة المضطربة عدد القتلى في المعارك، ومنهم ولدا المعتمد ، فتح ويزيد ، اللذان رثاهما أبوهما في أبيات شعرية (98) . أما سقوط إشبيلية المفاجيء فربما كان أكبر دليل على ضعف أسسها السياسية ، إذ لا شك أن الاسباب غير المباشرة كانت قائمة طيلة القرن . فلم يكن انهيارها النهائي الا الذروة الطبيعية للاحوال السائدة .

---

(98) «الذخيرة» ، القسم 2 ، ج. 1 ، صفحتا 70 _ 71 ؛ نص من كتاب «قلائد العقيان» في «تاريخ بني عباد» ارابنهارت دوزي ، R. P. A. Dozy, *Historia Abbadidarum* , vol. I, Leiden, 1846, p. 48 .

لقد كانت مؤهلات المعتمد للقيادة محدودة وغير ملائمة لمواجهة الخطر الداخلي والخارجي الذي كان يهدد إشبيلية ، نظراً الى أنه لم يكن في حاجة ملحة الى استمالة أتباعه الذين قبلوا سلطته بدون شروط . ثم إن الاعتراف العام بحكمه كان قائما على الوراثة ، فوجد المعتمد نفسه في مكانة امتياز كأعلى سلطة في إشبيلية بطريقة غير منازع فيها . وهذا ما يفسر عدم قيام أي أحد بتحديه علانية إلا بصفة نادرة ، كما يفسر عدم استعداده الكافي لمواجهة خطر يوسف بن تاشفين، الامر الذي أدى إلى نهاية حكمه .

وكانت زعامته زعامة تنقصها الحيوية والنشاط لانها لم تستعمل لتنمية مدى شعبيته وترسيخ عمقها . ووجد المعتمد نفسه ، نتيجة لذلك ، ينفعل لتطورات داخلية بدلا من إنعاش سياسته ، فضلا عن إلهامها . ويرجع ذلك الى أنه كان يفتقد جاذبية الزعامة التي تحرك الاتباع على مستوى جماهيري واسع . فهو لم يستغل السند الشعبي السابق لبني أمية ، كليا ، كما أن هذه الشرعية لم تحول لصالح ملك معين من ملوك الطوائف . وهكذا ظلت شخصية المعتمد عاجزة عن خلق حماس يعادل الحماس الذي أفرزته أسطورة هشام الثاني ، فرغم التقدير العظيم الذي حظي به المعتمد على المستوى الداخلي لاسباب أدبية ومزاجية ، كبراعته في الشعر الى جانب كرمه ، نقليلا ما كان يخشى من الناحية السياسية . ومما يرجع بما سلف أن مصالح المعتمد الشخصية لم تكن مرتبطة بمصالح رعاياه باشبيلية حيث أنه كان السيد والبطل ، بينما لم يستغل مفهوم الارض لاذكاء وعي جماعي، فلم تكتسب الدولة الطائفية معنى الوطن حسب المفهوم الحديث .

ومما يشير إلى ضعف المعتمد كقائد نشيط عدم وعيه بالمؤامرات والدسائس والمكائد المؤدية المدبرة من طرف صغار موظفيه وقادته العسكريين. الامر الذي كان يشجعهم على التمادي في عملهم. ويمكن في تبيان ذلك ذكر مثال احتلال ابن رشيق لحصن مرسية التي عينه المعتمد عاملا عليها. فقد كان بمستطاع المعتمد أن يتجنب ذلك لو فرض مراقبة أشد على سلطة ابن رشيق (99). وعمل ابن رشيق على تقوية المساندة المحلية لنفسه، مما أدى الى رفضه تعيين المعتمد لابنه الراضي عاملا على مرسية (100). وتتجلى خطورة تمرد ابن رشيق في سعيه الى تحكيم يوسف بن تاشفين في خلافه مع المعتمد، الامر الذي يؤكد بوضوح أن فشل المؤامرة لم يكن راجعا الى مجهودات المعتمد بقدر ما كان بسبب رفض يوسف تقديم أية مساندة له (101). وعلاوة على ذلك لم يلجأ المعتمد الى العقاب تحذيرا للمتطلعين الى التمرد، معتمدا على أن حكمه مقبول بالاجماع، ولا ينازعه أحد فيه.

وكان المعتمد يبالغ في الاعتماد على قيادة العسكريين خلال المعارك، الامر الذي يشير الى ضعفه وعجزه عن القيادة. فقد كان على خلاف معاصريه البارزين كيوسف بن تاشفين وألفونسو السادس اللذين قادا جيوشهما شخصيا في أغلب الاحيان، يفضل الاعتماد على مرؤوسيه العسكريين

---

(99) «كتاب التبيان»، صفحتا 111 ـ 112.

(100) نفس المصدر، ص. 112.

(101) نفس المصدر، ص. 111.

ولا يشارك شخصيا في المعارك الا مضطرا، مثلما وقع في معركة الزلاقة عند ما كانت الاندلس تدافع عن استمرار وجودها ضدا على ألفونسو السادس ، أو عند ما شارك في الدفاع عن إشبيلية في سنة 484هـ / 1091م في مواجهة جيش يوسف الذي وصل الى أعتابه (102).

وكان ضعف الرؤية السياسية عند المعتمد الى جانب عجزه عن تقرير مستقبل إشبيلية عنصرا أساسيا في سقوطها النهائي . فقد كان المعتمد يفتقد التبصر السياسي الذي كان يمتاز به الامير عبد الله بن بلقين ، حاكم غرناطة ، ولو أنهما لقيا مصيرا مشتركا عند ما فشلا في مواجهة الحملة الجامحة لجيوش يوسف بن تاشفين (103) . لقد كان الامير عبد الله يقيم سلوكه وفق خطة نظرية ، فكانت رؤيته عقلانية رغم فشله المتكرر مثلما حدث عند ما رفض إعطاء ألفونسو جزية مبلغها 20.000 مثقال (دينارا) فاضطر الى إضافة 10.000 دينارا أخرى (104) . ويوضح لنا هذا المثال أن سلوك عبد

102) نفس المصدر ، ص 170 ؛ «الذخيرة» ، القسم 2 ، ج 1، ص 52 و «المعجب» صفحات 140 ـ 142 و«أعمال الاعلام» صفحتا 179 ـ 180 وأبو عبد الله محمد بن عبد الله لسان الدين بن الخطيب ، «الاحاطة في أخبار غرناطة» ج 2 ، تعليق محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، 1394 هـ / 1974 م ، ص 119 وأبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان ، «وفيات الاعيان في أنباء الزمان» ، ج 5 ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، 1968 ـ 1972 ، ص 30 .

103) «كتاب التبيان» ، صفحات 154 ـ 159 ، 169 ـ 171

104) عندما نقارن عمق الادراك السياسي عند كل من المعتمد بن عباد والامير عبد الله بن بلقين، فمن جهة نجد نفسنا أمام صعوبة خاصة من حيث اعتمادنا على معلومات تعكس تفكير المعتمد السياسي من مصادر غير مباشرة ، باستثناء شعره الذي كان أساسا لا سياسيا ، ومن جهة أخرى ، يمنحنا «كتاب التبيان» للامير عبد الله معلومات دقيقة ومفصلة حول دوافعه السياسية العميقة. ومع ذلك فقد عاصر كل من الشخصيتين المذكورتين عهد ملوك الطوائف وواجهتا مشاكل متشابهة وتطورات ضمن إطار جغرافي وسياسي واحد .

الله كان منطقيا منذ ما بعد احتمال تحالف المعتمد مع ألفونسو عليه باعتبار اشتراكهما في العقيدة الاسلامية (105)، ونتيجة لذلك كان المعتمد هو الذي فشل في تقدير الخطر البعيد المدى لنهجه في مساندة ألفونسو ، نظراً لكون هذا العمل كانت تنقصه أسس منطقية ، اذ كان من تدبير وزيره ابن عمار (106) .

وبينما كانت قرارات المعتمد تتخذ بناء على النصائح المطرية من طرف وزرائه وحاشيته المتآمرة كزوجته اعتماد الاثيرة . فان الامير عبد الله كان يزن كل حالة على حدة ويتوقع التطورات والنتائج المحتملة الى أن كان يصل في غالب الاحيان الى الاستنتاجات التي تترك له مجالا للمناورة (107) وإذا ما قابلنا سلبية المعتمد النسبية إزاء مرؤوسيه وجدنا أن شكوك الامير عبد الله نحو موظفيه السامين كانت تحول بينه وبين سلوك مرونة أكبر (108) .

---

105) «كتاب التبيان» صفحتا 69 و 75 .

106) وهذا الدافع واضح حيث يعبر عنه عبد الله بكل وضوح (نفس المصدر ، صفحتا 69 و 82) .

107) رغم صحتها ربما بالغ عدد من المؤرخين في وصف متانة علاقة المعتمد بزوجته اعتماد وحبه لها إذ أخذ هذا الوصف طابعا رومنسيا . أما فيما يخص الامير عبد الله ، فقد نهج نهجا تطبعه الواقعية عندما شرح الدوافع والاسباب التي تفسر التطورات السياسية عند عرض فلسفته السياسية فتبريره المنطقي القرارات التي اتخذها بشأن أداء أموال الجزية لالفونسو السادس ، يعبر عن عقليته ، («كتاب التبيان» ، صفحات 122 ـ 127)

108) نفس المصدر ، صفحتا 76 ـ 77 .

واصل رد فعله تجاه الاعتداءات العنيفة التي شنها يوسف ضد ملوك الطوائف بعد حصار حصن لييط (Aledo) في سنة 481 هـ / 1088م. هو أفضل مثال على قدرة عبد الله ومرونته السياسية . فبينما أدت المعارضة الصارمة التي أبداها المعتمد الى أن يسجن بأغمات بعد هزيمته. فان الامير عبد الله تنبأ بالنتيجة الحتمية لمقاومته ليوسف ، ففضل التفاوض على الاستسلام . لقد طغت أثرة المعتمد على تحكيمه العقل، بينما كان الامير عبد الله يحلل كل العوائق اعتماداً على المنطق ، فاستنتج أن حظوظه في مقاومة القوى الداخلية والخارجية المعادية كانت ضئيلة (109). وخلافا لروح عبد الله الواقعية كان المعتمد يعي وعيا تاما خطر يوسف على دولة الاندلس كافة ، فقرر مواجهته رغم العواقب السيئة معتبرا نفسه جديرا بأن يدافع عنها خلقا وشرعا (110) .

كان وعي الامير عبد الله بالقيود التي فرضتها عليه الظروف السياسية العامة يتناقض مع الثقة المفرطة عند المعتمد في نفسه ومبالغته في تصور طاقاته وامكاناته الفعلية . ومن هنا تتبين حذر الامير عبد الله المفرط في تورطاته السياسية وضخامتها ، خلافا لثقة المعتمد التي أبان عنها في حالات

---

109) يدافع الامير عبد الله عن نفسه ضد هذه الاتهامات (نفس المصدر، صفحات 137 ـ 139) ، رغم أن موقفه هذا كان محتملا منه نظراً لكونه كتب مذكراته وهو أسير عند يوسف بن تاشفين .

110) كان للمعتمد رغبة قوية في الدفاع عن وجوده، رغم العراقيل الضخمة التي واجهها . ويتجلى ذلك في موقفه ضد ضغوط يوسف بن تاشفين حتى قبل أن يشن هذا الاخير حملته العسكرية على إشبيلية

متعددة . فالطريقة التي باشر بها عبد الله ثورة حفن ليوسنة تعكس بوضوح حذره وتعقله . فعندما تحداه سكان ليوسنة المرهقون بالضرائب، كان رد فعل عبد الله لاول وهلة ردا غريزيا، اذ فكر في سحق ومعاقبة قائد الثورة اليهودي ابن ميمون (111). غير انه سرعان ما ضبط أعصابه عند ما حذره قائد جيشه ، مؤمل ، من احتمال ردود عنيفة إزاء تلك الخطة . فوافق على تهدئة الوضع بانتهاج وسائل سلمية رغم رغبته المعاكسة (112) وهناك مثال آخر هو قراره بعدم تنفيذ إعدام الثائر ابن القليعي اعتبارا لمرتبته المتميزة عند يوسف (113). وقد امتنع الامير عبد الله في الحالتين عن اللجوء إلى استعمال القوة والقمع وسيلة وقائية معبرا عن خشيته من عواقب محتملة غير مرغوب فيها .

وبينما كان الامير عبد الله يقيم الحساب لعلاقاته الشخصية مع الثوار المتمردين أو الثوار المحتملين كان المعتمد يسير موظفيه الرسميين بطريقة آلية في نطاق النظام الاداري الموجود أو بطريقة تلقائية كرد فعل على إهانات شخصية . فقد كان ينفعل أحيانا ضد الثوار بكيفية عاطفية وعلى مستوى الشعور الشخصي ، مجانبا أي اعتبار جدي لنتائج أعماله في التشجيع على قيام ثوار جدد . ويشير الطابع العاطفي القوي لرد فعله في قضية مرسية ، عند ما ثار عليه ابن عمار ، ثم مؤمل ، الى افتقاره للواقعية السياسية .

---

111) كتاب التبيان ، ص 131 .
112) نفس المصدر ، ص 132 .
113) نفس المصدر ، ص 119

ويكشف رد فعل المعتمد للتحدي الذي شكله المتمردان المذكوران انعدام التفكير التحليلي لديه . لان كلا من ابن عمار والمؤمل تمكنا من النضج كثائرين بنجاح ولم يواجهـا إلا عنـد ما أصبحا خطراً جديـا على سيادة المعتمد داخل أراضيه، كما أن هذا التحدي كان يهدد بالانتشار في وقت تعرض فيه المعتمد لضغوط خارجية لم يسبق لهـا مثيل . فلقد كان المعتمد من الناحية السياسية ساذجا يبخس طموح وزارته وقواده العسكريين ويفترض أن ولاءهم وطاعتهم لشخصه أكثر متانة مما كانا عليـه بالفعل . وخلافا لذلك كان الامير عبد الله بن بلقين يـدرس احتمـالات كل حالة في حد ذاتها ويحاول توقع عواقب كل قرار يتخذه بشأن المتمردين عليه. فبينما أقدم على اعدام المتمرد ابن تقنوت لكي يلقن القواد الاخرين درسا، بعث وزيره سماجة المنفى وأذن له بحمل ذخائره معه كي ينشر في الناس صورته كحاكم رحيم غفور (114) . ونشير الطريقة الدقيقة التي أخمد بها خطر أخيه المتمرد مثالا آخر على مناهجه . وكان الامير عبد الله قد غزا أراضي مالقة لاخيه تميم حاكم مالقة ، ولكنه قـرر بغتـة وقف الحملات العسكرية لينسحب الى غرناطة ، مستغلا بهذه الطريقة انتصاره العسكري استغلالا سياسيا دون أن يعرض نفسه لهزيمة عسكرية (115) .

والمفاوضات ذاتها مقياس آخر لتناقض شخصيتي المعتمد وعبد الله ، فقد ألح هذا في مذكراته على الطريقة العفوية التي ساهم بهـا المعتمد

---

114) نفس المصدر ، صفحتا 88 و 98 .

115) ويعبر عن هذه النية بوضوح (نفس المصدر ، ص . 94) .

في انهياره النهائي . فمفاوضاتهما بخصوص السيطرة على حصـون مختلفة ، وتهديد المتمردين لهما ومعاهدتهما السلمية تعكس كلهـا مزاجـي رجلين سياسيين متناقضيـن . فقد كان الامير عبـد الله بصفتـه حاكما يترأس باستمرار وفوده، شخصيا، خلال المفاوضات، إلا في حالة وجود دافع سياسي مانع . ومن هنا تأتي لقاءاتـه الشخصية مـع سيسناندو داهيديث (ششنندو)، وهو المستعرب الذي أرسله ألفونسو أو مع ألفونسو نفسه أو قائده العسكري وممثله ألفار فانيث (البرهنش) بشأن تحديد قدر الجزيـة (116) . ورغم أن الامير عبد الله كان يعتمد أحيانا على مبعوثيه خلال مفاوضاته مع ألفونسو السادس والمعتمد بن عبد ويوسف بن تاشفين ، فان ارشاداته لم كانت تطبق عادة، بينما رسول المعتمد ، ابن عمار، كان يتمسك باستقلال نسبي في مفاوضاته مع ألفونسو . فعلى سبيل المثال، كان الامير عبد الله يلوم ابن عمار على حزازاته مـع المعتمـد ، كما يعتبـر أن مفاوضات ابن عمار وألفونسو كانت تغفـل مصالـح إشبيلية، وأن الدافـع وراءها كان مجرد طموحه الشخصي . وبالاضافة الى ذلك فـإن ضجر المعتمد بوصفـه مفاوضا كان يتجلى في سرعة انفعاله لضغوط ألفونسو عليه ، بعد اسقاطه لطليطلة في سنة 478 هـ / 1085م. فغضبه على فحش اليهودي المكلف بجمع الجزية لالفونسو دفع بالمعتمد الى قتله . ولقد أدت هـذه الاداية حتما الى نتائج لم يمكن المعتمد مؤهلا لمواجهتها (117). وفي نهاية الامر نجد جواب المعتمد

---

116) لقد جاء ذكر هذه المفاوضات في «كتاب التبيان»، صفحات 73 ـ 76 و 188-194.

117) مؤلف مجهول ، «الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية» ، تعليق إ . س. علوش ، الرباط ، 1936 ، ص ، 40 .

على الانذار الخطير الذي وجهه ألفونسو إليه بشأن تسليم إشبيلية بدون أي شرط يبرز عجزه عن قبول موقفه الضعيف إزاء ألفونسو وغياب أية محاولة لاقناع هذا الاخير باتخاذ موقف ألين ، بل إن هذا الجواب قد تميز بلهجة معينة (118) . ومن المناسب الاشارة من جهة أخرى الى أن ألفونسو كان عازما في هذه المرحلة على احتلال الاندلس بأكملها مهما كلفه ذلك من ثمن .

ثم إن بيئة المعتمد البعيدة عن السياسة كانت عنصرا ضمنيا في نمط حياته الموروث عن أبيه . فرغم أن خاصيات المعتمد الادبية كانت على سبيل المثال ذات أهمية أساسية في تقرير نمط نشاطه وقت الفراغ داخل القصر، فان ذلك النشاط قد طبع بطابع وزرائه الشعراء الذين سبق أن عملوا في ظل المعتضد كابن زيدون والبزلياني. لقد كان أثر الشعر في السياسة واضحا من خلال دور شعر أبي بكر ابن عمار الذي كان سببا مباشرا دفع بالمعتمد الى قتل صديقه القديم ووزيره (119) . ولذلك كان المعتمد ، أساسا ، حاكما محافظا حيث عمل في نطاق الظروف والنظام الموجودين ، مؤديا في هذا الصدد دوره كحاكم فقاد بعض الحملات العسكرية لان هذا الدور كان منتظرا منه رمزا لسلطته .

---

118) يوجد النص الكامل لرسالة ألفونسو السادس وجواب المعتمد عنها في « الحلل الموشية » ، صفحات 25 ـ 28 ؛ محمد عبد الله عنان، «دول الطوائف»، الطبعة الثانية، القاهرة، 1969 ، صفحتا 75 ـ 76 .

119) «المعجب» ، صفحات 125 ـ 128 ؛ و«أعمال الاعلام» ، ص . 187 .

وأيضا وصفه احتفالاته بعد انتصاره على قرطبة في البيت التالي :

«خطبت قرطبة الحسناء إذ منعت،

من جاء يخطبها بالبيض والاسل» (123).

وكذا رد فعله على محاولة أبي يحيى محمد بن صمادح ، حاكم ألمرية ، لتعكير علاقته بيوسف بن تاشفين في الشطر التالي :

«يا من تعرض لي بريد مساءتي» (124) .

فاذا حكمنا على فترة حكم المعتمد من خلال هدفها فسنجد أنها كانت فشلا ذريعا ، ولو أنه كان أنجح ملوك الطوائف ، إذ كان محترما على نطاق واسع كما كان له ذكر طيب في جميع أنحاء الاندلس . الا أن استمراره حاكما على إشبيلية في المدى البعيد كان يتطلب مزايا لم يكن يتوفر عليها إذا أخذنا بعين الاعتبار صعوبة الظروف أواخر حكمه . فالعوامل الداخلية التي أدت الى الاضطراب السياسي وشخصية المعتمد السياسية لم يكونا كافيين في حد ذاتهما لاحداث سقوط إشبيلية لولا دور التهديدات الخارجية الخطيرة التي شكلها على التوالي كل من ألفونسو ويوسف بن تاشفين .

---

123) نفس المصدر ، ص . 46 .

124) نفس المصدر ، ص . 51 .

الفصل الثاني

الحكومة والادارة في دولة إشبيلية الطائفية

I - النظام السياسي الاشبيلي

1 - مفهوم الدولة الطائفية كنظام سياسي

(أ) تحديد المفهوم :

إن الصعوبات المترتبة عند محاولة تحديد مفهوم النظام السياسي في دولة إشبيلية الطائفية ناتجة من خصائصه الفريدة من جهة، وعن تركيب الميزات المتناقضة فيما بينها من جهة أخرى . فدولة إشبيلية الطائفية رغم تشابهها مع النظم السياسية الاخرى، تنفرد في عدة جوانب وتختلف عنها في جملتها .

فلقد كان بنو عباد أعلى سلطة تنفيذية في البلاد ، الامر الذي أكد سيادتهم داخل حدود إشبيلية التي استمرت في توسعها الى بزوغ المواجهة العسكرية الحاسمة مع ألفونسو السادس، ويمكننا انطلاقا من هذه الظاهرة أن نعتبر إشبيلية دولة قائمة الذات بوجود حدود قانونية محددة، وبخضوع هذه الحدود لسيطرة بني عباد في معظم الاحيان وبتعايش السكان التام داخلها.

كان الاشبيليون في ظل حكم بني عباد يعتبرون أنفسهم مجموعة سياسية بدافع من ضرورة الدفاع عن النفس من جهة ، ولانفرادهم من جهة أخرى بنظام سياسي هو موضوع هذا الفصل. وتجدر الاشارة الى أن هذا الانتماء السياسي لم يكن مقصورا على الاهالي بحسب أنسابهم، لان الهجرة ، طوعا أو كرها ، من دولة طائفية الى أخرى كانت ناتجة عن انعدام الاستقرار الشامل الذي اتصفت به الاندلس فنحن نجد ، مثلا ، ضمن المهاجرين الى إشبيلية أحد أعاظم وزراء المعتضد هو ابن زيدون القرطبي. وكذلك كان أمر الوزير ابن عمار، وأصله من شلب (Silves) وابن اللبانة من دانية (Denia) وقد شغل كلاهما مناصب سامية في قصر المعتمد .

ويبين الطابع الطائفي لدولة إشبيلية أساس القوة البشرية في نظامها السياسي ، حيث أن القاضي بن عباد ساندته في الاصل طائفة من أعيان إشبيلية فأسس حكمه بواسطتها (1) . وكان تأسيس دولة إشبيلية الطائفية في حد ذاته تعبيراً سياسياً لمجموعة بشرية متكاملة و منسجمة حاولت تنظيم نفسها والدفاع عن كيانها بعد أن انهارت سلطة قرطبة المركزية انهيارا نهائيا . واستمرت الخاصية الجماعية للدولة الطائفية عند ما حاول ملوك الطوائف فرض حكمهم، معتمدين على مساندتهم لمجموعات اجتماعية كأعيان بعض المدن ، أو عند ما ناصروا أطرافا سياسية متنازعة متصادمة . ويمكننا أخيراً أن نقول ان عنصر الملكية في النظام كان في جوهره سطحيا ويعكس نفسية الانخداع لمنظورهم السياسي .

---

1) «الذخيرة» ، القسم 2 ، ج 1 ، ص . 15 .

اتخذ وجود دول الطوائف عدة أشكال . فكانت إشبيلية أقواها ، إذ تميزت عن باقي الممالك الطائفية الضعيفة مثل قرمونة والجزيرة الخضراء اللتين بسطت سيطرتها عليهما فيما بعد . وشكلت أجهزة الحكم باشبيلية نظاما متميزا يلبي الحاجيات العدلية والادارية والسياسية لسكان إشبيلية الذين مارسوا حياة اجتماعية منظمة في المدن والقرى بينما نجد أن الدول الطائفية الاخرى كانت عبارة عن حصون صغيرة ومناطق مجاورة لها يسط قادة عسكريون أو عمال سابقون حكمهم عليها. ونجد أن النظام السياسي الاشبيلي، على نطاق الاندلس ، كان منزويا يحاول باستمرار ضمان الاكتفاء الذاتي. فقد كانت علاقاته بالدول الطائفية الاخرى تكتسي ، عادة ، صبغة العداء . وكانت إشبيلية بحجمها ونشاطها وقوتها قبلة الموهوبين في أطراف الاندلس، الامر الذي يفسر نجاحها والتحامها الظاهري . ولكن الدولة الطائفية كانت في مضمونها ، على العموم ، ظاهرة غير قابلة للاستمرار في الوجود نظرا لعزلتها وانطوائها على نفسها .

وكانت الهجومات المتبادلة بين دول الطوائف على العموم متوالية . فكل دولة شاعرة بالقوة كانت تتعمد الهجوم على الدول المجاورة لها . وهذا هو ما فعلت إشبيلية أثناء عهد بني عباد . وبما أن دول الطوائف لم تكن قوية الى درجة تمكنها من فرض سيطرتها على غيرها بطريقة حاسمة توالت الصراعات بينها حتى أتى يوسف بن تاشفين على وجودها المحتضر . ونلاحظ بسبب ذلك التطاحن انعداما تاما للتعاون بين معظم الدول الطائفية على المستوى السياسي - ومع ذلك فإن هذه الحالة لم تؤد الى تعطيل الاتصالات - فقد كان المتمردون على دولة طائفية معنية يلتمسون بالحماية في دولة طائفية أخرى ويتخذونها منطلقا لهجوماتهم عليها . نذكر

على سبيل المثال ابن عباب الذي قاد هجومات جيش الامير عبد الله على المعتمد في أرجونة (Arjona) وأنتقيرة (Antequera) (2) .

وكان تأثير هذه الاحوال في الجهاز الاداري عظيما لان قدرته على تلبية الحاجيات التي أنشيء من أجلها أخذت تتضاءل تدريجيا . كما أن الضغوط المستمرة على الحاكم جعلت غـايته الرئيسية ، والوحيدة أحيانـا ، هي ضمان وجوده ، حتى وصلت الحالة الى درجة جعلت من المستحيل على كل من الحاكم والنظام أن يستمرا على ذلك الوضع . وهـذا مـا يفسر مقولتنا بأن الدولة الطائفية كانت ظاهرة عابرة .

فمن المسلم به أن أسس الدولة الطائفية كانت دائما مهددة بالزوال وأن تاريخها عبارة عن فترة مليئة بالاصلاحات الظرفيـة المحدودة وبالكفاح من أجل البقاء . لذلك وجب وضع النظام السياسي باشبيلية في هذا الاطـار حتى يتسنى لنا تقييمه فلقد تجمعت عدة عوامل لتقرر تطور ومصير النظام السياسي لدولة إشبيلية الطائفية منها نشأة إشبيلية المفاجئة في سنة 414هـ / 1023 م . وتبلورها خلال فترة قصيرة تقارب سبعين سنة وبروز طابعها المحلي رغم خصائص الدولة التي تميزها، ثم نموها، رغم تعرضها المستمر لانعدام الاستقرار الداخلي وقدرتها على مواجهة ضغوط ألفونسو السادس ويوسف بن تاشفين .

---

2) كتاب التبيان ، صفحتا 94 ـ 96 .

لقد نشأ باشبيلية في عهد بني عباد نظام سياسي جديد يلبي الى حد ما حاجيات الدولة الحديثة النشوء، كما يعكس الانجاه السياسي لدور إشبيلية بصفتها دولة طائفية رئيسة . ورغم تأثير إشبيلية العظيم في مجموع دول الطوائف فلا نمكن مقارنة حجم إدارتها الصغيرة بادارة دولة بني أمية . ومع ذلك اتخذت هذه الاخيرة نموذجا ومثالا يحتذي ، الامر الذي أدى الى تغيير بنية نظام بني عباد السياسي على عدة مستويات ، مع أنه كان يستهدف في الاصل تأدية وظائف كانت تقع ضمن مسؤوليات قرطبة ، فقد تطور تطورا موازيا للحاجيات المادية والاهداف السياسية لدولة بني عباد .

ويمكن تفسير تكوين نظام إشبيلية السياسي وجهازها الاداري نتيجة ظروف تاريخية خاصة تتجسد في انحلال الاندلس باعتماده على نموذج نظام دولة بني أمية القاضي بفرض نظام الخلافة المزدهر على دولة صغيرة . ونظرا لتناقض النظام الاشبيلي ظهرت عدة تناقضات في حيز التطبيق للنموذج الاموي فتجلى التناقض الاول كما سلف ذكره ، فبينما تطور النظام السياسي في دولة فرضت سيادتها على معظم الاندلس كانت حدود إشبيلية بسكانها القلائل تتطلب نظاما أبسط وأيسر . وفعلا لم تكن إشبيلية في عهد الخلافة الاموية الا إقليما من أقاليم دولة الامويين .

أما التناقض الثاني فيعزى الى اختلاف حاجياتها . إذ كانت المشكلات المعقدة الناتجة عن اتساع رقعة الاراضي وكثرة السكان في الدولة الاموية تتناقض مع حاجيات السكان الاشبيليين التي كانت أقل أهمية منها وبالرغم من ذلك فان لائحة الموظفين الواردة في الجزء الثاني من كتاب

«الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لابن بسام الشنتريني تثبت أن عدد الوزراء الذين عملوا باشبيلية في ظل حكم بني عباد بلغ سبعة وعشرين وزيرا على الاقل (3) . ولا شك أن عددهم كان أكثر من ذلك لان اللائحة وضعت بهدف دراسة تلك الشخصيات من الزاوية الادبية . فمن جملة الوزراء الذين أغفلتهم القائمة ابن زيدون الذي عمل في قصر بني عباد ، وذلك لان ابن بسام خصص قسما آخر من كتابه لدراسته (4) . ويشير عدد الوزراء الاشبيليين الى أن عدد الموظفين بها كان ضخما . ولا ريب في أن جهازا اداريا كبيرا كهذا كان عبئا ثقيلا على عاتق سكان إشبيلية الذين تحملو تكاليفه ، فأصبحت حاجيات إشبيلية بصفتها إقليما سابقا في دولة بني أمية تقع تحت مسؤولية ادارة بيروقراطية مستقلة، ولكن تنظيمها استمر في اعتماده على المقاييس التي ميزت إدارة الامويين.

كان اعتماد النظام السياسي الاشبيلي على وجود دولة بني عباد ذا أهمية قصوى ، إذ لم يستطع هذا النظام أن يستمر بعد غيابهم ، إذ لم تكن الفترة الوجيزة التي عاش خلالها كافية لتمكينه من متابعة التطورات وتكييفها الكلي مع حاجيات إشبيلية، وقد كانت قدرته أضعف لمواجهة الضغوط الخارجية . والى هذا العامل يمكن ارجاع قصر حياة النظام السياسي باشبيلية .

---

3) انظر القسم الثاني من كتاب «الذخيرة» حيث هناك أوصاف وألقاب مختلفة للوزراء منها : «الكاتب» و«الوزير» و«ذو الوزارتين» .

4) «الذخيرة» القسم الاول، ج . 1 ، صفحات 336 - 487 ، ويقع التركيز بطبيعة الحال على شعر ابن زيدون كما أن هناك إفادة ببعض المعلومات الطريفة حول هذا الشاعر .

ولا يمكن القول بأن تنظيم الدولة كان وحدة تفرز لدور إشبيلية بصفتها دولة طائفية قوية . فكل ما يمكن استخلاصه هو أن ذلك التنظيم ساهم في نموها ، بينما يصعب القول بأن حكام بني عباد كانوا مقيدين تماما بذلك التنظيم ، بل ربما كان العكس هو الأصح . فبدلا من أن يكون عنصرا منشطا كان يشكل في الواقع إطارا محيطا . أما الاحداث فكانت تقرر سيرها عوامل أخرى . ويجب أن لا نبالغ في أهمية النظام السياسي نظرا لهشاشته وانعدام مرونته بحكم كبر وسعة الادارة وبسطة التنظيم البيروقراطي وطابع غرابته تجاه المجتمع الاشبيلي، فضلا عن تناقضاته مع قدرات إشبيلية وحاجياتها .

(3) السلطة داخل النظام السياسي :

الحاكم والمحكومون في إطار النظام

كان الهدف الاساسي للنظام حماية الحاكم والمحافظة على وجوده وتقوية نفوذه ما وجد الى ذلك سبيلا . وكان مركز الحاكم الاشبيلي ، شأن جل الحكام في التاريخ الاسلامي ، يأخذ طابعه الشرعي من البيعة (5). ورغم أن قبول الرعية لتنصيب الحاكم كان ، نظريا ، أمرا يعني الطرفين ، حيث أن رضا الرعية يكون اختياريا من جهة ، ويفترض من جهة أخرى

---

5) لتحديد مفهوم البيعة ومناقشته انظر «المقدمة» ، ج . 2 ، صفحات 548 _ 550 .

اعتراف الحاكم بواجباته نحو رعيته (6) . غير أننا نرى في الواقع أن حكام بني عباد قد اختلفوا في تطبيق نظرية البيعة ، ذلك أن القاضي ابن عباد اعتمد القوة لابراز شرعيته ، بينما ارتكزت خلافة المعتضد ثم المعتمد من بعده على مبدأ الوراثة . وقد جمع مركز الحاكم بين أدوار متعددة منها القيادة العسكرية العليا وتقرير السياسة الخارجية وتعيين الوزراء وموظفي الدولة كافة . وبلغ نفوذ الحاكم من الناحية التطبيقية درجة لم يعد معها خاضعا للشريعة الاسلامية كما هو المفروض . فقد مكنه انفراده المطلق بالحكم من قتل أي خصم سياسي أو غيره بدون أية محاكمة سابقة ، وهو ما لا يدخل بطبيعة الحال في سلطات الحاكم الشرعية .

ونجد على المستوى النظري أن الدولة الاسلامية تتميز بانعدام مبدأ توزيع السلطات بحيث أن الدين والسياسة متداخلان . ويمكن القول بأن درجة التعبير عن القوة السياسية والتحكم فيها قد تفاوتت باختلاف الحكام. أما في مجال التطبيق فنجد أن النظام السياسي الاشبيلي لم يكن

---

6) يعالج الطرطوشي مسألة العلاقة بين الحاكم والمحكوم عندما يناقش عدة جوانب من مهام الحاكم («سراج الملوك» ، صفحات 81 ـ 85 و 88 ـ 101 و 194 ـ 198 و207 ـ 209) .

ونظرا لكون القضية مطروحة على المستوى النظري يتعرض الطرطوشي للعلاقة المثالية بين الحاكم والمحكوم ويستنتج بأنها مبنية على احتياج متبادل بينهما ، أما قضية احتمال وقوع نزاع بينهما فهذا أمر لا يعالجه الطرطوشي ومع ذلك ، في لحظة معينة ، يتصور الطرطوشي حالة حاكم ظالم دون أن يؤيد حق الرعية في اللجوء الى التمرد (نفس المصدر ، صفحتا 194 ـ 195) وانظر في هذا الموضوع «تذكرة ابن حمدون» ، ص . 39 .

له امتياز بالقدرة على مراقبة قرارت الحاكم وأعماله ، وفرض توازنهما .
ويمكن الى حد ما شرح دور الحاكم كسلطة عليا اذ كان النظام يتميز
بانعدام الفصل بين السلطات، بل ان قرارات الحاكم كانت تزكيها أحيانا
هيئة تشريعية تضفي الطابع الشرعي على الامـر المقتضى . الا أن تطبيـق
القرار كان مطابقا للتشريع في بعض الاحيـان . من ذلك طلب المعتمد
بن عباد مساندة العلماء قبل محاولته القضاء على ثورة ابن رشيق في مرسية
باستصدار فتوى ضده (7) . وقد كانت درجة سلطة الحاكم في نهاية الامر
هي التي تقرر حسن استعماله أو سوء استغلاله للنظام ، بحسب قدرته على
التعامل في نطاقه أو الافراط في توسيع صلاحياته .

أما عجز الاشبيليين المادي وفشلهم في تحدي السلطات التي تميز بها
حكام بني عباد فقد استمرا طيلة عهد ملوك الطوائف . فقد تمكن القاضي
ابن عباد باعتماده على الجيش من القضاء على الزعماء الاشبيليين الذين
هددوا حكمه (8) واسفر مخطط المعتمد بن عبـاد لتصفية خصومه بالقتل
عن انعدام القيادة داخل المعارضة الاشبيلية. فعندمـا خلف المعتمد المعتضد
في حكم إشبيلية وجد الاشبيليون أنفسهم في حالة لا تمكنهم من تحدي
أحد ملوك الطوائف الاقوياء في الاندلس ، معززا بادارة منظمة . ثـم إن
المعتمد بن عباد قد تجنب من جهة أخرى اثارة سخط الاشبيليين رغم أن

---

7) « كتاب التبيان » ، ص . 113 .

8) « الذخيرة » ، القسم الثاني ، ج 1 ، صفحتا 15 ـ 16 .

رؤيته السياسية كانت محدودة . وقد زاد في بسط سيطرة إشبيلية على ما حولها فاكتسب التأييد الشعبي لعمله .

وفي ظروف الفوضى التي تميزت بها الاصطدامات بين دول الطوائف أمسك الاشبيليون عن التمرد والعصيان خوفا من العواقب السيئة وحدوث أخطار خارجية كالتي هددت إشبيلية خلال عهد القاضي بن عباد من جراء هجومات يحيى بن حمود عليها (9) . فكل تمرد على القاضي بن عباد أثناء هجومات ابن حمود كان من شأنه أن يؤدي الى سيطرة هذا الاخير على إشبيلية . وفي هذه الظروف أصبح اهتمام الاشبيليين مركزا على الاخطار الخارجية . وعند ما شرع جيش القاضي بن عباد في تنظيم حملاته العسكرية على دول الطوائف المجاورة وتكاثرت هذه الحملات خلال عهدي المعتضد والمعتمد انصرف اهتمام سكان إشبيلية بصورة متزايدة الى تتبع تلك الاحداث التي استوعبته تماما.

ثم إن حملات إشبيلية الهجومية مكنت السكان من سلام نسبي واستقرار داخلي. وتبرز أهمية هذه الحالة إذا ما نظرنا الى الخراب والتمردات والمذابح التي أصابت السكان في جميع الانحاء الاخرى من الاندلس ، بما

---

9) نفس المصدر ، ص . 19

10) حول موضوع تمرد المهدي وسليمان وعلي بن حمود ، انظر مثلا : « المعجب » ، صفحات 40 ـ 41 و 43 و 49 ـ 50 و « البيان المغرب » ، ج . 3 ، صفحات 50 ـ 52 و 59 ـ 60 و « الذخيرة » ، القسم الاول ، ج 1 ، صفحات 98 ـ 102

فيها المدن الهامة كقرطبة وبلنسية وطليطلة . ولم يشق أهل إشبيلية على عهد بني عباد بالمذابح التي أصابت القرطبيين خلال تمردات المهدي وسليمان وعلي بن حمود (10) . ولم تتمكن الجيوش التي أغارت على إشبيلية من اختراق أسوارها مثلما حدث عند ما دخل المعتمد بنفسه مدينة مالقة . كما أن الادارة الاشبيلية لم تصل درجة الضعف التي وصلتها إدارة غرناطة التي كانت معرضة باستمرار لهجومات المعتمد بن عباد وألفونسو السادس ، وكذلك لتمردات داخلية ، فضلا من وجوب أدائها الجزية السنوية لالفونسو ، ورغم أن إشبيلية كانت بدورها تؤدي الجزية لقشتالة وقيام ألفونسو بتنظيم حملات عسكرية على أراضيها فان إشبيلية قد ظلت إحدى دول الطوائف الاكثر أمناً .

وقد اضطر الاشبيليون في آخر المطاف الى قبول حكامهم لانعدام بديل أفضل ، فبما أنه لم تكن هناك مجموعة منظمة ترغب في الاستيلاء على الحكم لتطبق برنامجاً سياسياً، فان أي استبدال القاضي بن عباد أو للمعتضد أو المعتمد كان من شأنه أن يؤدي الى تعويضهم بحاكم مطلق آخر لن تكون بامكانه المحافظة على سلطته الا عن طريق ابادة جميع منافسيه السياسيين . ولم يرد على الصعيد الاشبيلي احتمال ظهور مناضل من حقوق الشعب لان العلاقة بين الحكام والمحكومين كان يستبد بها طابع سيطرة السيد على المسود . ولهذا لم تكن الاطاحة بحكام بني عباد ممكنة الا لمنافس يتمتع بنوع من السلطة المساندة الكافية ، أو عن طريق مقدرته السياسية لاستمالة عناصر يعتمد عليها حكام بني عباد كالوزراء وقادة الجيش . ولم يجد الاشبيليون مثل هذا الرائد ولو خارج المملكة ، بل انهم امتنعوا من مساندة قائد آخر نتيجة تجربتهم مع القاسم بن حمود الذي

حكم إشبيلية ثم تخلى عنها ليبسط حكمه على قرطبة مرتين قبل توطيد القاضي بن عباد باشبيلية (11)

3) الحاجب وذو الوزارتين

كان التدرج الاداري باشبيلية من النوع الذي يطلق عليه بعض علماء الاجتماع مصطلح النظام التسلسلي، حيث أننا نجد الحاكم في القمة، ثم تنحدر تدريجياً نحو الطبقات الادارية السفلى. وإذا ما استثنينا الحاكم الفعلي فان أسمى منصب في السلم الاداري لدولة بني عباد كان ذا الوزارتين، يتلوه الوزراء. وكان الحاجب في الأصل واسطة بين الخليفة وباقي الوزراء في دولة بني أمية (12)، غير أن لقب الحاجب أصبح له اعتبار خاص في عهد بني عباد، حتى أن المعتضد والمعتمد وأبناءهما اتخذوه لانفسهم أيضاً (13). وخلال فترة بني أبي عامر أصبحت السلطة التي انفرد بها

11) « الذخيرة »، القسم الاول، 1 ج، صفحات 101 و 481 ـ 486 و « البيان المغرب »، ج. 3، صفحتا 122 و 124 و « المعجب »، ص. 60.

12) لقد ضم الحاكم هذا المنصب إليه إما رسمياً أو فعلياً، فعلى سبيل المثال، اتخذ المعتمد لقب ويفهم من ذلك أنه استولى على هذا المنصب، ففي رسالة لابن حيان يخاطبه فيها بهذا اللقب (« الذخيرة »، القسم الاول، ج. 2، ص. 580)، ويبدو أن هناك ملوك طوائف آخرين اتخذوا لقب الحاجب (« المقدمة »، ج. 3، ص. 609).

13) « جذوة الاقتباس »، ص. 60.

الحاجب تعادل سلطة الحاكم المطلق. الامر الذي يفسر المدلول الجديد لهذا اللقب بعد ما اتخذه ملوك الطوائف. ولما تطور لقب الحاجب الى لقب شرفي أصبحت مهمته كموظف تسمى بذي الوزارتين لقيامه بدور الوسيط بين الحاكم والوزراء (14)

لقد اختلف لقب الحاجب في دلالته واختلفت وظيفته في عهد ملوك الطوائف مما كان عليه في عهد بني أمية . وفترة بني أبي عامر أساسية لتفسير هذا التغيير . فقد انتهى وجود منصب الحاجب بوصفه وسيلة وصل بين الخليفة ووزرائه في عهد دول الطوائف لان منصب الخليفة الذي كان معروفا به في جميع أطراف الاندلس لم يعد موجوداً . فقد صار كل ملك طائفي يعتبر نفسه خليفة داخل حدود مملكته . ولكن حدود وضعيتهم كحكام طائفيين لم تمكنهم من تلبية شروط الخلافة . خصوصاً وأن سلطاتهم وقوتهم ونفوذهم أصبحت محدودة المدى . ونتيجة لذلك لم يعترف بالخلافة لاي حاكم إشبيلي. كما أن أحداً منهم لم يعط نفسه هذه الصفة على نطاق الاندلس . وهذه حقيقة يثبتها اتخاذهم لقب الحاجب. غير أن ملوك الطوائف لم يسندوا لانفسهم لقب الحاجب فقط . كما يظهر ذلك في استعمالهم ألقاباً تشبه التي اتخذها الخلفاء الامويون بقرطبة .

14) كان ابن زيدون وابن عمار من بين الوزراء الذين عينوا في منصب ذي الوزارتين باشبيلية ، ويؤكد المقري أن الوزير الذي كان يمثل الحاكم في عهد ملوك الطوائف كان يعرف بذي الوزارتين (« نفح الطيب » ، ج . 1 ، ص . 202) .

فهل تجب ، إذن ، مقارنة ملوك الطوائف بالمنصور بن أبي عامر الذي اتخذ لقب المنصور الخليفي مع احتفاظه بلقب الحاجب حيث كانت الحجابة منصبه الرسمي ؟ هناك فرق مهم وهو أنه باستثناء المنصور لم يكن على قيد الحياة خليفة إبان عهد ملوك الطوائف. كما أن سلطة بعض الخلفاء الذين اعترف بهم بعض ملوك الطوائف ، مؤقتاً ، كهشام الثاني والمرتضى ، كانوا من صنعهم .

فهل اتخذ بعض ملوك الطوائف ، يا ترى ، لقب الحاجب بعد انفرادهم بالسلطة داخل دولهم الطائفية ؟ إننا اذا أخذنا بعين الاعتبار أبطال المعتضد لاعترافه بهشام الثاني كخليفة شرعي واتخاذه لقب الحاجب فهل احتفظ بهذا اللقب بعد أن تخلى عن اعترافه بسلطة هشام الثاني ؟ من المحتمل أن يكون قد فعل ذلك لان اعتراف الاشبيليين بهشام الثاني استمر الى أواخر حكم المعتضد . ثم إن التناقض الناتج من ضم لقب الحاجب الى ألقاب خليفية أخرى ، في نفس الوقت ، يفسر ظهور منصب ذي الوزارتين بديلا للحجابة . واذا ما قبلنا ما سلف فهناك عدة أسئلة يمكن طرحها وتتعلق بطبيعة وظائف ومسؤوليات ذي الوزارتين . فليس المداول الحقيقي لهذا المنصب واضحا كل الوضوح ، وقد تمكننا الاعتبارات التالية من توضيحه على النحو المرجو .

١ - ربما كان لذي الوزارتين منصبان ، ومن المحتمل أن يكون ذلك قد حدث بالطرق التالية :

أ) وجود مهمتين أو قسمين لهذه الوظيفة في آن واحد. فهل سمي أكثر من موظف واحد بذي الوزارتين في نفس الوقت يا ترى ؟ نتساءل مثلا عما إذا كان سمي بذي الوزارتين كل من ابن عمار وابن زيدون

اللذين عملا مع المعتمد ابن عباد ، أم أن ابن عمار لقب بهذا اللقب بعد وفاة ابن زيدون ؟ وبتعبير أعم هل أطلق لقب ذي الوزارتين على عدة وزراء في آن واحد . من المؤكد أن غضب المعتمد بن عباد على ابن زيدون كان نتيجة مناورات ابن عمار الذي لم يكن بمستطاعه القيام بذلك لو كان أقل مركزاً من ابن زيدون .

ب) لقد كان الموظف يكلف بمنصبين مختلفين خلال فترات مختلفة وفي ظل حكام مختلفين . فقد يكون الموظف قد شغل منصباً وأبعد عنه ثم عين في منصب آخر . ويؤكد الاحتمالين أن يكون نفس الموظف قد شغل منصبين . فقد أعفي ابن زيدون من منصبه الوزاري بقرطبة بعد إطلاق سراحه ، ثم التحق من جديد بهذا المنصب . وكان بامكان الموظف من جهة أخرى أن يكلف بمهمتين مختلفتين أو أكثر ، مثل ابن عمار الذي شغل بصفته وزيراً وظائف إدارية . ولكنه كلف في نفس الوقت ، في مناسبات عدة برئاسة المفاوضات مع ألفونسو السادس ، وشارك في حملات عسكرية أيضاً . أما ابن زيدون فقد عمل وزيراً لدى عدد من ملوك الطوائف ، وتقلد أساساً مسؤوليات ادارية ، كما أنه قاد المفاوضات .

ج) كان الموظف يكلف بمنصبين مختلفين خلال فترتين متفاوتتين في ظل حاكمين مختلفين ، كما كان شأن ابن زيدون الذي عمل وزيراً في ظل بني جهور ، ثم في بلاط المعتضد والمعتمد بن عباد .

2 ـ ربما كان ذو الوزارتين يكلف بمنصب واحد ، ودوره الوساطة بين الحكام والوزراء الآخرين . ويمكن في هذا الصدد ذكر ابن عمار ومركزه المطلق عند المعتمد . وقد كان اختيارنا للشخصيتين المذكورتين

مقصوداً لابراز صعوبة تحديد وظائف ذي الوزارتين في القرن الهجري الخامس . فأي تحديد لمهام ومسؤوليات ذي الوزارتين في عهد دول الطوائف أمر صعب نظراً للتناقضات التي تواجهنا . وكل ما يمكن استخلاصه هو أن هذا المنصب يجب تصوره داخل نطاق التناقضات التي اتصفت بها هذه الفترة على العموم . ولهذا يظل فهمنا لمداول ذي الوزارتين غامضاً . وينطبق نفس القول على منصب الحاجب أيضاً .

4) الــوزيــر

لقد كان الهدف من تعدد الوزراء في نظام بني عباد السياسي إعطاءه حلة السلطة الذي كان يطبع نظام بني أمية فيما سبق ، ولم يكن يستهدف التجاوب مع الحاجيات الضرورية للسكان . غير أنه لا يجب تفسير هـذه الوضعية كظاهرة عامة . فنحن نجد ، مثلا ، أن الامير عبد الله ألغى وظيفة الوزير في غرناطة (16) ، كما أن ظاهرة تحديد المهام داخل نظام بني عباد تتجلى في المناصب السامية المتعددة الموجودة آنذاك ، منها المجالسة والمشاورة والترسيل وحسبة المال الخ .

ولكي نتجنب الوقوع في الخلط بين المفهوم العصري ومصطلح الوزير كما كان في عهد بني عباد يجب تصوره في نطاقه الجغرافي والسياسي

---

16) « كتاب التبيان » ، ص . 56

الخاص فيبدو أن المصطلح الذي استعمل لتسمية الوزير في دول الطوائف هو لفظ الكاتب . ومن الجائز أن يكون هـذا اللفظ قد زال ليحل محله لفظ الوزير . غير أننا نجد أن اللفظين قد استعملا في آن واحد في عدة حالات . ففي الجزء الثاني من كتاب « الذخيرة » الذي يقدم لنا سير ومؤلفات أهم الشخصيات البارزة في الغرب الاندلسي وصف هـؤلاء الادباء بألقاب مختلفة منها الكاتب والوزير والاديب وذو الوزارتين . وقد وصف بعضهم بأكثر من لقب واحد في نفس الوقت . ويعني استعمال لقب الوزير الكاتب معا أحد أمرين : فاما أن الشخص الموصوف باللقبين شغل منصبين ، وإما ان المصطلحين أطلقا على نفس المنصب . ومن الاشخاص الذين ذكرهم ابن بسام مستعملا المصطلحين :

1) الوزير الكاتب أبو عمر يوسف بن الباجي (16) .
2) الوزير الكاتب أبو محمد بن عبد الغفور ، ذو الوزارتين (17) .
3) الوزير الكاتب أبو الوليد حسان المصيصي (18) .
4) الوزير الكاتب أبو عبد الله محمد ابن الايمن (19) .
5) الوزير الكاتب أبو بكر بن عبد العزيز بن سعيد البطليوسي (20).

---

16) « الذخيرة » ، القسم الثاني ج . 1 . صفحات 186 ـ 200 .
17) نفس المصدر صفحات 325 ـ 369 .
18) نفس المصدر ، صفحات 230 ـ 267 .
19) « الذخيرة » ، القسم 2 ، ج . 2 ، صفحات 652 ـ 656 .
20) نفس المصدر ، صفحات 753 ـ 773 .

6) الوزير الكاتب أبو القاسم محمد بن الجد (21) .

7) الوزير الكاتب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون (22) .

8) الوزير الكاتب أبو بكر بن سعيد المعروف بابن القبطورنو (23)

9) الوزير الكاتب أبو بكر بن قزمان (24) .

10) الوزير الكاتب أبو بكر محمد بن سوار الاشبوني (25) .

ويمكن نتيجة لذلك تحديد مفهوم وظائف الوزير وواجباته في عهد بني عباد . فقد كان التسيير الاداري لقسم معين من معام حكومة إشبيلية وكذلك تنفيذ أوامر الحكام على الصعيد الداخلي والخارجي .

ولم يتمكن الوزير في الواقع من القيام بمهامه الوظيفية بفعالية ، اذ يرجع ضعف الوزير داخل الحكومة الاشبيلية ، أساساً ، الى القيود التي كانت تربطه بها . وقد أصبح التناقض حاداً بين المطالب الاجتماعية والتعليمات الصادرة . ولنذكر الوزير المكلف بحساب المال على سبيل المثال ، فرغم قلة المصادر والمعلومات المباشرة المتوفرة لدينا فان اعتبارنا لبعض الجوانب من الحالة العامة باشبيلية سيثبت تدهور وضعية « وزير المالية » . فانعدام

---

21) «الذخيرة» القسم الثاني ، ج . 1 . صفحات 286 ـ 322 .

22) نفس المصدر ، صفحات 668 ـ 727 .

23) « الذخيرة » ، القسم 2 في كتاب « تاريخ بني عباد » لراينهارت دوزي ، R. P. A. Dozy, *Historia Abbadidarum*, Vol. 3, p. 50"

24) « الذخيرة » ، القسم 2 ، ج . 2 ، صفحات 774 ـ 786 .

25) نفس المصدر ، صفحات 811 ـ 833 .

الاستقرار الداخلي الناتج عن الحروب مع دول الطوائف الاخرى ، وتعهد جيش كبير لاهداف دفاعية وهجومية ، وأداء الجزية التي فرضها الملوك النصارى على ملوك الطوائف والمصاريف الباهظة لهؤلاء، كلها عوامل أدت الى وضعية لم يستطع الوزير معها أن يسيطر سياسياً عليها ، رغم عواقبها الضخمة على مالية الدولة . وأدت هذه الضغوط على بيت المال بالوزير الى اتخاذ سكان إشبيلية مصدراً للمال بواسطة الضرائب . وهكذا أصبح ضمان بقاء النظام الاشبيلي الشغل الشاغل لقسم حساب المال . وكانت النتيجة أن هذا القسم وجد نفسه عاجزاً عن ترضية الحاجيات الاجتماعية باشبيلية ، الامر الذي أدى الى عجزه عن اتخاذ خطوات إيجابية لاصلاح الحالة المالية .

وكان قسم المال والجبايات من أهم أقسام الحكومة ، اذ كانت مهمته تشمل جباية الضرائب والمحافظة على التوازن بين المداخيل والمصاريف والاشراف على ميزانية الجيش (26) . وهذا القسم الذي تفرع أحياناً الى عدة فروع كان يسيره وينسق أعماله موظف يعرف بالناظر (27) . وقد كان طابع التخصص ميزة منصب الناظر الذي امتاز في عهد ملوك الطوائف بسلطة سياسية عظيمة حيث أن منصبه كان مستقلا عن الحاكم (28) . ولم تكن لسلطته مع ذلك عواقب سياسية مباشرة رغم أن ديوان المال والجبايات

---

26) « المقدمة » ، ج 2 ، صفحات 613 ـ 617 .

27) نفس المصدر ، صفحتا 613 ـ 614 .

28) نفس المصدر ، ص . 616 .

كان يساند النظام من الناحية المالية فكان عاملا مهماً في تعزيز سلطة الحاكم السياسية. وكان هذا القسم في إشبيلية قد كلف بجباية الضرائب التي كانت مع الغنائم أهم مصادر الدخل الحكومي.

أما تقييم دور الوزير كمستشار شخصي للحاكم فيؤدي بنا الى نفس الاستنتاج الذي وصلنا إليه بشأن حدود سلطة الوزير عامة. ويمكننا الوصول الى نفس الاستنتاج عند التطرق لتحليل التكوين البنيوي لنظام الحكومة الاشبيلية. فلقد أصبحت المجالسة إجراء رسمياً حيث أن الحاكم الاشبيلي كان يشكل حجر الزاوية وكانت العناية كلها مصروفة إليه. وكان يحضر هذه الجلسات وزراء كانت مهمتهم محصورة في تقديم النصائح للحاكم. وكانت هذه الجلسات، من حين لآخر، تشمل عروضاً ومسابقات شعرية نظراً لميول حكام بني عباد الادبية (29). وحاول الوزراء الذين كان بعضهم يقرض الشعر رفع درجاتهم عند الحاكم بمهاراتهم الشعرية وبالمديح على الخصوص. ولم يكن الحاكم يقبل نصائحهم السياسية الا اذا أذن لهم بأدائها. خصوصاً في المواقف الخطيرة. ولذلك كانت وظيفة المستشار باشبيلية في غالب الاحيان عبارة عن تقليد لما كان عليه الحال في عهد خلافة بني أمية. بل إن التسيير الاداري لشؤون دولة إشبيلية الطائفية لم يكن محتاجاً لآراء المتخصصين كما كان عليه الامر في دولة بني أمية

---

29) لقد ترك جميع شعراء إشبيلية مدحاً في حاكم من حكام بني عباد أو أكثر ومنهم ابن عمار وابن اللبانة وابن زيدون.

الاكبر حجماً والاكثر تعقيداً . ونتج عن ذلك أن حاجة حكام بني عباد للمجالسة والمشاورة لم تكن راجعة الى أسباب إدارية وتقنية ، بل الى إجراءات رسمية ساهمت في انتشار سمعة الحكام وتقديرهم .

5 ـ الكاتب

كان الوزير المكلف بديوان الرسائل يعرف بالكاتب ، كما عرف الوزير المكلف بالكتابة بكاتب الزمام . وكان يصعب أحياناً التفريق بين اختصاصات المنصبين ، كما لم يكن بالامكان أطواراً أخرى التمييز بين هذين المنصبين والمناصب الاخرى . فلم يكن منصب الكاتب ، أولا ، ضرورياً لتصريف شؤون الحكومة ، الامر الذي يفسر الاستغناء عنه في بعض الحالات ، وهو ما نجده في الدولة البدائية التي تكلم عنها ابن خلدون (80) . وكانت تبعية الكاتب التامة للحاكم عبارة عن تقليص لمهامه حيث لم يكن يتمتع بأية سلطة شخصية تتيح له اتخاذ المبادرات السياسية ، فقد كان دوره محصوراً في الادارة وتنفيذ أوامر الحكام . وكان ولاء الكاتب وخضوعه لمشيئة الحاكم ليسا من الصفات المعترف بها فقط ، بل من الامور الموصى بها (81) ومع ذلك فقد كانت قوة الكاتب مستمدة ، أساساً ، من مساندته للحاكم . فلقد أشار ابن خلدون الى كتاب « رسالة الكاتب »

---

(80) « المقدمة » ، ج . 2 ، ص 516 .

(81) نفس المصدر ، ص 520 .

لعبد الحميد حيث يلح على عدم استغناء الحاكم عن الكاتب الموصوف بسمعه وبصره ولسانه ويده (32) . ومما يثبت وجود هذا المنصب لدى حكام بني عباد أن جل الوزراء الذين عملوا في ظل دولتهم والذين درسهم ابن بسام في الجزء الثاني من كتاب « الذخيرة » اتخذوا لقب الكاتب (33) . وتبرز ثقافة الكاتب الاشبيلي الممتازة في المستوى الادبي الرفيع الذي اختصت به رسائل المعتضد والمعتمد بن عباد (34) فلقد تفوق بصورة خاصة ابن البرزالي الذي عينه المعتمد بن عباد سنة 448 هـ / 1051 م . (35) . أما بخصوص السلطة السياسية للكاتب فلم يكن له إلا تأثير غير مباشر في قرارات الحاكم . وكان لهذا المنصب اعتبار قوي لم يفقه في بعض الاحيان إلا مقام الحاكم نفسه (36) . وكان الكاتب يتعرض للنقد الشديد عند انكشاف ضعفه أو انحرافه، فلم تكن صلاته بالحاكم تفيده في ذلك شيئاً (37)

---

32) نفس المصدر .

33) وصل عدد الوزراء الذين أطلق عليهم لقب الكاتب - على الاقل - أحد عشر وزيراً (في القسم الثاني من كتاب « الذخيرة ») .

34) فعلى سبيل المثال أنظر رسالة المعتضد الى بعض ملوك الطوائف يشرح فيها الدوافع التي أدت به الى قتل ابنه « الذخيرة» القسم الثالث ، مذكور في كتاب « تاريخ بني عباد » للمستشرق راينهارت دوزي : Historia Abbadidarum, vol. 1, pp. 254-256 و « الذخيرة » القسم 3 ، ج . 1 ، صفحات 136 - 146 . وانظر جواب المعتمد على الفونسو السادس بعد الانذار الذي قدمه له هذا الاخير (« الحلل الموشية » ، صفحات 26 - 28)

35) « الذخيرة » ، القسم 1 ج 2 ، صفحات 424 - 443 .

36) « المقدمة » ، ج . 2 ، صفحتا 620 - 621 و « نفح الطيب » ، ج . 1 ، ص . 202 .

37) « نفح الطيب » ، ج 1 ، ص . 202 .

أما كاتب الزمام فكان يعد من الموظفين السامين مع العلم بأن رتبته كانت أدنى من درجة الكاتب . ثم ان مركز كاتب الزمام لدى الحاكم لم يكن مستقراً .

أما الموظف المكلف بالاوقاف فكانت وظيفته تمتاز بمرونة أكثر في تأدية مهامه اذا ما قورن بزملائه ، وكان من أهداف إدارة الاوقاف العمل على تلبية حاجيات ومطالب سكان إشبيلية الروحية والاجتماعية ورفع مستواها . وكانت تتميز بطابع غير سياسي إذ لا تربطه بسياسة الحاكم . وساهمت سياسة الانعاش الاجتماعي ، ومن جهة أخرى ، وبطريقة غير مباشرة ، في إشاعة سمعة الحاكم . ورغم تقلص نفوذ وزير الاوقاف ، سياسياً ، في إشبيلية فقد امتاز بأن كان له اعتبار كبير في الاندلس لان وظيفته ساهمت على النطاق الاجتماعي في التخفيف من مصاعب الكادحين والمعوزين . أما على المستوى الديني فقد امتازت سياسته بمساندته للعلماء والقضاة والمتدينين عامة . ونظراً للتأييد العام الذي حظيت به الاوقاف فقد كان من مصلحة الحاكم السياسية أن يشجعها تشجيعاً تاماً . ورغم قلة المعلومات الموثوق بها عن طبيعة الاوقاف وكيفية إدارتها باشبيلية فقد برز الدور السياسي للمسجد الاشبيلي الذي كانت الاوقاف تتولى تسييره . ومن المعروف أن مؤسسة الاوقاف كانت منتشرة في جميع أنحاء الاندلس فقد أشار الامير عبد الله بن بلقين الى ابن سلمون الذي كان يتولى الاحباس في غرناطة (88) . كما أشار ابن حيان الى موظف مرتش استغل أملاك الاوقاف . وربما كان هذا الموظف المغفول إسمه مقيماً بقرطبة (89) .

---

88) «كتاب التبيان» ص . 117 .

89) « الذخيرة » ، القسم 1، ج. 2، ص. 601 .

وممـا زاد في تقليص سلطـة الوزير تدخـل غيره بصفـة مباشرة في أعماله ، فأدى انعدام الحصانة والاستقرار بصاحب هذا المنصب الى اتخاذ المكيدة واعتبارها وسيلة ضرورية للاحتفاظ بـه . فقد فرض الحاكم إرادته بقوة على وزرائه في إشبيلية فتكاثرت دسائس الوزراء لبعضهم بعضاً . من ذلك أن الوزيرين ابن عمار وابن مرتين دبرا خطة للقضاء على وزير من زملائهما ، فنجحا في إقناع المعتمد بن عباد بالتخلي عن تعضيده لابن زيدون وابنه الرقيب (40) . وقد كانت دسائس أبي الوليد بن زيدون من أسباب اعـدام المعتضد بن عباد لابي الحسن علي بن حفص (41) . ومن دسائس أهل البلاط وكيدهم للوزراء سعايتهم لتشويه سمعة ابن عمار لدى المعتمد باتخاذ زوجته مطية إليه .

ثم إن الوزير الاشبيلي لم يكن في خاتمة الامر مزوداً بالارشادات الكافية ولا عارفاً بالخطوط العريضة للسياسة التي كان سلوكها واجباً عليه ، كما أنه لم يكن في معظم الاحيان حراً في القيـام بواجبه . وقد كان الوزير مضطراً ، بالاضافة الى مـا سلف ، للخضوع لسلطة الحاكم والموافقة على قراراته حتى يتمكن من الاستمرار في منصبه . ولذلك كان الشغل الشاغل للوزير هو تنفيذ مطالب الحاكم الى درجة أنها شلت قدرته وصرفته عن القيام بواجباته العمومية . وبرزت هذه الحالة ، بصورة أجلى ، في عهـد المعتضد بن عباد ، إذ عمل الوزراء تحت ضغوط قاهرة وشهدوا اغتيال عدد

---

40) « الذخيرة » ، القسم 1، ج 1 صفحتا 418 ـ 419.

41) « المغرب في حلى المغرب »، ص 181 .

من زملائهم ، فعمت حالة الرعب نفوسهم . ويعكس هذه الوضعية بوضوح ارتياح ابن زيدون لوفاة المعتضد (42) . إلا أننا نجد أن الوزير في عهد المعتمد بن عباد قد أحس باطمئنان وأمن في علاقته بالحاكم ، ولو أن بعض الوزراء عانوا من مكائد زملاء لهم تمكنوا من الحصول على سلطات واسعة كما كان شأن ابن عمار .

ورغم العراقيل والصعوبات فقد حظي وزراء بني عباد باعتبار مرموق ، فقد كانت وظائفهم تحدد طبيعة علاقاتهم بجمهور إشبيلية . وكان الوزير صلة أساسية بين الحاكم والمحكومين . ورغم أنه لم يكن للسكان أي دور في تعيين الوزراء فان انتماء هؤلاء لفئات اجتماعية فقيرة ربما عاد بالفائدة على طبقة صغار التجار . ثم إن القسط الضئيل الذي حصلت عليه الفئة الغنية التقليدية باشبيلية من المناصب الحكومية ، يشير الى الاستلاب السياسي الذي شقيت به في عهد بني عباد . فقد كان سبب اعتماد حكامهم على الطبقة الحاكمة يرجع الى أن جل أفرادها لم يكونوا من أصل إشبيلي . ويصح هذا على الخصوص بالنسبة للوزراء ومن الامثلة على ذلك أن القاضي ابن عباد عين بمجرد ما تولى حكم إشبيلية ، إشبيلياً غير معروف رئيساً للحكومة (43) ثم إن مراجعة أسماء الوزراء على عهد بني عباد تظهرنا على أن عدداً منهم قدم من أطراف مختلفة من الاندلس. وقد أضاف عدد من الشخصيات الاندلسية البارزة ، والوزراء ، أسماء أماكن ولادتهم الى أسمائهم، نذكر منهم :

---

42) « الحلة السيراء » ، ج. 2، ص. 48 .

43) « الذخيرة » ، القسم الثاني ، ج. 1، ص. 19 .

1 ـ الوزير الكاتب أبا عمر بن الباجي / نسبة الى باجة / (44) .

2 ـ الاديب أبا محمد عبد الجليل المرسي / نسبة الى مرسية / (45) .

3 ـ الكاتب أبا الحسن صالح بن هارون الشنتمري / نسبة الى شانتمرية / (46) .

4 ـ الشيخ الاديب أبا عمر بن فتح البطليوسي / من بطليوس / (47)

5 ـ الاديب أبا عمر يوسف بن كوثر الشنتريني / من شنتروم في البرتغال / (48) .

6 ـ الوزير الكاتب أبا بكر محمد بن سوار الاشبوني / نسبة الى لشبونة / (49) .

ويعرف مؤلف الكتاب الذي أورد أسماء وألقاب الشخصيات المذكورة أعلاه بعلي بن بسام الشنتريني ، نسبة الى مدينة شنترم . وكان الغرض من إثبات النسبة تمييز صاحبه عن أهل المكان الذي استقر فيه . ويشير ذلك إلى وجود حركة تنقل كبيرة في الاندلس خلال القرن الهجري الخامس . ولهذا امتاز معظم وزراء بني عباد برصيد ثقافي راق . ومع ذلك فقد ظل خضوعهم السياسي للحاكم خضوعاً تاماً ، يرجع أساساً ، الى انعدام الاتصالات السياسية بينهم وبين أهل إشبيلية ، الطارئين عليها . وكان أمنهم في آخر

---

44) نفس المصدر ، صفحات 186 ـ 200 .

45) نفس المصدر ، صفحات 473 ـ 519 .

46) « الذخيرة » القسم 2 ، ج 2 ، صفحات 687 ـ 698 .

47) « الذخيرة » ، القسم 2 ، ج 3 ، صفحات 806 ـ 807 .

48) « الذخيرة » ، القسم 2 ، ج 2 ، صفحتا 800 ـ 801 .

49) « الذخيرة » ، القسم 3 ، ج 2 ، صفحات 811 ـ 833 .

الامـر متوقفاً على الحاكم . وهكذا نـرى أن الوزراء ، كما كان شأن الجيش ، ألفوا عنصراً أساسياً لمساندة الحاكم الذي وصلت قوته الى درجة أنه كان يتعامل معهم كأفراد ، فحال ذلك دون تكوين التكتل واندلاع الثورات عليه، واستفاد كل من الحاكم ووزرائه من مساندتهما المتبادلة، وقد كـان تصورهم لصلاتهم بالاشبيليين محصورا في إطار واجبات هؤلاء نحوهم ، ولم يكن العكس واردا فيه.

ونجد على مستوى التحليل النظري أن الهدف من التناقض بين السيف والقلم داخل الهرم الحكومي هو التمييز بين الوظائف التي كانت واجبات عملية والوظائف الاخرى ذات الطابع الثقافي والاداري الصرف (50) . وكـانت هناك وظائف أخرى منها وظيفة الوزير التي يصعب تصنيفها بين وظائـف القلم والسيف لاشتمالها على مهام مختلفة . وزاد ابن خلدون هذا الامر تعقيدا عند ما اعتبر الوزير من فئة أهل السيف (51) . وإذا نحن حاولنا تطبيق نظرية التمييز بين القلم والسيف في دولة بني عباد فنجد من الصعب استيعاب بين حدود سيطرة كل من أهل السيف وأهل القلم على الساحة السياسية الاشبيلية التي كـان فيها للجميع نشاط فعال مستمر . ومن المؤكـد أن حكام بني عباد تمكنوا من فرض أنفسهم على الفئتين معا ، الامر الذي يؤكد تصور ابن خلدون لهما حيث قال : «أعلم أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بها على أمره» (52) .

---

50) «المقدمة» ، ج 2، صفحتا 633 ـ 634 .

51) نفس المصدر، ص 634 .

52) نفس المصدر.

6 ـ صاحب الشرطة والوالي والعامل

كان المسؤول عن الامن الذي عرف بالحاكم في المغرب وبالوالي عند الاتراك يطلق عليه رسميا في الاندلس لقب صاحب الشرطة و عامة صاحب المدينة أو صاحب الليل (53) . وفي عهد الدولة الاموية بالاندلس كان يقوم بهذه الوظيفة شخصان هما صاحب الشرطة الكبرى وصاحب الشرطة الصغرى. وقد كان أولهما ينظر في شؤون الخاصة و يرعاها ، ويقضي ثانيهما في شؤون العامة (54) . ورغم خمول ذكر صاحب الشرطة فإن سلطاته بلغت درجة اصدار الاوامر ، في حالات إستثنائية، بتنفيذ الاعدام الذي كان من اختصاص القاضي (55) . وأصبح منصب صاحب الشرطة، بقوته واتساع نفوذه، مشابها لمنصب الوزير ، إذ شمل المحافظة على الامن الداخلي والقيام مقام الحاكم عند غيابه عن المدينة . وكانت مسؤوليات صاحب الشرطة منحصرة داخل المدن لان هذا المنصب كان مقصورا على الحواضر ، والحواضر الكبيرة بصورة أخص. أما العمال فكانوا مكلفين بتسيير الحصون والاشراف على أمنها . ونجد رغم قلة التفاصيل عن هذا المنصب في المصادر الاسلامية أن الامير بن بلقين حاكم غرناطة عين المسمى «لبيب» في منصب صاحب المدينة (56) . وبما أن إشبيلية فاقت غرناطة أهمية فان الحاجة الى المحافظة

53) نفس المصدر، ص. 625 و « نفح الطيب » ، ج. 1، ص. 208 .

54) « المقدمة » ، ج 2، صفحتا 625 ـ 626 .

55) نفس المصدر و « نفح الطيب » ، ج. 1، ص 208 .

56) « كتاب التبيان»، ص 186 .

على الامن كانت من غير شك أكثر اشغالا وألح احتياجا. وهناك نص يؤكد وجود هذا المنصب باشبيلية عند ذكر واقعة بأغمات لما كان المعتمد بن عباد سجينا بها ، إذ قصدت ابنته منزل شخص كان يتولى هذا المنصب على عهد أبيها (57) . أما سلطات صاحب المدينة باشبيلية فكانت مشلولة الى درجة حالت دون أداء واجباته بتوفيق في بعض الاحيان. فقد حدث أن سجن صاحب المدينة ، وهو عبد الله بن سالم ، رجلا إشبيليا تسبب في إثارة الفوضى بالسوق في سنة 462هـ./ 1069 م . (58) . فأدى ذلك الى انفجار شعبي جعل صاحب المدينة يستنجد بالحاكم الاشبيلي الذي كان آنذاك بقرطبة ، فبعث ولده الحاجب سراج الدولة مصحوبا بوفد من العلماء والوزراء لمعالجة الامر (59) . وقد أبانت هذه الحادثة انعدام شعبية صاحب المدينة عند الاشبيليين من جهة ، وتبعيته للحاكم من جهة أخرى.

وكان الموالي أو العامل الذي يترأس الحصون يتقلد منصبا بالغ الاهمية لدى الحكومة الاسبيلية لان الاراضي الشاسعة الموجودة تحت سيطرتها كانت تحتوي على حصون عديدة كانت بمثابة شبكة متكاثفة لضمان السيطرة العسكرية على جميع أنحاء الدولة الطائفية . وارتفع عدد عمال إشبيلية بتكاثر حصونها لما اتسعت رقعة أراضيها ، فاقتضى ذلك تعيين عمال لتسيير شؤون الثغور باسم حاكم الدولة الطائفية . وكان العامل

57) « وفيات الاعيان » ج. 5 ص. ص. 35 .
58) « الذخيرة » القسم 1 ج 1. ص 416 .
59) نفس المصدر .

يشكل خطرا على الحاكم رغم أن مركزه ونفوذه كانا في غالب الاحيان دون مركز الوزير ونفوذه. فلقد كان العامل خلافا للموظفين السامين العاملين باستمرار داخل قصر الحاكم، بعيدا عنه بمسافات كبيرة، الامر الذي حال دون مراقبته. وباتساع رقعة الدولة الاشبيلية الطائفية بانضمام الجزيرة الخضراء وقرطبة إليها اتخذت مراقبة العامل، سياسيا وإداريا، بصورة فعالة، بعدا جديدا، إذ أصبح خطر استبدال ولاء السكان المحليين في الحصون لصالح العمال يهدد سلطة الحاكم بالتفكك نظرا لعلاقات الاهالي اليومية بالعامل الذي كانت شعبيته في بعض الاحيان تؤدي به الى منع تدخل الحاكم في شؤونه الداخلية. ومن ذلك أننا نجد عددا من العمال في غرناطة، منهم مؤمل الذي كلف بحصن ليوسنة وكباب بن تميم، الذي أسند إليه أمر أرجولة وألتقيرة، لم يتقاضيا عن سلطة الامير عبد الله بن بلقين فحسب، بل حرضا الرعية على التمرد أيضا (60). ثم إن دولة إشبيلية القوية لم تنج بدورها من ثورتين بمرسية (61). وكيفما كان الحال فقد كانت إشبيلية في مأمن أكبر من تمرد حصونها التي كانت شديدة الارتباط بالسلطة السياسية المركزية بفضل الصلات «العائلية» التي نسجها حكام بني عباد، فضلا عن قوة إشبيلية وغناها. ومن الامثلة على ذلك أن محمد بن عباد (المعتمد فيما بعد) انضم الى خدمة أبيه بقيادة الجيش الاشبيلي خلال حصاره لمالقة (62). ومع

---

60) «كتاب التبيان»، صفحات 98 - 100 و 186 - 188.
61) نفس المصدر، صفحات 100 - 102.
62) «الذخيرة»، القسم 2، ج. 1، صفحتا 49 - 50، و «البيان المغرب» ج. 4، ص 274.

ذلك فلم تنتشر السياسة «العائلية» انتشارا واسعا إلا في عهد المعتمد بن عباد حيث اتسعت رقعة الدولة الاشبيلية فبلغت مداها . ومن ذلك أن أهم عامل دفع المعتمد الى خلع ابن رشيق ، عامله على مرسية ، هو تعويضه بابنه الراضي لثقته التامة به (63) . وقد كلف المعتمد بن عباد أبناءه بمهام ذات مسؤوليات سامية في مدن هامة كالجزيرة الخضراء وإشبيلية وقرطبة ، كما عهد إليهم أيضا بمسؤوليات في مدن أخرى دونها أهمية ومكانة . ويتجلى الولاء الكبير لعمال حكام بني عباد في المساهمة الايجابية التي بذلها عامل المنفد على حصن شدونة ، وكان إسمه علي حشاد ، وذلك عند ما أقنع ابنه، إسماعيل ، بالتخلي عن فراره من إشبيلية وبالعودة إليها (64) . ورغم ذلك فقد ظل احتمال تمرد العامل باشبيلية خطرا دائما ، شأنها في ذلك شأن جميع دول الطوائف بالاندلس . فانعدام الثقة وتفشي النزعة الانفصالية وهشاشة الروابط بين العامل والسلطة المركزية في الدولة الطائفية خصائص كشفتها بقوة جيوش يوسف بن تاشفين عند ما ذهبت بدول الطوائف الواحدة تلو الاخرى. فان الحصون في الاندلس كلها لم تبد إلا مقاومة ضئيلة ، بل إن بعضها انضم الى الجيش المرابطي بعد انقلابه على الحكام الطائفيين (65) .

---

63) « كتاب التبيان » ص. 112 .

64) «الذخيرة» القسم 3 ج. 1 ، صفحات 136 ـ 143 . وكانت هذه الرسالة الفريدة من انشاء الوزير الكاتب أبي محمد عبد الله بن عبد البر النمري .

65) تملي سوى المثال، الضم القائد ذمان الذي سبق له أن عمل كقائد مع عبد الله بن بلقين الى صفوف يوسف بن تاشفين واحتل عدة حصون من بينها غرناطة (« كتاب التبيان » ، صفحات 138 ـ 139 و 144 و 148) .

(7) طبيعة الدعاية الرسمية ودورها

كان الهدف البعيد من الدعاية الرسمية والتجسس خلال عهد بني عباد حماية الحاكم واضفاء صبغة القدسية على شخصيته . فقد اتخذ الدين وسيلة دعائية لبث الصورة الشرعية للحاكم بين أفراد الشعب الذين صاروا على مقربة من تقديسها ، فكانت الالقاب التي اتخذها الحاكم مثل القاضي بن عباد والمعتضد بالله والمعتمد على الله تتضمن إحساسا دينيا . وقد تمكن حكام بني عباد من تزكية صيتهم لدى العامة باستغلال خطبة صلاة الجمعة لتلك الغاية . إذ اتخذ المنبر منصة للدعاية الرسمية إبان حكم القاضي بن عباد ، واستمر الامر على ذلك النحو على عهد المعتضد الذي أصدر الامر سنة 464 هـ / 1069 م ، بالقاء خطبة الجمعة بدلا من إسم هشام الثاني (66) .

أما دور الشعر في الدعاية السياسية باسبيلية فأمر متفق عليه ولكن درجة تأثيره في الرجل العادي لم تكن أمر مؤكدا وقد ساهم مدح الحاكم على الصعيد السياسي ، وفي ترقية الشاعر ضمن وظيفته وفي تحسين حالته المادية التي ساعدته على أداء مهامه السياسية . وكان المستوى الادبي للشعر في عهد بني عباد راقيا ومتطورا ولا يكاد يكون مفهوما لدى غالبية الاشبيليين ورغم ذلك فقد كان الانتاج الشعري في قصر إشبيلية ضخما ، وخاصة في عهد المعتمد الذي كثر عنده عدد الشعراء . وقد كان الشعر في بعض الاحيان

66) « الذخيرة » . القسم 2، ج. 1، ص 37 .

عنصرا مهما إذ ساهم بطريقة غير مباشرة في شهرة الشعراء والوزراء باشبيلية · واستمر الانتاج الشعري في تمجيد المعتمد حتى بعد وفاته ، كما تثبت ذلك أبيات الرثاء لعبد الصمد وشعراء آخرين .

وربما كان الدور السياسي للشعر الاشبيلي أكثر فعالية في تزكية صورة الحاكم لدى غيره من ملوك الطوائف . فتشجيع الشعر في أقوى دول الطوائف كطليطلة وبطليوس أدى الى إحداث منابر للتعبير الادبي . وقد كانت لهذه المنابر في نفس الوقت أهداف سياسية أيضا ، وذلك بسعي بعض دول الطوائف الى اكتساب الصيت البعيد في ميدان الانتاج الادبي بغية التفوق على غيرها، وقد أدى الى منافسات أدبية بين الدول الطائفية ، فقد عم صيت بني الافطس جميع أنحاء الاندلس بفضل ديوان ابن عبدون في تمجيدهم . وإذا اعتبرنا أن إشبيلية كانت بالدرجة الاولى كعبة الشعراء ، وأن المعتضد والمعتمد كانا من فحول الشعراء الاندلسيين، فلا شك في أن مكانة إشبيلية في الشعر الاندلسي خلال القرن الهجري الخامس قد أثرت في أذهان الادباء عبر الاندلس كافة ، وساهمت في استكمال صورة إشبيلية بوصفها دولة طائفية رئيسية .

(8) ـ الخـاتمـة

لقد أدى تعقيد النظام الحكومي في عهد بني عباد باشبيلية الى تحمل أعباء مرهقة ، بسبب احتوائه على جهاز إداري ضخم تعددت فروعه تعددا جعل تسييره أمرا صعبا ، فقعد بالحكومة عن النهوض بدورها الصحيح في تدبير شؤون إشبيلية على مختلف مستوياتها .

ويبقى علينا أن نطرح مشكل صلاحية نظام الحكومة الاشبيلية لا من حيث حجمه وشكله فقط ، بل أيضا في مضمونه وجوهره . فهل كان النظام غير صالح في حد ذاته أم أن تطبيقه كان سيئا ؟ إن أي جواب عن هذا السؤال سيشتمل بالضرورة على درجة معينة من الاحكام التقييمية ، لان الحكم على قيمة أي نظام سياسي يفترض مقارنته بنظام آخر . وعلينا لمجانبة المقارنة أن نأخذ بعين الاعتبار فقط الجوانب التي تميز بها النظام السياسي الاشبيلي ، وتلك التي كان من الممكن أن تبرز . ومن الامثلة على الخاصية الاولى ، كما شرحنا في هذا الفصل ، أن سيطرة الحاكم على النظام السياسي كانت سيطرة مفرطة ، غير أنه يبدو أن هناك جوانب أخرى من النظام لم تحظ بالعناية الكافية . فلو كانت البيعة قائمة على الاستحقاق بدلا من الوراثة ، ولو لم تستغل خطبة الجمعة ومؤسسة الاوقاف لاغراض سياسية صرف ، ولو كانت اتصالات الموظفين السامين بالسكان الاشبيليين أوسع وأوثق ، وأخذوا مصالح هؤلاء بعين الاعتبار كهدف للسياسة الحكومية بدلا من جعله شرطا أساسيا لاستمرار النظام وبقائه ، لكان مصير دولة إشبيلية الطائفية غير المصير الذي انتهت إليه . ومع ذلك لا يمكن الجواب عن السؤال المتعلق بمدى صلاحية النظام الاشبيلي إلا بعد طرح سؤال آخر عما إذا كان بالامكان تبرير وجود الدولة الطائفية .

كان نظام حكومة إشبيلية شبيها بنظام بني أمية والمرابطين في ميادين عدة ، إلا أنه انفرد بخصائص معينة في عدة جوانب . فتوازي البنية السياسية والادارية في حكومة بني عباد وحكومة بني أمية يمكن توسيعه لشمل المضمون أيضا . فقد ورثت الحكومة الاشبيلية بعض الطاقات البشرية

بعض الطاقات البشرية والتقنية من عهد بني أمية . إذ لا شك أن إدارتها استكتبت عدداً كبيراً من الموظفين الذين عملوا سابقا في إدارة الخلافة بقرطبة . فاستمرار الفوضى والمجازر الشاملة بقرطبة عقب سقوط بني أبي عامر وبني جهور أدت الى تهجير أعداد ضخمة من أصحاب المهارة . ومن المحتمل أن تكون إشبيلية التي تمتعت بسلام نسبي على عهد بني عباد قد استجلبت القسط الاكبر من أولئك المهاجرين . وبرزت ظاهرة الهجرة بعد استيعابها فشكلت العمود الفقري للنظام السياسي العبادي. أما على المستوى الاداري السامي فقد هجرت بعض الشخصيات قرطبة، ومنهم ابن زيدون ، للالتحاق بقصور المعتمد بن عباد ، حيث أصبحت لديها ذخيرة ثمينة .

وإذا كانت بقايا إدارة بني أمية قد شكلت العناصر الاساسية التي طبعت النظام السياسي والاداري خلال حكم القاضي والمعتضد فقد اكتمل هذا النظام باتخاذه شكلا أكثر تعقيداً في عهد المعتمد حيث تأثر التطور الاداري بمراحل مسيرته السابقة إلى درجة العجز عن المحيد عنها . ورغم النهاية المشؤومة فان الادارة في عهد المعتمد قد تطورت فتحملت عبء أكبر دولة في الاندلس وأقواها . وربما كانت نهاية الادارة الاشبيلية نهاية الادارة الاندلسية الاصلية. إذ بعد انهيار دول الطوائف أصبح مصير الاندلس يقرر في الضفة الجنوبية للبوغاز . فبانتصار المرابطين اتخذ التنظيم الاداري بالاندلس اتجاها جديدا بالسير على نمط النظام المغربي كما يظهر ذلك في النص التالي :

« أما مملكة المسلمين في الاندلس فلا يخفى أنها في معنى بلاد المغرب . وفي كثير من الاوقات يملكهم ملوك المغرب الاقصى ، فالبضرورة إن ترتيبهم جاري على ترتيب بلاد المغرب (67) .

---

67) « صبح الاعشى » ، ج 5، ص: 271 .

2 - الجيش الاشبيلي

(1) تركيب الجيش الاشبيلي وعناصره السلالية

يبين التنوع السلالي في تركيب الجيش على عهد بني عباد الاهداف التي رسمت له ليسعى في تحقيقها . فأهم خصائصه وأبرز مميزاته ولاؤه المكين ومساندته المطلقة للحاكم وانصرافه عن أي مصدر آخر للسلطة السياسية . فبينما كان المعتمد يحظى على العموم بقبول الرعية الاشبيلية كان المعتضد لا يأمن أحداً ، بل لا يطمئن الى ولده . أما القاضي بن عباد فقد اضطر الى الاعتماد التام على جيشه لمواجهة الزعماء الاشبيليين المعارضين ولذلك نرى منذ نشأة الدولة العبادية اعتماد القاضي بن عباد على مساندة جيش نظامي لا يتعاطف مع العناصر المحلية المعارضة ، واشتمال الجيش على نسبة هامة من العناصر الاجنبية .

وإذا كان التركيب السلالي للجيوش في الانحاء الاخرى من الاندلس قد أدى الى سيطرة مجموعات تشكل أغلبية عرقية على قيادة الجيش ، فإن قيادته وتوجيهه المذهبي طيلة عهد بني عباد كان مردهما باستمرار الى الحاكم . ولو افترضنا وجود أي نوع من التضامن الجماعي ضدا على الحاكم في صفوف الجيش فان ذلك الشعور ظل مكبوتا لان الكسب المادي كان هو الدافع الاساسي لالتحام الجيش ووحدته . ثم إن معنويات الجيش ظلت مرتفعة نظرا لاستمرار الانتصارات العسكرية طيلة ذلك العهد ولذلك لم تكن هناك أمارة تدعو إلى التخوف والاحساس بانعدام الاستقرار إذا ما قارناه بالجو الذي عاش فيه الوزراء في البلاط الاشبيلي . كما أننا لم نقف على أي أثر للدسائس والمؤامرات من طرف الجيش الذي كان

تنظيمه تنظيما محكما . فولاء الجيش المطلق الحاكم الاشبيلي لم يكن في وقت من الاوقات مهددا بأي تكتل قبلي أو بولاء لزعماء أو مجموعات خارجية. وكانت القرارات السياسية الواقعيـة المجربـة لحكام بني عباد مما ضمن طاعة السكان التامة لحاكم إشبيلية من جهة ، وكذلك ولاء الجيش الذي كانوا يعتمدون عليه كثيراً من جهة أخرى، وخاصة بهدف انعاش سياستهم الخارجية ، فظل ذلك الجيش يتمتع بحيوية مستمرة .

وقد ساهم التنوع السلالي في حصر التمرد الداخلـي وضمان وحدة الجيش . وكان المنصور بن أبي عامر قد أعاد تنظيم الجيش الذي كان مؤلفا على أسس قبلية ، وقسمه الى مجموعات تعرف بالجنود (68) . وبهذه الطريقة تمكن المنصور من القضاء على ولائهم القوي لزعمائهـم القبليين ، وجند عدداً كبيراً من المرتزقة ، وخاصة من بربر المغرب ، حيث سبق للمنصور أن عمل قائدا على الجيش خلال حكم الخليفة الحكم الثاني . وقد اختلفت

---

68) يصف الامير عبد الله بن بلقين الاصلاحات التي أدخلها المنصور بن أبي عامر على الجيش الاندلسي كما يلي :

1 ـ أدخل . . . تنوعاً عرقياً في تركيب الجيش بهدف القضاء على أي تمرد لمجموعة معينة من طرف المجموعات الاخرى الباقية .

2 ـ عزز المنصور جيشه بالمزيد من الجنود، خصوصاً البرابرة المغاربة ويصرح عبد الله أن جده بادس كان يوجد من بين هؤلاء القواد حيث أنه انضم الى صفوف المنصور بدافع عقيدته القوية ورغبته في محاربة الملك المسيحي (« كتاب التبيان » ، صفحتا 16 ـ 71)؛ وفرض المنصور ضريبة خاصة على الاندلسيين الذين امتنعوا عن المشاركة في المعارك واستعمل مدخولها في تغطية تكاليف ومصاريف الجيش (نفس المصدر، صفحات 16 ـ 18) .

جيوش بني عباد عن جيوش بني أمية وجيوش المنصور في عدة نواحي . ولا نعثر في مصادرنا على أية علاقة تشير الى وجود ولاء قبلـي من طرف الجنود لرؤسائهم . وإذا كانت هناك مجموعة معينة فـي الجيش الاشبيلي قد بسطت سيطرتها، فانه لا توجد أية إشارة للعواقب التي تنجم عن اختلال التوازن. هذا ولم تؤد الفوارق السلالية داخل الجيش الى تكوين مجموعات متلاحمة. فالخليط العرقي لا ينعكس على تجنيد العبيد والمرتزقة الاجانب فحسب ، بل وحتى على التركيب الاجتماعي الاشبيلي وأدى عامل التنوع السلالي الى منع كل محاولة تمردية بطريقة منسجمة، إذ جعل كل محاولة للثورة من طرف مجموعات منفردة داخل الجيش . أمراً خطيراً .

ويبدو أن البربر لم يكونوا موجودين داخل الجيش الاشبيلي أو لم يشكلوا فيه على الاقل عنصرا مهما . واعتمد بنو عبـاد علـى تلك الظاهرة في سيطرتهم على الحكم والقضاء على هيمنة حكم بنـي حمـود الاجنبي . ولو ضم جيش القاضي محمد بن عباد جنـوداً من البربر بعد انتصاره على جيش بني حمود لطرح أمامنا تساؤلات منها :

أ) - هل كان من الممكن تحويل ولاء الجنود البربر العميق لحكام بني حمود الى ولائهم لبني عباد ؟ إن انتصارات بني حمود العسكرية في كل من إشبيلية وقرطبة تشير الـى عكس ذلك .

ب) - هل كان ممكنا كبح طموحات البربر داخل الجيش الاشبيلي بعد أن استغلهم القاضي بن عباد في معارضته لحكم محمد بن حمود باشبيلية؟

ج) - هل كان ممكنا منع تطور روابطهم السلاليـة والسياسية مـع قادة البربر فـي المغرب ، وفي أنحاء أخـرى من الاندلس كمالقة حتى لا

تصبح خطراً على حكام بني عباد ؟ بل هل كان بامكان القاضي بن عباد أن يجند نفس الجنود الذين فشلوا في منعه من إقامة حكمه باشبيلية ؟ من المتفق عليه ان الاشبيليين نجحوا في مقاومتهم لفصائل القاسم بن حمود بعد طرده من قرطبة (69) . ثم إن الوحدات البربرية بقيادة ابنه محمد قد طردها الاشبيليون من مدينتهم (70) . ومما يؤكد احتمال انصراف ولاء الفصائل البربرية نحو وجهة أخرى أن جيوش القاسم بن حمود انضمت الى صفوف يحيى بن حمود ، حاكم مالقة بعد انكسار القاسم بن حمود وابنه محمد باشبيلية .

د) ـ هل كان بامكان سكان إشبيلية أن يقبلوا الجنود البرابرة ضمن جيش بني عباد بعد أن رفضوهم بوصفهم عمودا فقريا لنظام بني حمود؟ لقد أدت مشاركة البربر في تخريب قرطبة الى خلق جو من الخوف لدى الاشبيليين من أن تلقى مدينتهم نفس المصير (71) .

لقد عزز حكام بني عباد سيطرتهم على الجيش بتعيين أبنائهم قادة عسكريين . ورغم ذلك لم يتمكن المعتضد من حل مشاكل قيادة الجيش

---

69) «الذخيرة» ، القسم 2 ، ج . 1 ، ص 3485 و «البيان المغرب» ، ج . 3 ، صفحتا 181 ـ 184 و« المعجب » ، ص . 81 و « المغرب في حلى المغرب » ، ج . 2 ، ص . 46 .

70) نفس المصدر .

71) خبره سكان قرطبة حكام بني حمود الذين عاملوهم معاملة قاسية . وأدى استبداد علي بن حمود في النهاية الى اغتياله («الذخيرة» القسم 1، ج. 1، صفحات 100-102). كما أطاح القرطبيون بحكم اخيه القاسم للمرة الثانية سنة 414 هـ / 1023 م . فخربت جيوشه المناطق التي تجاور قرطبة قبل أن تتوجه نحو إشبيلية («الذخيرة» القسم 1، ج. 1، ص. 488).

الاشبيلي بالاعتماد على أبنائه في هذه المهام (72) . ولقد برز أبناء المعتمد في أداء هذه المهمة بفعالية أكبر ، إذ عين المعتمد بن عباد عدداً من أبنائه قادة عسكريين ونصبهم عمالاً له .

فما هي المجموعات التي تكون منها جيش بني عباد يا ترى ؟ . يستحيل تحديد الحقيقة للتركيب السلالي لجيش إشبيلية ، إلا أنه توجد قرائن على تعدد أجناسه . ويبدو أن جيش بني عباد استمد قوته من صنفين من الجنود لم تكن لهم انتماءات عاطفية ولا ايديولوجية ولا سياسية ، وهما المرتزقة والعبيد (73) .

دفع استياء أهل إشبيلية من المرتزقة والعبيد من جهة ، وشعورهما بانعدام الاستقرار في بلاد أجنبية من جهة أخرى، الى اعتمادهم على القوة

---

72) فعلى سبيل المثال ، كان رفض ابن المعتضد، إسماعيل، قيادة الجيش الاشبيلي في الهجوم على قرطبة سبباً في اغتياله من قبل أبيه . ومن جهة أخرى ، بعث المعتضد ابنه محمد ، الذي اصبح المعتمد فيما بعد ، على رأس جيش إشبيلي لحصار مالقة ، وبعد فشله في هذه المهمة طلب المعتمد الغفران من أبيه ، في أبيات شعرية (« قلائد العقيان » في كتاب «تاريخ بني عباد» لرينهارت دوزي :
Reinhart P. A. Dozy, *Historia Abbadidarum*, vol. 1, p. 59 .

73) يصف لنا ابن حيان كيف استعمل القاضي محمد بن عباد ثرواته الكبيرة في تقوية جيشه وشراء العبيد وجلب المرتزقة («الذخيرة» ، القسم الثاني ، ج . 1 ، صفحتا 15-16 و« البيان المغرب » ، ج . 3 ، ص . 55 و « أعمال الاعلام » ، ص . 176) . هذه الاشارة هي أوضح سبيل يمكننا معرفة أحوال الجنود الاشبيليين المرتزقة . كما شارك جنود الفونسو السادس المسيحيون في المعارك الى جانب الجنود الاشبيليين، إلا أن نسبة الجنود المسيحيين في الجيش الاشبيلي ليست واضحة .

ولم يكن الامير عبد الله شخصية معاصرة فقط، بل شارك في عدد من الاحداث التاريخية التي يناقشها . لقد ألف عبد الله كتابه في المغرب بعد احتلال يوسف بن تاشفين لدول الطوائف. ولذلك كان عبد الله مقلا فيما قاله عن يوسف، ولكنه استطاع أن يناقش تاريخ غرناطة وعلاقاتها بالدول الطائفية الاخرى مثل اشبيلية بحرية تامة. ولا تنحصر قيمة كتاب «التبيان» في كونه مصدرا مهما للمعلومات، فعبد الله بن بلقين يقدم لنا أفكاره والدوافع الخفية وراء قراراته، بل انه يذهب إلى تحليل سلوك وعقلية خصومه أمثال وزير المعتمد بن عباد، ابن عمار، أو ألفونسو السادس. وينقل أحيانا اقتباسات من الشخصيات التي يشير اليها مثل رسل ألفونسو السادس، سيسناندو ، دافديث وألفا فانييث وبيدرو أنسوريث. وأخيرا فرغم اهتمام عبد الله أساسا لتاريخ غرناطة فانه يناقش أبرز الاحداث التاريخية في القرن الخامس الهجري مثل احتلال ألفونسو السادس لطليطلة في سنة 478هـ ـ 1085 م. ومعركة الزلاقة في سنة 479هـ ـ 1086م التي شارك فيها.

وللمعلومات الواردة في المصادر المسيحية إسهام كبير في تكميل أو مطابقة أو معارضة المعلومات الواردة في المصادر الاسلامية أو العربية ويتمكن المؤرخ من خلال اختلاف نظرة كل منها اختبار المادة ومعالجة المشاكل المختلفة بموضوعية أكثر، ومع الاسف الشديد فإن الوقائع التاريخية المسيحية (كرونيكاس) التي اهتمت بالقرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) قليلة ولا يمكن استعمالها إلا في نطاق محدود، ولم تهتم هذه الاخيرة بالمجتمع الاندلسي الاسلامي في حد ذاته بل انحصر ذكرها لهذا المجتمع في إطار علاقاته مع الحكام والقادة المسيحيين أمثال ألفونسو السادس و«السيد القنبياطور» رودريغو دياث. ولكن هناك روايتان تاريخيتان

في حالات تمرد بعض كتائبه المقيمة بحصون نائية . وكانت هذه الوضعية تتناقض مع حالة جيش الامير عبد الله بن بلقين الذي كان سلوك بعض قادته مطبوعا بالاستقلال التام ، ولو أنهم حافظوا على ولائهم الرمزي للحاكم.

وقد فشل كل من ابن عمار وابن رشيق في كسب مساندة جيشين كان بإمكانهما التفوق على الجيش الاشبيلي . ذلك أن ألفونسو السادس رفض مساندة ابن عمار ضد المعتمد . إذ كانت له معه معاهدة لحمايته أو على الاقل لعدم الاضرار به مقابل دفعه الجزية (75) . ومن جهة أخرى يمكن فشل ابن رشيق في امتناع يوسف بن تاشفين عن مساعدته ، معتبرا تمرده غير شرعي وليس له ما يبرره (76) . وبالاضافة الى ذلك فان من العوامل التي مكنت ابن رشيق من المحافظة على سيطرته بمرسية في تلك الظروف تهديده للمعتمد بالانضمام الى صفوف ألفونسو في وقت وصلت فيه التفرقة بين الطوائف درجة استمرت حتى خلال حصارهم لحصن لييط (Aledo) الذي كان تحت سيطرة المسيحيين . ولقد استطاع يوسف بن تاشفين خلال فترة معينة بسبب موقفه من ابن رشيق أن يوحي لملوك الطوائف بأنه لا ينوي التدخل في شؤونهم الداخلية ، فضلا عن التفكير في احتلال ممالكهم . وإذا اعتبرنا هذه الحالة في إطار المجموعات السلالية وجدنا أن يوسف بن تاشفين، وهو البربري الاصل، قد رفض مساندة متمرد على المعتمد ابن عباد ، كما رفض ألفونسو السادس، المسيحي، مساندة متمرد آخر على

---

75) نفس المصدر ص . 70 .

76) نفس المصدر ، صفحتا 111 ـ 112 .

حليفه المسلم . ويؤكد هذان المثالان التكتلات التي استوعبت مللا وأجناسا مختلفة بالاندلس . إلا أن ألفونسو السادس، ثم يوسف، اتخذا مواقف معادية للمعتمد فيما بعد لأسباب أخرى .

ثم إن ولاء الجيش الإشبيلي للمعتمد ، وحتى عند نهاية حكمه ، يبين موقفه الصارم من هجمات الجيش المرابطي بقيادة المسمى أمير سير (77) . فلقد واجه المعتمد جيش يوسف الى النهاية . خلافاً لبعض ملوك الطوائف كعبد الله بن بلقين الذي فضل مفاوضة المرابطين لاستسلامه (78) . ولم يجد المعتمد نفسه في مثل موقف عبد الله المتدهور ، لانه كان قد شرع في انتهاج سياسة تشجيع واستخدام أبنائه قادة عسكريين (79) . فقد جاء ذكر المعتمد بن عباد ، مثلا ، في كتاب « الحلل الموشية » وهو يناقش إبنه الرشيد أبا الحسن عبيد الله في السياسة الواجب سلوكها ضد ألفونسو السادس ، وكذلك في مسألة استغاثة ملوك الطوائف بيوسف بن تاشفين عند ما قرر ألفونسو السادس اتخاذ سياسة تعسفية ضدهم بعد احتلاله لطليطلة في سنة 478 هـ . / 1086 م . (80) . وهناك مثال أوضح يبين مقاومة الجيش الاشبيلي الشديدة للمرابطين . فبعد هزيمة المعتمد سجنه يوسف بن تاشفين بأغمات . حيث جاءه خبر مصرع ولده عبد الجبار نتيجة إصابته بسهم لما

---

77) نفس المصدر ، ص . 170 .

78) نفس المصدر ، صفحات 151 ـ 159 .

79) فعلى سبيل المثال ، أرسل ابنه الراضي ليقوم مقام ابن رشيق كقائد على مورسية الا أنه فشل في القيام بهذه المهمة (« كتاب التبيان » ، ص . 112) .

80) « الحلل الموشية » ، صفحتا 31 ـ 32

المادي والعنف الغريزي (10) ونجد انعكاسا بالغا لهذا العنف في المصادر التاريخية، وبالرغم من البعد المثالي السائد في الملحمة فإنها لا تعارض الواقع التاريخي لتلك الفترة لان الاندفاع القوي للكسب المادي الذي تعكسه الملحمة كان عنصرا محركا أساسيا وراء ديناميكية السيد وأتباعه (11) !!.

ومع ذلك فبدلا من أن تعكس الملحمة هذا العنف وهذا الشره بكيفية فجة فإنها اعتبرتها داخل إطار الشرعية والقداسة نظرا لمساندة الملك ألفونسو

---

10) فعلى سبيل المثال، تعتبر القوة من جملة خصائص السيد الباهرة كما يعتبر استعمال القوة ضد المسلمين واجبا خلقيا ، أما العنف فكان حاضرا في وصف احتلال السيد لحصون مختلفة مثل كاستيخون (*Castejon*) والكوثر (*Alcocer*) واتيكا (*Ateca*) وتيرير (*Terrer*) (ملحمة السيد ، 26 - 17 .Poema de Mio Cid, *pp*) وكان يعتمد على العنف اللفظي في التعبير عن الشعور الفياض للمشاركين في محاكمة أميري كاريون (نفس المصدر ، صفحات 96 - 103) ، بل وحتى السيوف التي يحملها أصحاب السيد وصفت « بالسيوف المذبة » (Espadas dulces e Tajadores) (نفس المصدر ، ص . 94) .

11) فعلى سبيل المثال ، يقسم السيد عادة الغنائم المحصل عليها من المسلمين على رجالته في مناسبات كالدفاع عن بلنسية ضد ملك إشبيلية (ملحمة السيد 41 - 40 .Poema de Mio Cid, pp) ولقد حصل السيد على مساندة الملك القشتالي له من جديد بعد أن كان غاضبا عليه وذلك بمناسبة تقديم السيد هدايا للملك المذكور منها مائة خيل بعثها له بعد دفاعه عن بلنسية (نفس المصدر ، صفحتي 41 - 42) وعند محاكمة أميري كاريون طلب السيد منهما إعادة السيفين اللذين كان قد وهبهما إياهما واللذان يحملان إسم « كولادا » (Colada) و « تيثون » (Tizón) كما طلب منهما مبلغا ماليا قدره ثلاثمائة مارك كان قد منحها لهما أيضا ، وأخيرا طلب العدالة لابنتيه اللتين أضر بهما الاميران (نفس المصدر ، صفحات 96 - 97 - 99) .

المسيحيين . وكان الحصار على المدن يضرب طبق النمط المعهود ، فيتعين على المهاجم أن يجتاز الحواجز الدفاعية .

وكانت الحروب في الاندلس خلال القرن الهجري الخامس تتميز ببطئها نظراً لان مدتها كانت محدودة ، ثم لقلة عدد المشاركين فيها نسبياً ، إذ كانوا يعدون بالمآت . ولذلك كانت مدة الحصار تتراوح بين الشهور والاعوام . وقد اتخذت اجراءات مختلفة لحماية المدن والحصون . ويزودنا الامير عبد الله بن بلقين بمعلومات قيمة عن الطريقة التي مكنت الحصون من الحفاظ على الاكتفاء الذاتي ومن القدرة على مقاومة المهاجمين خلال أشهر وأعوام عديدة ، وذلك ببناء الاسوار الضخمة وحفر مستودعات للمياه للاعانة في الدفاع عن المدن والحصون (84) . كما بنيت المطاحن والمخازن لادخار المأكولات الواردة من القرى المجاورة . وبهذه الطريقة تمكنت الحصون من الاستمرار في المقاومة لفترة ناهزت السنة في بعض الاحيان (85) واستعملت في الدفاع عن الحصون أسلحة مختلفة منها السيوف والدروع والرماح والرعادات (86) .

وكان دور الجيوش بالاندلس يتنوع حسب الظروف ، فرغم أن المعارك كانت تنظم حسب النمط التقليدي بالتقاء الجمعين في ساحة القتال ، فان الحروب الاندلسية كانت تتخذ في غالب الاحيان شكلا غير منظم ولا متنوع .

---

84) « كتاب التبيان » ، ص . 120 .
85) نفس المصدر .
86) نفس المصدر .

فلم تكن هناك قوانين يحتذى بها ، إذ أصبح الخداع والمفاجأة يشكلان القاعدة ، لا الإستثناء . واعتمدت الفئة المحاصرة للحصون على الاشخاص الذين كانت لهم دراية ومعرفة بالحصن والمدينة بداخلهما . فقد أخبر ابن أضحى جيشي المعتمد بن عباد وألفونسو السادس عند محاصرتهما المشتركة لغرناطة بنقط الضعف والجهات السهلة الاقتحام ، وذلك بعد ما توصل وزير المعتمد ، ابن عمار ، إلى الإتفاق مع ألفونسو على إخضاع المدينة المذكورة (87) . كما اعتمد نجاح ألفونسو في استيلائه على طليطلة على معرفته بتخطيط المدينة الذي حصل عليه لما كان ضيفاً على ابن ذي النون .

وكانت الحروب بالاندلس خلال القرن الهجري الخامس مليئة بالأمثلة على استخدام الخداع والغش والحيلة والهجمات المفاجئة ، سواء كان ذلك في المعارك أو في العلاقات اليومية بين الأعداء ، بل وحتى بين الحلفاء أنفسهم . وأبرز مثال سبق لنا ذكره في اغتيال المعتضد بن عباد لملكين طائفيين عند ما كانا في حمام قصره . وهجوم ألفونسو السادس ، فجأة وغدراً ، على قوات المسلمين في معركة الزلاقة مثال آخر لاتخاذ الخداع وسيلة في محاربة العدو (88) .

---

87) نفس المصدر ، ص ، 69 .

88) كان ألفونسو السادس قد اتفق مع يوسف بن تاشفين على عدم الشروع في المعركة قبل يوم الاثنين ، ومع ذلك لم يثق يوسف بالملك القشتالي فأمر القسم الاكبر من جيشه بأن يستعد للحرب يوم الجمعة . وفعلا شرع الفونسو في تقدمه نحو الاندلسيين يوم الجمعة في وقت الصلاة معتقداً أن الجيش الاندلسي والمغربي كان منهمكاً في الصلاة . ولكن جنود يوسف قاموا بعد ذلك بهجوم مضاد من ناحية الوراء فكانت معركة الزلاقة . (« المعجب » ، ص . 134 و « الروض المعطار » ، صفحتا 90 - 91) .

ويتعين علينا لكي نعرف دور وسلوك الجيش الإشبيلي معرفة أفضل أن نتصوره داخل نطاق الحالة العسكرية العامة في الأندلس ، فلم يكن المجتمع الإشبيلي موجهاً توجيهاً عسكرياً ، خلافاً لما كانت عليه المجتمعات في الشمال المسيحي التي كانت منظمة تنظيماً عسكرياً من جهة ، وكذلك في المغرب من جهة أخرى ، فنحن نجد ، مثلا ، خلال حملات المنصور بن أبي عامر على المسيحيين أن الفلاحين رفضوا المحاربة في صفوف جيشه ، ففرض عليهم بدل ذلك تقديم جزء من محصول زراعتهم مقابل حمايته لهم(89).

وتوضيحاً لذلك نقول إن المجتمعات المسيحية في شمال إسبانيا خلال القرن الهجري الخامس كانت في تأهب مستمر للحرب . وهناك من يعتقد أن لفظ قشتالة (Castilla) التي كانت أقوى الممالك المسيحية مشتق من عدد القشل التي كانت تؤسس لحماية سكان الحصون من الهجمات . وكانت المجتمعات المسيحية شبه إقطاعية فبلغت درجة التعسف العسكري قمتها خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، وذلك أن النبلاء والفرسان في مملكتي ليون وقشتالة أيدوا وساندوا تعسف ألفونسو العسكري المتزايد ضد دول الطوائف . وكان بعض القادة العسكريين وأبرزهم وأدهرهم « رودريغو دياث » المعروف بلقب السيد (El Cid) يقومون بحملات عسكرية على دول الطوائف . ومن جهة أخرى كان هناك المرابطون الذين مكنتهم طبيعتهم الصلبة كمحاربين

---

89) يشير الامير عبد الله الى أن الفلاحين الاندلسيين اعتذروا لعدم مشاركتهم في معارك المنصور بسبب قيامهم بخدمة أراضيهم . ولكن حسب عبد الله « لم يكن الاندلسيون يميلون الى الحرب . فقد وافق الاندلسيون بدل ذلك على أداء ضريبة منتظمة أو إعطاء نسبة من محصولهم الفلاحي مساندة للجيش (« كتاب التبيان » ، ص 17) .

من التحول من الصحراء ليصبحوا سادة المغرب والأندلس على السواء. وهذا لا يعني أن الجيش لم تكن له أية مكانة أو دور في المجتمع الاندلسي. فرغم أن الاندلسيين لم تكن لهم نفس الميول الحربية التي كان يعرف بها المسيحيون والمغاربة، فقد ألزمهم انشقاق الاندلس خلال القرن الهجري الخامس بتكوين الجيوش والإعتماد عليها سواء لدرء عدوان الملوك والفرسان المسيحيين أو لصد هجمات ملوك الطوائف الآخرين. أما فيما يخص دول الطوائف بذاتها داخل الاندلس فإن أقواها قد استعملت الجيش للاستيلاء على الأراضي والحصون، بالإضافة الى الغنائم، بالهجوم على دول الطوائف في النطاق الدفاعي من أنظمتها السياسية والاجتماعية. وعندما تصاعد خطر مملكة قشتالة لم تجد دول الطوائف نفسها في موقف القدرة على الإنفراد بالدفاع، بينما استحال توحيدها ولو تحت إشراف يوسف بن تاشفين (90). وكانت مكانة الجيش محدودة في المجتمع الاندلسي نظراً لما كان للفلاحة والتجارة من دور في الحياة الإقتصادية. ولم تكن الحرب ضرورية لاستمرار وجود دول الطوائف رغم أن الحروب كانت تستغل من طرف السياسيين والقادة العسكريين لخدمة مصالحهم الشخصية. واستنتاجنا الأخير هو أن الجيش قد فشل في القيام بوظيفته في حماية إقتصاد دول الطوائف من التخريب الذي كانت تباشره القوات الخارجية. ومع استمرار النهب وانخفاض الإنتاج ازدادت مطالب الجيش فنتج عن ذلك أن المجتمع في دول الطوائف لم يعد قادراً على تحمل عبء الضرائب المرهقة.

---

(90) يصف الامير عبد الله بن بلقين، وهو أحد المشاركين في حصار ليط (Aledo) كيف استحال على يوسف أمر التوفيق بين الخلافات المتعددة فيما بين ملوك الطوائف (منها خلاف المعتمد بن عباد والمعتصم حاكم المرية وخلاف عبد الله بن بلقين وأخيه تميم) («كتاب التبيان»، ص. 118).

3 ـ المؤسسات الدينية والقانونية

(1) ـ المذهب المالكي بالأندلس

(أ) ـ الأسس الإجتماعية والسياسية للمذهب المالكي بالاندلس

كان أول من أدخل مذهب مالك بن أنس الفقهي إلى الاندلس تلامذته كزياد بن عبد الرحمن وقرعوس بن العباس والغازي بن قيس ، ثم جاء بعدهم آخرون (91) . فالمذهب المالكي الذي جعله الخليفة هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن مالك بن مروان المذهب الرسمي بالاندلس سنة 170 هـ / 786 م . قد ازداد رسوخاً خلال القرن الهجري الخامس (92) رغم وجود منافسة ضعيفة من طرف المذاهب الاخرى كالمذهب الحنفي والحنبلي والداوودي (93) . وقد جرى تطبيق المذهب المالكي

---

91) « ترتيب المدارك » ، ج . 1 ، ص . 26 .

92) نفس المصدر ، ص . 27 . انتشر المذهب المالكي بين القرن الثالث والخامس الهجري في الاندلس كما انتشر مؤقتاً أو نهائياً في كل من الحجاز والبصرة ومصر وإفريقيا والمغرب الأقصى والاندلس وصقلية والسودان (إفريقيا الغربية) وفارس واليمن وسوريا وبعض أقطار خراسان مثل قزوين وأبهر ونيسابور (نفس المصدر ، ص . 65) .

93) نفس المصدر ، ص . 27 . وصل مذهب أبي حنيفة المغرب والاندلس بدرجة محدودة خلال المراحل الاولى من انتشاره (نفس المصدر ، ص . 65) ، وطبق المذهب الشافعي الى حد ما في الاندلس خلال القرن الهجري الثالث (نفس المصدر ، ص 66) .

ومن بين المذاهب الاخرى الاقل أهمية والتي نافست المذهب المالكي في الاندلس المذهب الاوزاعي الذي تلاشى مبكرا في القرن الثالث الهجري (نفس المصدر) . أما مذهب داوود أو المذهب الظاهري فكان ايضا من المدارس التي ظهرت في الاندلس . ومع ذلك فرغم إحياء الفقيه علي بن حزم للمذهب الظاهري إلا أنه ظل في مرحلته التكوينية خلال القرن الخامس الهجري ، ويمكننا أن نستنتج من كل هذا أن المذهب المالكي احتكر مجال القانون في الاندلس خلال عهد دول الطوائف ليصبح أكثر نشاطا وفعالية تحت ظل المرابطين .

بإشبيلية في القرن الخامس الهجري كما كان الشأن في عموم الاندلس .
وتفسر الأسس الإجتماعية والسياسية للمذهب المالكي مدى انتشاره . وبفضل مساندة الدولة المطلقة أصبح المذهب المالكي المذهب المفضل وذا الإمتياز الكبير ابتداء من سنة 170 هـ / 785 م فظل على هذه الحظوة طيلة عهد دول الطوائف الى درجة أدت الى احتجاج المنتمين لمذاهب أخرى ومنهم ابن حزم . وإذا كان لا يمكن إنكار دور الدولة في نشر المذهب المالكي بالاندلس فإن هذا الدور لم يكن إلا أحد العوامل المتعددة التي أدت إلى نجاحه . فظهور العلماء كطبقة قوية دافعت من المذهب المالكي وضمنت تطبيقه التام كان حدثاً هاماً . ذلك أن الدرجة العليا من النفوذ السياسي الذي حصلت عليه هذه الطبقة عن طريق احتكارها للسلطة القضائية لم تكن ممكنة إلا بفضل صيتها الحسن عند الجمهور . وكان القضاء يجلب موظفيه من جميع الفآت الإجتماعية نظراً لانتشار التعليم المجاني بالاندلس . وكان نشاط الدعاة وحيويتهم مما حقق المساندة الشعبية للمذهب المالكي خلال عهد دول الطوائف . وهكذا نرى أن مساندة الدولة للمذهب المالكي لم تكن الدافع الوحيد لانتشاره ومساندة الجمهور له .

يقدم القاضي عياض (476 هـ / 1084 ــ 544 هـ / 1149 م .) اللائحة الآتية للمؤلفين الاندلسيين وغيرهم من الذين ألفوا كتباً تتعلق بـ « فضائل مالك ومناقبه وأخباره » (94) :

(94) «ترتيب المدارك» ، ج . 1 ، ص . 8 .

1) القاضي أبو عبد الله التستري المالكي .
2) أبو الحسن بن فهر المصري .
3) أبو محمد الحسن بن إسماعيل الضراب .
4) القاضي أبو جعفر بن محمد الفريابي .
5) أبو بشر الدولابي .
6) أبو العرب التميمي .
7) القاضي أبو الحسن المنتاب .
8) أبو علاثة محمد بن أبي غسان .
9) أبو إسحاق ابن شعبان .
10) الزبير بن بكار القاضي الزبيري .
11) أبو بكر أحمد بن محمد اليقطيني .
12) أبو نصر بن الحباب الحافظ .
13) أبو بكر ابن رازويه .
14) القاضي أبو عبد الله البرقاني .
15) أبو محمد الجارود .
16) الحسن بن عبد الله الزبيدي .
17) أحمد بن مروان المالكي .
18) القاضي أبو الفضل القشيري .
19) أبو عمر المغامي .
20) أحمد بن رشدين .
21) أبو محمد بن صالح الأبهري .
22) أبو بكر ابن اللباد .

23) أبو محمد عبد الله بن أبي زيد .
24) أبو عمر بن عبد البر الحافظ
25) القاضي أبو محمد بن نصر .
26) أبو عبد الله الحاكم النيسابوري .
27) أبو ذر الهروي .
28) أبو عمر الطلمنكي .
29) أبو عمر بن حزم الصدفي .
30) ابن الإمام التطيلي .
31) ابن حارث القروي .
32) القاضي أبو الوليد الباجي .
33) ابن الحبيب.
34) أبو مروان بن الأصبغ القرشي النقيب (95) .

إن المستوى الرفيع والعدد الكبير لدعاة المذهب المالكي اقترنا بطول سيطرته على ميدان القضاء بالأندلس خلال القرون الثالث والرابع والخامس . ونجد كمثال على استمرار سيطرة هذا المذهب أن من بين الفقهاء والمؤلفين البارزين المذكورين أعلاه من عاش في قرون مختلفة فهناك الزبير بن بكار القاضي الزبيري (96) الذي توفي سنة 256هـ / 869م.

---

95) توجد اللائحة الكاملة المؤلفين في المذهب المالكي في كتاب « ترتيب المدارك » ج . 1 ، صفحات 9 ـ 12 .

96) نفس المصدر ، ص . 10 و «الديباج» ص : 116 .

وابن الامام التطيلي (97) الذي توفي سنة 238هـ / 852م ثم القاضي أبا الوليد الباجي الذي توفي بعدهما بقرنين ، أي في سنة 474 هـ ـ 1081 م .

ثم إن وفرة الادب المالكي خلال القرنين الثالث والرابع تشير إلى أن الفقهاء الأندلسيين في القرن الهجري الخامس ، بما فيهم فقهاء إشبيلية ، قد توفرت لديهم أعداد كثيرة من المصادر التي عززتها مصادر أخرى من الشرق كالمدينة واليمن ومصر وإفريقيا (98). فالمؤلفات المالكية التي أخرجها الفقهاء الأندلسيون والمغاربة استمرت في الوجود طيلة القرن الهجري الخامس، حتى توجت في القرن السابع بكتاب القاضي عياض الجامع «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك» . فهذا الكتاب يزودنا بتراجم ومؤلفات العلماء والفقهاء المالكيين إلى حدود القرن السابع الهجري عند ما شرع الموحدون في قمع المذهب المالكي واضطهاد فقهائه في المغرب والأندلس . ولما كان القاضي عياض قد درس أهم المؤلفات المالكية في القرن السابع عند ما ألف كتابه «ترتيب المدارك» ، فإن هذا المؤلف يعكس ضمنيا تأثير عدد كبير من المصادر التي اعتمدها الأندلسيون في القرن الهجري الخامس ، وقد توخى القاضي عياض في الجزء الأول من كتابه الدفاع عن

---

97) «ترتيب المدارك» ، ج . 4 ، 10 و«الديباج» صفحات 154 ـ 156 .

98) يصنف القاضي عياض في كتابه «ترتيب المدارك» العلماء المالكيين الذين تطرق للحديث عنهم في شكل «طبقات» ؛ ويبدو أن هذا التصنيف مبني على مقدرتهم العلمية ومركزهم القضائي ، وقد وضع القاضي عياض الشخصيات المذكورة في «طبقة» معينة بحسب أصولهم تحت العناوين التالية : أهل المدينة وأهل اليمن وأهل المغرب وأهل مصر وأهل إفريقيا وأهل الاندلس .

مالك ومذهبه. ويعطي مالك أهل المدينة مقاما خاصا كما يتضح من رسالته الى الليث بن سعد (99). ويخصص القاضي عياض عدة أقسام من كتابه للدفاع عن الاولوية التي يجب إعطاؤها لاهل المدينة، حيث أن هذا المبدأ عنصر انفرد به المذهب المالكي.

أما ثقافة المفكرين المالكيين فكانت خصبة. تثبت ذلك وفرة الادب المالكي الذي انتشر بالاندلس خلال القرن الخامس الهجري. فقد كان كتاب موطأ مالك بن أنس والدروس التي أخذها تلامذته عنه والمعروفة بالمدونات (كمدونة ابن القاسم) مراجع أساسية للفقهاء المالكيين بالاندلس والمغرب. ثم إن هناك أمثلة لاشبيليين ألفوا دراسات حول مواضيع عديدة تتعلق بمذهب مالك وبالفقهاء المالكيين البارزين وبموطأ مالك. وقد قدم ابن بشكوال المؤلفين الاشبيليين الذين درسوا هذه المواضيع وهم :

(1) أبو عمر أحمد القاضي الاموي المتوفى سنة 420هـ / 1029م. (100).

(2) أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن حارث (377 هـ / 987 م - 421 هـ / 1030 م) (101).

---

99) يوجد النص الكامل لهذه الرسالة في كتاب «ترتيب المدارك»، ج 1، ص. 48. وربما حاول القاضي عياض أن يؤكد صحة ما ادعاه الامام مالك بشأن أهل المدينة فنقل جواب الليث بن سعد («ترتيب المدارك»، ج. 1، ص. 44).

100) الاموي هو مؤلف كتاب «التحقيق في سفرين» و «المحتوى» (في 5 أجزاء) و(«كتاب الصلاة»، ج 1، ص. 44).

101) الحارث هو مؤلف كتاب «الانتقا» في أربعة أسفاره (نفس المصدر، ص. 104).

(3) أبو عثمان سعيد بن يحيى التنوخي (ولد سنة 426هـ . / 1034 م . وتوفي وسنه حوالي 70 سنة) . (102) .

(4) أبو محمد عبد الله بن أحمد (ولد سنة 497هـ / 1103م) . (103) .

(5) أبو محمد عبد الله (444هـ. / 1052م. ـ 522هـ. / 1128م.) . (104) .

(6) أبو الحكم العاصي بن خلف المقري. (المتوفى سنة 470هـ. / 1070م) (105).

(7) محمد بن أحمد اللخمي الباجي (356هـ. / 966م. ـ 431هـ. 1039م).(106).

ورغم ذلك فمن المحتمل أن يكون الفقهاء المالكيون الإشبيليون قد اعتمدوا أكثر على مؤلفات أندلسيين من أنحاء أخرى والتي كانت تفوق ما صدر بإشبيلية . ولا شك أن القرطبيين كانوا أخصب وأدق المؤلفين الأندلسيين . فكان لمؤلفاتهم أثر عميق في الأندلس وخارجها (107) .

---

102) للتنوخي مؤلفات في القراءات ومواضيع أخرى (نفس المصدر ، ص 314) .

103) نفس المصدر ، ص . 279

104) لهذه الشخصية عدد كبير من المؤلفات منها : « الاقليد في بيان الاسانيد » و «كتاب الحلية وسراج البغية في معرفة أسانيد الموطأ» و «كتاب لسان البيان عما في كتاب أبي نصر الكلاباذي من الاغفال والنقصان» و «كتاب المناهج في رجال مسلم بن الحجاج» (نفس المصدر ، صفحتا 282 ـ 283) .

105) المقريء هو مؤلف «كتاب التذكرة في القراءات السبع» و «كتاب التهذيب» («كتاب الصلة» ، ج 2 ، ص . 437) .

106) نفس المصدر ، ص . 495 .

107) للبيلوغرافيا وذكر كتب أبرز القضاة الأندلسيين أنظر «كتاب الصلة» ج . 1 ، صفحات 298 ـ 300 و 309 ـ 311 ، ج . 2 ، صفحات 445 و 495 و 481 ـ 482 و 640 ـ 642.

(ب) - المذهب المالكي : قواعده الأساسية وخصائصه العامة

يعتمد مذهب مالك أساساً، شأن المذاهب السنية الأخرى، على القرآن والحديث. غير أنه ينفرد بأخذه لقواعد أخرى. وإذ اتخذ مبادىء لمذهبه ثم طبقها تلامذته وأتباعه فيما بعد. والمصادر الأساسية والمبادىء حسب أولويتها هي التالية:

1) - القرآن.
2) - الحديث والسنة.
3) - عمل أهل المدينة.
4) - المصالح المرسلة.

ويعتبر المذهب المالكي أكثر المذاهب السنية محافظة وتقليداً، فهو مذهب تطبعه الصرامة ويوجب الالتزام الكامل بالقرآن والسنة وربما كان اعتماده عمل أهل المدينة قد جعله أوثق ارتباطاً من غيره بالكتاب وسنة الرسول.

إن اتخاذ المذهب أعمال وتعاليم وسيرة أهل المدينة باعتبارهم أقرب من الناحية الزمنية والروحية إلى عهد الرسول (ص)، نموذجاً، أصبح في المذهب المالكي مبدأ تقارن أهميته بدور الإجتهاد عند المذهب الحنفي، وبالاجماع عند المذهب الحنبلي. وهذا لا يعني أن المذهب المالكي يرفض الإجماع والإجتهاد، وإنما يعني أن تطبيقه لهما كان محدوداً. ويقدم لنا الإمام مالك عدة مبررات جدلية لإبراز أهمية أعمال أهل المدينة، منها أن عشرة آلاف من الصحابة عاشوا وتوفوا بالمدينة (108). ثم إن المالكيين

---

108) «ترتيب المدارك»، ج 1، ص 46.

يفضلون في بعض الحالات عمل أهل المدينة على الحديث (109) . وتبرير الافتراض المتعلق بالاهتمام الخاص الـذي يجب أعطاؤه لعمـل أهل المدينة يبرز من خـلال ذكر الفقهاء المالكيين لعـدة أحاديث جمعتها شخصيات بارزة في هذا العلم ، كمالك بن أنس وأبو هريرة ، والبخاري الـذي كان جمعه للأحاديث يخضع لمقاييس دقيقة للغاية (110) . ونورد فيما يلي حديثا رواه مالك بن أنس ، وهو من الأحاديث التي تبرز أهمية المدينة ، والتـي سبقت الإشـارة إليهـا :

«اللهم بارك لنا في ثمارنا ، وبـارك لنا فـي مدينتنا ، وبـارك لنا في صاعنا ومدنا . اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك ، وإني عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة ، وإني أدعوك للمدينة كما دعاك لمكة» (111) .

إن الاحاديث العديدة التي يذكرها القاضي عياض (112) تؤكد مركز أهل المدينة المفضل ، وهي موجودة في «موطأ» مالك ومصادر شرقية ومغربية وأندلسية أخـرى اعتمدها الفقهاء المالكيون باشبيلية على عهد بني عباد .

ويختلـف تصـور الإجمـاع عنـد الفقهاء المالكيين عن تصـوره لدى المذاهب الفقهية الاخرى . فهم يعطون هذا المفهوم درجة أكبر في التصرف. وربما كان من غير حقنا مقارنة تحديد نسبة قرابة المذهبيين من المصدرين

---

109) نفس المصدر ، صفحتا 45 ـ 46 .

110) فعلى سبيل المثال ، ذكر القاضي عياض عدة اقتباسات تؤيد أولوية الرجـوع الى أعمال أهل المدينة (نفس المصدر) .

111) نفس المصدر ، ص . 52 .

112) نفس المصدر ، صفحات 31 ـ 36 .

الأساسيين القرآن والحديث ، بسبب اعتماد كل مذهب على براهين خاصة ، في إثبات توافقه مع روح المصادر الأساسية ، وخلاصة القول أن الفرق الاساسي بين المذهب المالكي والمذاهب السنية الأخرى هو أن الأول يربط تصوره للإجماع بمبدأ «أهل المدينة» معتمدا على نقل الحديث بينما يطبق الاخرون الاجتهاد حسب مفهومه اللفظي . ويحدد القاضي عياض معنى الاجماع فيما يلي : «اضافة النقل والعمل الى الجميع من حيث لم ينقل أحد منهم ولا عمل بما يخالفه » (113) .

والى جانب إجماع أهل المدينة الذي يعود أصله مباشرة الى عهد الرسول « ص » يوجد إجماع أهل المدينة المعتمد على الاجتهاد أو الاستدلال. والصنف الأول مقبول عند جميع الفقهاء المالكيين ، بل وحتى عند المنتمين لمذاهب أخرى (114) . وهناك اختلاف كبير فيما يخص الصنف الثاني . فاجماع أهل المدينة الذي يمكن ارجاعه مباشرة الى الرسول (ص .) عن طريق نقل الجماعة عن الجماعة يمكن أن يصنف بدوره الى نوعين : (أ) النقل المباشر عن الرسول (ص.) . (ب) النقل للاعمال التي شهدها الرسول (ص .) فلم يعارضها ولم يباركها (115) .

إن الاعتماد على إجماع أهل المدينة المبني على الاجتهاد عند ما نقارنه

113) «ترتيب المدارك» ج . 1 ، ص. 57 .

114) نفس المصدر ، صفحات 47 ـ 59 .

115) امثال خاص بكل نوع انظر نفس المصدر ، ص 48 .

بالاعتماد على الخبر الأحد يدفعنا لطرح الاحتمالات الثلاثة الآتية : (116) .

1) عند ما يطابق إجماع أهل المدينة الخبر الاحد ، يصبح الاجماع قويا لانعدام التناقض بينهما (117) .

2) عند ما يطابق إجماع أهل المدينة خبرا أحدا ، ويعارض خبرا أحدا آخر، تعطى الاولوية للخبر المطابق للإجماع (118) .

3) عند ما يعارض إجماع أهل المدينة الخبر الأحد ، ويكون هذا الخبر هو الوحيد الموجود في مسألة معينة ، تعطى الأولوية للسابق شريطة أن يكون مبنيا على حديث شريف . وإذا كان إجماع أهل المدينة مبنيا من جهة أخرى على مجرد الاجتهاد، فإن الخبر الاحد يفضل عليه . أما إذا تناقض خبران أحدان فيفضل الخبر الوارد من أهل المدينة على غيره (119) .

يدعي البعض أن مقياس نقل الجماعة عن الجماعة يعتبر عنصرا مقررا لأصالة قضايا معينة ، وأن موقف الأغلبية يجب تفضيله . فالإعتماد الكبير على نقل الجماعة عن الجماعة ينبثق من الاعتبار المعطى لنقل الجماعة لأعمال وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم كوسيلة لتقرير أصالة هذا

116) إن الخبر الأحد هو أضعف نوع من الأحاديث أما النوع الثاني فهو الخبر المشهور (هو عبارة عن حديث له راو واحد أو أكثر ولكنه مشكوك في صحته نظراً لقطع في نقله) . والنوع الثالث من الأحاديث يسمى بالخبر المتواتر (وهو الحديث الذي نقلته جماعة إلى جماعة أخرى دون قطع) .

117) نفس المصدر ، ص . 61 .

118) نفس المصدر ، ص . 62 .

119) نفس المصدر .

النقل ، حيث لا يحتمل أن تخطىء الجماعة أو تزور كما هو شأن الأفراد. ولقد وقف الشافعيون المعارضون للمذهب المالكي ضد مقياس صحة نقل الجماعة عن الجماعة ، وعارضوا بصفة خاصة اقتصاره عند الفقهاء المالكيين على أعمال أهل المدينة ، قائلين ان سكان المناطق الاخرى كالكوفة والبصرة حيث عاش بعض الصحابة ليسوا أقل ثقة (120) . وتركز رد المدافعين من المذهب المالكي على أن المدينة وحدها توفرت على العدد الكافي من الصحابة ليضمنوا نقل الجماعة من الجماعة (121) .

وكانت سيطرة مذهب مالك في الأندلس راجعة ، إلى حد بعيد ، لقدرته على التكيف مع الأحوال المتغيرة بالاندلس ، ولتوفقه في مواجهة المشكلات الطارئة والتي لم تكن لها سوابق في المجتمع الأندلسي . لقد أحدثت مناهج جديدة داخل نطاق القرآن فمكنت من معالجة المشاكل الخاصة الناتجة عن الظروف الإجتماعية الجديدة . ومن هنا كان دور مبدأ المصالح المرسلة (إعطاء الأسبقية للمصالح العامة عند سكوت المصادر الأساسية) الذي جاء تكملة للمصادر الأساسية الأخرى ، فمكن المذهب المالكي من معالجة المشاكل على نطاق أوسع . ونتج عن هذا أن المذهب المالكي أصبح يتصف بواقعية أكثر ومرونة أوسع ساهمت في بقائه كقوة حيوية (122).

---

120) نفس المصدر ، ص . 49 .

121) نفس المصدر ، صفحتا 49 ـ 50 .

122) يطبق الإمام مالك مبدأ المصالح المرسلة على نفسه لحل مشكلة تبادل التمر غير الناضج والتمر الناضج (أنظر كتاب «المدونة الكبرى» لمالك بن أنس والذي دونه سحنون بن سعيد التنوخي ، ج . 10 ، القاهرة، 1323 هـ ، ص. 10) .

ومع أن مبدأ المصالح المرسلة لم يطبق إلا بعد اعتبار المصادر الأساسية فإن الفقهاء المالكيين ضاعفوا التجاءهم إلى هذا المبدأ في معالجة القضايا الجديدة التي لم تكن لها سوابق ويتقسم مبدأ المصالح المرسلة الى عدة فروع مثل الضرورة أو الحاجة والتحسينية وسد الذرائع .

وبغض النظر عن الاعتبار الديني فإن صدى هذا المبدأ كان كبيرا فيما له صلة بالشؤون المادية ، وبما كان متعلقا منها على الخصوص بالحياة اليومية . وقد شمل مبدأ المصالح المرسلة نطاقا واسعا ، ابتدأ من الشؤون المصلحية الإجتماعية كالأسرة (الزواج والنكاح والطلاق) إلى الشؤون المالية في التجارة والصناعة فالمشاكل الإدارية المتعلقة بالموظفين المدنيين والعسكريين داخل النظام السياسي .

(2) العدل في إشبيلية على عهد بني عباد

(أ) الأصل الإجتماعي لفقهاء إشبيلية وقضاتها

لا يمكن مقارنة القضاء في إشبيلية بالقضاء في قرطبة ، سواء تعلق الأمر بمكانة ومستوى القضاة ، أو بقيمة مؤلفاتهم الفقهية . فالأعمال الفقهية الهامة لقضاة قرطبة خلال القرن الرابع الهجري ضمنت استمرار سيطرة قرطبة، في الميدان العلمي ، على الأندلس إبان القرن الخامس . وتتجلى هذه الظاهرة في سير الفقهاء والعلماء ، المنقولة في «كتاب المرقبة العليا» للنبهي ، المنشور بعنوان «تاريخ قضاة الأندلس» وفي «كتاب الصلة» لابن بشكوال حيث نجد أن الفقهاء القرطبيين يفوقون فقهاء جميع أطراف الأندلس عددا وجودة في الإنتاج . ويسر قرب المسافة بين إشبيلية وقرطبة

إتصالهما . فقد عمل قرطبيون قضاة في إشبيلية كما تتلمذ عدد من الاشبيليين على يد القضاة القرطبيين المشهورين (123) . وكان القضاة بإشبيلية في القرن الخامس الهجري أسمى مركزا ومقاما من قضاة المدن الأندلسية الأخرى . ويشير كتاب السير للفقهاء الاندلسيين وقضاتهم إلى عدد مهم من الشخصيات الإشبيلية ، بالمقارنة مع العدد المتواضع لفقهاء المدن الأخرى كمالقة وغرناطة مثلا .

ولم تختلف كيفية ومدى تطبيق المذهب المالكي بإشبيلية عن أنحاء الأندلس الأخرى في عهد بني عباد ، كما لم يتغير اتجاه القضاة بتبديل القضاة . فعندما تقلد القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد وظيفة الحاكم، كان من المحتمل أن يعين قاضيا آخر في منصبه القضائي السابق لأنه كان من العسير توافق مهامه السياسية مع المحافظة على التزاماته القضائية.

ويمكننا أن نقول ان كل قاض أندلسي كان فقيها باعتبار تكوينه الديني المتين ، خصوصا في الدراسات الفقهية التي كانت شرطا أساسيا لتولي خطة القضاء . وكان تأثير الفقهاء في العدل بإشبيلية تأثيرا كبيرا بسبب دورهم في المحافظة على الإتجاه المالكي . ونذكر فيما يلي جملة

---

123) فعلى سبيل المثال شغل القرطبي أبو المطرف عبد الرحمان أحمد بن الحكيش منصب قاض بإشبيلية («كتاب الصلة» ، ج . 1 ، ص . 304). إن الامثلة على الاشبيليين الذين درسوا بقرطبة كثيرة ومنها مثال أبي القاسم إسماعيل بن أحمد الحارث (377 هـ . / 987 م . ـ 421 هـ / 1030 م .) وأبي عمر أحمد بن محمد اللخمي المتوفى سنة 498 هـ . / 1086م . (نفس المصدر ، ص 48) ، ومع ذلك لم ينحصر بحث الإشبيليين عن العلم في قرطبة . فعلى سبيل المثال ، درس عبد الله إسماعيل بن الحارث (407 هـ / 1016 م . ـ 478 هـ . / 1085 م .) على 265 أستاذاً في الأندلس (نفس المصدر، ص. 275).

من أسماء الفقهاء الذين عاصروا عهد بني عباد والذين وصفوا بعدة صفات منها «من أهل إشبيلية» أو «إشبيلي» أو «أصله من إشبيلية» :

1) أبو العباس أحمد بن محمد بن الحاج بن يحيى (المتوفى سنة 415 هـ . / 1024 م .) (124) .

2) أبو عمر أحمد بن عبد القادر الاموي (المتوفى سنة 420هـ . / 1029 م) (125) .

3) أبو القاسم بن أحمد بن سعيد الاموي المكتب (352 هـ . / 963م. ـ 428 هـ . / 1036 م .) (126) .

4) أبو عمر أحمد بن محمد اللخمي (المتوفى سنة 428 هـ . / 1036 م) (127).

5) أبو بكر أحمد بن محمد القيسي السبتي (المتوفى سنة 429هـ . / 1037م.)(128).

6) أبو القاسم أحمد بن محمد الفزازي (370 هـ . / 980 م . ـ 435 هـ . / 1043 م.) (129) .

7) أبو عمر أحمد بن معلب البحراني (381 هـ . / 991 م . ـ 449 هـ . / 1057 م.) (130) .

---

124) «كتاب الصلة» ، ج . 1 ، صفحتا 39 ـ 40 .

125) نفس المصدر ، ص . 44 .

126) نفس المصدر ، ص . 47 .

127) نفس المصدر ، ص . 48 .

128) نفس المصدر ، ص . 50 .

129) نفس المصدر ، ص . 54 .

130) نفس المصدر ، ص . 57 .

8) أبـو عبد الله أحمد بـن محمد الخولاني (418 هـ . / 1027 م . - 508 هـ . / 1114 م .) (131) .

9) أبو القاسم أحمد بن محمد القيسي 436 هـ . / 1044 م . - 520هـ . / 1126 م .) (132) .

10) أبو جعفر أحمد بن محمد اللخمي (المتوفى سنة 533 هـ . / 1138 م.) (133).

11) أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن أبي قبابوس 351 هـ . / 962 م . - 413 هـ . / 1022 م .) (134) .

12) أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الغافقي اللخمي (المتوفى سنة 425 هـ . / 1033 م .) (135) .

13) أبو إسحاق إبراهيم بن أيمن (المتوفى سنة 460 هـ / 1067 م.) (136).

14) إسماعيل بن محمد بن عباد (المتوفى سنة 410 هـ . / 1019 م.) (137).

15) أبو القاسم إسماعيل بن محمد الحريث (377هـ. / 987 م – 421هـ . / 1030 م .) (138) .

---

131) نفس المصدر ، ص . 76 .

132) نفس المصدر ، صفحتا 60 - 61 .

133) نفس المصدر ، صفحتا 82 - 83 .

134) نفس المصدر . صفحتا 92 - 93 .

135) نفس المصدر ، صفحتا 93 - 94 .

136) نفس المصدر ، ص 98 .

137) نفس المصدر ، ص . 103 .

138) نفس المصدر ، ص . 104 .

16) أبو القاسم إسماعيل بن محمد الحضرمي (المتوفى سنة 429 هـ . / 1037 م .) (139) .

17) أبو القاسم أصبغ بن عيسى اليحصبي العبدري 333 هـ . / 944 م 418 هـ . / 1027 م .) (140) .

18) أبو القاسم أصبغ بن الرشيد اللخمي (المتوفى سنة 440 هـ / 1048م.) (141).

19) أبو الحسن أصبغ بن سيد (المتوفى سنة 450 هـ . / 1058 م.) (142)

20) أبو القاسم ثابت بن محمد الاموي (338 هـ . / 949 م. ـ 426 هـ . / 1034 م) (143) .

21) أبو مروان جعفر بن أحمد اللغوي بن الفاسلة 357 هـ . / 967م. 438 هـ . / 1046 م .) (144) .

22) أبو العاسى حكم بن أحمد البحراني الطالقي 355 هـ . / 965 م. ـ 426 هـ . / 1034 م.) (145) .

23) أبو محمد حجاج بن يوسف اللخمي بن الزاهد (المتوفى سنة 429 هـ . / 1037 م .) (146) .

---

139) نفس المصدر .

140) نفس المصدر ، ص . 109 .

141) نفس المصدر ، صفحتا 109 ـ 110

142) نفس المصدر ، ص . 110 .

143) نفس المصدر ، ص . 124 .

144) نفس المصدر ، ص . 127 .

145) نفس المصدر ، ص . 147 .

146) نفس المصدر ، ص . 149

24) أبو الوليد خالد بن محمد الاديب . (المتوفى سنة 436 هـ . / 1044 م .) (147) .

25) أبو عثمان بن يحيى التنوخي (المتوفى سنة 426هـ. / 1034م) (148)

126) أبـو عمرو سعيد بن عياش القضاعي المالكي (عـاش فـي سنة 453 هـ . / 1061 م .) (149) .

27) أبو عثمان سعيد بن عبيدة العبسي (365 هـ / 975 م ـ 459 هـ . / 1066 م .) (150) .

28) أبو عمر سيد بن أبان الخولاني (المتوفى سنة 440 هـ . / 1048 م.) (151).

29) أبو الفتح سعدون بن محمد الزهـري (المتوفى سنـة 440 هـ . / 1048 م .)) (152) .

30) أبو الحسن شريح بن محمـد الرعيني المقـريء (451 هـ . / 1059 م . ـ 559 هـ . / 1163 م .) (153) .

31) أبو الحسن طاهر بن عبد الله القيسي (المتوفى سنة 450 هـ . / 1058 م .) (154) .

---

147) نفس المصدر ، صفحتا 176 ـ 177 .

148) نفس المصدر ، ص . 214 .

149) نفس المصدر ، صفحتا 217 ـ 218 .

150) نفس المصدر ، ص . 218 .

151) نفس المصدر ، ص . 223 .

152) نفس المصدر . صفحتا 224 ـ 225 .

153) نفس المصدر ، صفحتا 229 ـ 230 .

154) نفس المصدر ، ص . 235 .

32) أبو محمد عبد الله بن محمد اللخمي (المتوفى سنة 442 هـ . / 1050 م.) (155) .

33) عبد الله بن إسماعيل بن الحارث (407 هـ / 1016 م ـ 478 هـ / 1085 م.) (156) .

34) أبو محمد عبد الله بن علي الباجي اللخمي (المتوفى سنة 478 هـ / 1085 م.) (157) .

35) أبو محمد عبد الله بن محمد المعافري (المتوفى سنة 493 هـ / 1099 م.) (158) .

36) أبو محمد عبد الله بن إسماعيل (المتوفى سنة 497 هـ . / 1103م.) (159) .

37) أبو محمد عبد الله بن أحمد بن سليمان 444 هـ . / 1052 م . ـ 522 هـ . / 1128 م.) (160) .

38) عبد الرحمان بن عبد الله الحضرمي الاديب بن شبراق (المتوفى سنة 418 هـ / 1027 م) (161) .

39) أبو المطرف عبد الرحمان بن عبد الواحد الجذامي (المتوفى سنة 418 هـ . / 1027 م.) (162) .

---

155) نفس المصدر ، ص ، 265 .
156) نفس المصدر ، ص 275 .
157) نفس المصدر .
158) نفس المصدر ، صفحتا 278 ـ 279 .
159) نفس المصدر ، ص. 279 .
160) نفس المصدر ، صفحتا 282 ـ 283 .
161) نفس المصدر ، صفحتا 311 ـ 312 .
162) نفس المصدر ، صفحتا 312 ـ 313 .

40) أبو القاسم عبد الرحمان بن إبراهيم الغافقي (المتوفى سنة 434 هـ . / 1042 م .) (163) .

41) أبو الوليد عبد الملك بن سليمان الاموي (356 هـ . / 966 م . - 429 هـ . / 1037 م .) (164) .

42) أبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز اللخمي بن الباجي (447هـ . / 1055 م . ـ 532 هـ . / 1137 م .) (165) .

43) أبو الاصبغ عبد العزيز بن علي اللخمي الباجي (المتوفى سنة 473 هـ . / 1080 م .) (166) .

44) أبو حفص عمر بن حزم الحضرمي القنبي 360 هـ / 970 م . - 447 هـ . / 1055 م .) (167) .

45) أبو الحسن علي بن محمد الانصاري (395 هـ . / 1004 م . - 456 هـ . / 1068 م .) (168) .

46) أبو الحسن علي بن عبد الرحمان التنوخي بن الاخضر (المتوفى سنة 514 هـ . / 1120 م .) (169) .

---

163) نفس المصدر، ص . 315 .

164) نفس المصدر، ص . 342 .

165) نفس المصدر، صفحتا 347 ـ 348 .

166) نفس المصدر، ص . 363 .

167) نفس المصدر، ص . 377 .

168) « كتاب الصلة » ، ج 2، صفحتا 394 ـ 395 .

169) نفس المصدر، ص . 404 .

47) أبو الاصبغ عيسى بن أحمد السبلي (عاش حوالي سنة 419 هـ . / 1028 م .) (170) .

48) أبو القاسم عباس بن يحيى اللخمي (350 هـ . / 961 م . ـ 426 هـ / 1034 م .) (171)

49) أبو الحكم العاسي بن خلف المقريء (توفي سنة 470 هـ . / 1077 م .) (172) .

50) أبو عبد الله محمد بن خزرج اللخمي (توفي سنة 419 هـ . / 1028 م .) (173) .

51) أبو عبد الله محمد بن سليمان القطاني (عاش حوالي سنة 419هـ . / 1028 م . وله ستون سنة) (174) .

52) أبو بكر محمد بن مروان الابادي (توفي سنة 489 هـ . / 1095م . وله 86 سنة) (175) .

53) أبو القاسم محمد بن عبيد الله البناني المعمر (330 هـ . / 941 م . ـ 424 هـ . / 1032 م .) (176) .

---

170) نفس المصدر، ص . 412 .

171) نفس المصدر، ص . 420 .

172) نفس المصدر، ص. 427 .

173) نفس المصدر، صفحتا 464 ـ 465 .

174) نفس المصدر، صفحتا 484 ـ 485 .

175) نفس المصدر، صفحتا 185 ـ 186 .

176) نفس المصدر، ص 490 .

54) أبو بكر محمد بن إبراهيم الاشعري بن أبي المقري (توفي سنة 426 هـ . / 1034 م.) (177) .

55) أبو عبد الله محمد بن أحمد اللخمي الباجي (356 هـ . / 966م. ـ 431 هـ . / 1039 م.) (178) .

56) أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي (توفي سنة 433 هـ . / 1041 م.) (179) .

57) محمد بن ثابت الاموي . (توفي سنة 435 هـ . / 1043 م.) (180) .

58) أبو عبيد الله محمد بن عبد الله اللخمي بن الاحدب (357 هـ / 967 م . ـ 473 هـ . / 1080 م.) (181) .

59) محمد بن علي الاموي (توفي سنة 422 هـ . / 1030 م) (182) .

60) أبو عبيد محمد بن عمر الفارسي بن أبي حفص (375 هـ / 985 م. ـ 459 هـ . / 1066 م.) (183)

61) أبو بكر محمد بن أحمد القيسي (توفي سنة 464 هـ / 1071 م.) (184).

62) أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي (توفي سنة 469 هـ / 1076 م.) (185).

---

177) نفس المصدر .

178) نفس المصدر، ص . 495

179) نفس المصدر، صفحتا 495 ـ 496 .

180) نفس المصدر، ص . 498 .

181) نفس المصدر، ص . 500 .

182) نفس المصدر، ص . 503 .

183) نفس المصدر، ص . 513

184) نفس المصدر، ص 518 .

185) نفس المصدر، صفحتا 518 ـ 519 .

63) أبو زيد محمد بن محمد الحميري (عاش في سنة 484 هـ . / 1091م .) (186) .

64) أبو بكر محمد بن عمر الزبيدي (توفي سنة 501 هـ . / 1107م) (187) .

65) أبو عبد الله محمد بن أبي العافية النحوي المقريء (توفي سنة 509 هـ . / 1115 م .) (188) .

66) أبو محمد موسى بن محمد اللخمي الملاح (171 هـ . / 981 م إلى حوالي سنة 443 هـ . / 1051 م .) (189) .

67) أبو عبد الله مروان بن سليمان الغافقي (345 هـ . /957 م . ـ 418 هـ . / 1027 م.) (190) .

68) أبو عبد الملك مروان بن الحكم القرشي (386 هـ . / 996 م. ـ 462 هـ . / 1069 م.) (191) .

69) أبو عمرو معاذ بن عبد الله البلوي (342 هـ . / 953 م . ـ 418 هـ . / 1027 .) (192) .

70) أبو الفضل مهاجر بن محمد الاديب (توفي سنة 454 هـ / 1062)م. وله 68 سنة) (193) .

---

186) نفس المصدر، ص : 527 .

187) نفس المصدر ، صفحتا 536 ـ 537 .

188) نفس المصدر، ص . 540 .

189) نفس المصدر، ص 575 .

190) نفس المصدر، ص . 581 .

191) نفس المصدر، صفحتا 582 ـ 583 .

192) نفس المصدر، 591 .

193) نفس المصدر، ص 594 .

71) أبو تمام موفق بن سعيد السلامي الشقاق (توفي سنة 426 هـ . / 1034 م . وهو في الخمسينات) (194) .

72) أبو الحسن مبارك مولاي محمد بن عمرو البكري (توفي سنة 419 هـ . / 1028 م . وهو في الخمسينات) (195) .

73) أبو عمر نزار بن محمد القيسي الزيات (توفي 426 هـ / 1034م) (196) .

74) أبو العباس وليد بن سعيد الحضرمي الجباب (توفي سنة 419 هـ / 1028 م . وله 55 سنة) (197) .

ومن المحتمل أن يكون قد استقر بإشبيلية على عهد بني عباد فقهاء آخرون وفدوا عليها من مناطق أندلسية أخرى العمل بها . فقد كفلت إشبيلية فرصا للعمل لم تكن متوفرة في غيرها من المدن ، فجلبت الشخصيات المرموقة والمشهورة في الميادين الثقافية والقضائية والسياسية . وصاحب قدوم هذا العدد الكبير إلى إشبيلية انتقال الاشبيليين إلى مناطق أخرى من الاندلس والشرق . ويقدم لنا ابن بشكوال اللائحة التالية للفقهاء والقضاة الذين سكنوا إشبيلية خلال حكم بني عباد أو خلال فترات قريبة منها :

1) أبو القاسم أحمد بن محمد الاديب الفرضي بن الطنبزي (توفي سنة 416 هـ . / 1025 م . أو 417 هـ . / 1026 م) (198) .

---

194) نفس المصدر، صفحتا 599 ـ 600 .

195) نفس المصدر، ص . 600 .

196) نفس المصدر، ص . 606 .

197) نفس المصدر، ص . 602 .

198) كتاب الصلة ، ج. 1، ص. 38 .

2) أبو بكر أحمد بن أدهم (ولد سنة 357 هـ . / 967 م . وعاش سنة 425 هـ . / 1033 م) (199)

3) أبو عمر أحمد بن خلف اللغوي النحوي الضرير (381 هـ / 991 م . ـ 449 هـ . / 1057 م .) (200) .

4) أبو عمر أحمد بن عبد الله الاموي المكتب بن النياسي (توفي سنة 450 هـ . / 1058 م . وله 80 سنة) (201) .

5) أبو القاسم خلف بن سعيد الازدي بن المنفوخ)عاش في سنة 403 هـ / 1012 م) (202) .

6) أبو القاسم خلف بن محمد القيسي القرطبي الوراق (توفي سنة 437 هـ / 1045 م . وله 70 سنة) (203) .

7) أبو عثمان سعيد بن عبد اللـه الازدي القريشي النحوي (توفـي سنة 129 هـ . / 1037 م) (204) .

8) أبو القاسم سلامة بن أمية التجيبي الامـام (365 هـ . / 975 م . ـ 442 هـ . / 1050 م.) (205) .

---

199) نفس المصدر، ص 45 .

200) نفس المصدر، ص . 57 .

201) نفس المصدر ، ص. 61 .

202) نفس المصدر، ص . 162 .

203) نفس المصدر، ص 163 .

204) نفس المصدر، ص 216 .

205) نفس المصدر، ص 220 .

9) أبو سعيد سماك بن أحمد الجذامي الواعز (370 هـ . / 980 م . ـ 443 هـ . / 1051 م.) (206) .

10) أبو محمد عبد الله بن محمد الجذامي بن البزلياني (391 هـ . / 1000 م . ـ 445 هـ . / 1053 م.) (207) .

11) عبد الله بن سعيد الرعيني بن المأموني (عاش في حوالي سنة 454 هـ. / 1062 م.) (208) .

12) أبو المطرف عبد الرحمان بن مسلمة القرشي المالقي (369 هـ . / 979 م . ـ 446 هـ / 1054 م.) (209) .

13) أبو القاسم عباس بن غيث الحمداني (335 هـ . / 946 م ـ 426 هـ / 1034 م.) (210) .

14) أبو بكر عيّاش بن خلف المقريء (توفي سنة 510 هـ. / 1116 م.) (211) .

15) أبو تمام غالب بن محمد العواري الاشبوني (276 هـ . / 886م . ـ 440 هـ . / 1048 م .) (212) .

(206) نفس المصدر، ص 225 .
(207) نفس المصدر، ص . 267 .
(208) نفس المصدر، صفحتا 268 ـ 269 .
(209) نفس المصدر، صفحتا 320 ـ 321 .
(210) « كتاب الصلة »، ج . 2، صفحتا 419 ـ 420 .
(211) نفس المصدر، ص . 426 .
(212) نفس المصدر، صفحتا 431 ـ 432 .

16) أبو الحسن كامل بن أحمد القادسي بن الافطس (توفي سنة 430 هـ . / 1038 م.) (213) .

17) أبو عبد اللـه محمد بن الخطاب الايادي (عاش سنة 419 هـ . / 1028 م) (214) .

18) أبو بكر محمد بن مغيرة القرشي (349 هـ . / 960 م . ـ 425هـ . / 1033 م .) (215) .

19) أبو الوليد محمد عبد العزيز الخشني بن المعلم (354هـ . / 965 م . 431 هـ . / 1039 م .) (216) .

20) أبو عبد اللـه محمد بن مسعود الاموي (354 هـ . / 965 م . ـ 431 هـ . / 1039 م) (217) .

21) أبو عبد الله محمد بن عيسى الاموي المكتب المعمر (349 هـ . / 960 م . / ـ 445 هـ . / 1053 م .) (218) .

22) أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخولاني (توفي سنة 448 هـ . / 1056 م . وله 76 سنة) . (219) .

---

(213) نفس المصدر، ص . 450 .
(214) نفس المصدر، ص . 465 .
(215) نفس المصدر، ص . 489 .
(216) نفس المصدر، ص . 494 .
(217) نفس المصدر،
(218) نفس المصدر ، صفحتا 504 ـ 505 .
(219) نفس المصدر، ص . 507 .

23) أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن شبرين (توفي سنة 508هـ / 1109 م .) . (220) .

24) أبو بكر يحيى بن عبد الله الفهري (توفي سنة 507 هـ . / 1113م .) . (221) .

ب) ـ تسيير القضاء : القاضي ومساعدوه

يشير تعدد القضاة بإشبيلية إلى أن مهامهم كانت تختلف بين قاض وآخر. فلربما كان قاضي الجماعة أكثر نفوذا من غيره من القضاة . ولكننا نرى من المهم أن نناقش المحتويات العامة لسلطة القاضي الشرعية وحدودها ومدى تطبيقها بإشبيلية .

لقد كان مدى النفوذ الشرعي للقاضي بإشبيلية خلال القرن الهجري الخامس مقصورا على الحدود التي وضعها المذهب المالكي . وكانت هذه الحدود متشابهة بين جميع أنحاء الاندلس ، وإذا كان الحاكم هو الذي يعين القاضي مباشرة فليس من السهل تحديد درجة خضوع القاضي لمشيئة الحاكم . فقد اختلف النفوذ الفعلي في نفس المكان باختلاف الفترات ، حيث كان نفوذ القضاة يعتمد ، أساسا ، على شخصية كل من الحاكم والقاضي . ولا فائدة لنا نتيجة لهذه الظاهرة من محاولة تحديد وضبط السلطة الفعلية التي كانت للقضاة في إشبيلية ، أو محاولة مقارنتها مع

220) نفس المصدر، ص . 583 .

221) نفس المصدر، ص . 635 .

سلطة القضاة المنتمين لمناطق وفترات أخرى . فقد كانت سلطة القاضي ، نظريا ، هي المصدر الاساسي للسلطة الشرعية . أما من الناحية العملية فيمكننا أن نتساءل عما إذا كان مركز القاضي التشريعي أسمى من مركز حكام بني عباد ، وخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار سيطرتهم السياسية. ونشك في أن القاضي الاشبيلي كان في موقف يمكنه من تحدي سلطة الحاكم، وحتى لو كان الامر كذلك فليس من المحتمل أن يكون قد تمتع بهذا الحق (222) . ومن تحدي السلطة التشريعية للقاضي وتجاوز حدودها ونطاقها نرى أن قوة السلطة القضائية وضعفها كانا ينبثقان عن الوضعية الواقعية لهذا الجهاز كجزء من النظام السياسي العام .

كان الهدف الصريح للقاضي الاشبيلي ضمان العدل في نطاق نفوذه الشرعي ، بالدفاع عن المظلومين والضعفاء الذين يلجأون إليه (223) . وكان عدم تحيز القاضي مبدأ مطبقا في غالب الاحيان ، غير أنه كانت هناك عوامل إنسانية واجتماعية تحد من استقلاله ، كتعرضه ، مثلا ، لضغوط أعوانه ، فضلا عن ضغوط الحاكم وبعض الفئات الاجتماعية كالفقهاء . وكثيرا ما جاءت كتب الفقهاء والعلماء في هذا المجال تنصح القاضي بابعاد نفسه عن ضغوط مساعديه حتى يتمكن من النهوض بمهامه والحفاظ على حياده بعدم تحيزه . وتثبت هذه الاشارة حقيقة وجود تلك

---

222) يرى بعض الفقهاء المالكيون أن القاضي يجب أن يعمل بحذر عندما يتعلق الامر بالحاكم، مؤكدين منافع الاتفاق والوفاق بينهما (أنظر مثلا «رسالة في القضاء والحسبة» لابن عبدون ، صفحتا 4 ـ 5).

223) نفس المصدر ، ص 7 .

الضغوط (224). وكان لكل قاض بإشبيلية عشرة أعوان، إلا أنه كان يعتمد على عدد من الفقهاء ، أقلهم أربعة، إثنان من مجلس القضاء ، وآخران من المجلس الجامع . كما كان القاضي يعتمد في بعض الاحيان على آراء الوزراء (225) . وكان له مساعدون في مرافق أخرى منهم صاحب المدينة والحاكم اللذين كانا يخضعان للقاضي بطريقة غير مباشرة .

أما عدم تحيز القاضي لسكان إشبيلية فكان مرتبطا بضعف خاصياته الانسانية خصوصا إذا علمنا بانعدام ثقة القضاة في العامة نتيجة انتمائهم الطبقي . وكان بعض القضاة ، اجتماعيا وماليا ، محظوظين . وقد اقترح الفقهاء الأندلسيون في مؤلفاتهم الغنى شرطا لنجاح القاضي (226) . إلا أن هذا الجدل قائم على احتمال خاطيء، إذ يزعم أن الاغنياء أقل طمعا وارتشاء من ذوي الحاجة .

هل كانت مواقف القاضي محمد بن عباد تتأثر في شأن العدل بإشبيلية بمصالحه السياسية بعد ما تولى الحكم ؟ بل هل كان يتدخل في سلطة القاضي ومسؤوليته بعبارة أصح ؟ إن حصيلة عمله قاضيا سابقا بإشبيلية تثبت سعيه في إرضاء حكام بني حمود إن لم نقل الاشبيليين عامة . ورغم تجربته الايجابية في هذا الميدان فإن أحوال القضاء بإشبيلية ، بعد أن تولى القاضي بن عباد حكمها ، ليست واضحة فقد كانت

(224) . نفس المصدر ، ص . 8 .

(225) نفس المصدر ، ص . 9 .

(226) نفس المصدر .

تصفيته التعسفية لمنافسيه السياسيين لا تتصف بالعدالة إطلاقا . إلا أن روحه الواقعية كانت تحفزه على ضمان العدالة الاجتماعية لتلافي الاضطرابات الداخلية التي من شأنها أن تهدد مركزه . وإذا نحن اعتبرنا مصير العدالة بإشبيلية في علاقتها بالحاكم نجد وضعيتها متشابهة طيلة عهود حكام بني عباد الثلاثة : القاضي بن عباد والمعتضد والمعتمد .

وسبق اعدد من الموظفين ، فضلا عن القاضي محمد بن عباد ، أن باشروا القضاء بإشبيلية في عهد بني حمود (227) . ولكن عند ما تولى بنو عباد مقاليد الحكم انفردوا بتعيين القضاة. ووصف ابن بشكوال في «كتاب الصلة» تعيين إشبيليين قضاة بأوصاف مختلفة منها « استقضي بإشبيلية » واستقضي ببلده» و «تولى القضاء بإشبيلية» . وفيما يلي بعض من تولوا القضاء بـإشبيلية :

1) أبو القاسم أحمد بن محمد القيسي (436 هـ . / 1044 م . ـ 520هـ / 1126 م .) (228) .

2) إسماعيل بن محمد بن عباد اللخمي (توفي سنة 410 هـ . / 1019 م .) (229) .

---

227) عين القرطبي أبو المطرف عبد الرحمان بن أحمد بن كبيش المتوفى في سنة 409 هـ / 1018 م. قاضيا بإشبيلية خلال الفتنة (« كتاب الصلة » ص . 104). وربما عمل ابن كبيش قاضيا في نفس الوقت الذي عمل إسماعيل بن عباد في هذا المنصب إلى سنة 410هـ / 1019م.

228) نفس المصدر .

229) «كتاب الصلة» ، ج . 1 ، صفحة 102 .

3) أبـو الحسـن شريـح بن محمد الرعينـي المقرىء (451 هـ . / 1059 م . ـ 559 هـ . / 1163 م .) (230) .

4) أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي (توفي سنة 433هـ / 1041 م .) (231) .

5) أبو القاسم بن أحمد بن منذر (توفي سنة 520هـ. / 1126 م .) (232).

6) أبـو عبـد اللـه بن شبرين (418 هـ . / 1027 م . ـ 505 هـ . / 1111م .) (233) .

7) أبو بكـر محمـد بن العربـي (468 هـ . / 1075م . ـ 543 هـ . / 1148 م .) (234) .

ربما كان تولي الاشبيليين منصب القضاء بمدينتهم يرجع بـالدرجة الاولى إلى تعدد القضاة بها . ويبرز هذه الوفرة التفريق بين قاضي الجماعة وباقـي القضاة ، كما كان الشأن بعموم الاندلس (235) . ولقد عين عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن شبرين (المتوفى سنة 503 هـ . / 1109م .)

---

230) نفس المصدر ، صفحتا 239 ـ 270 .

231) « كتاب الصلة » ، ج . 2 ، صفحتا 495 ـ 496 .

232) « بغية الملتمس » ، ص . 365 .

233) نفس المصدر ، ص . 357 .

234) « خريدة القصر » ، ج 2، ص ، 220 .

235) فعلى سبيل المثال، يوصف أبو الحسن شريح بن محمد الرعيني ، « قاضي الجماعة بإشبيلية » (خريدة القصر » في كتاب « تاريخ بني عباد » لراينهارت دوزي :
(Reinhart P. A. Dozy. *Historia Abbadidarum, vol. 1, p. 383)*.

قاضيا بإشبيلية . وكان أصله من مجرق بالدولة الطائفية الاشبيلية (236).
وتقلد إشبيليون منصب القاضي في نواحي أخرى من الاندلس والمغرب .
من ذلك أن أبا محمد عبد الله بن إسماعيل (المتوفى سنة 497هـ. / 1103م.)
عمل قاضيا بأغمات في المغرب (237) ، وأن أبا مروان عبد الملك بن
عبد العزيز اللخمي بن الباجي (447 هـ. / 1055 م . ـ 532 هـ. / 1137 م)
عمل قاضيا في مرتين بغرب الاندلس (238) ، بينما عين المعتمد أبا بكر
محمد بن أحمد القيسي قاضيا بقرطبة (239) .

وكانت علاقة القاضي بالفقهاء في إشبيلية متينة . فقد أوصى بأن
يستعين بالفقهاء في مراقبة بيت المال (240) . واعتمد على المشاور في
الاحكام لينصح القاضي ويعينه . وتلي قائمة بأسماء بعض الفقهاء الذين
شغلوا منصب المشاور بإشبيلية ، وهم :

1) ـ أبو القاسم خلف بن سعيد الازدي بن منفوخ (توفي سنة 403هـ. /
1012 م) (241) .

---

(236) « كتاب الصلة » ، ج . 2 ، ص . 586 .
(237) « كتاب الصلة » ، ج . 1 ، ص . 279 .
(238) نفس المصدر ، صفحتا 247 ـ 348 .
(239) « كتاب الصلة » ، ج 2 ، ص 518 .
(240) « رسالة في القضاء » ، ص . 10 .
(241) « كتاب الصلة » ، ج . 1 ، ص . 162 .

2) ـ عبد الله بن إسماعيل بن حارث (407هـ . / 1016م . ـ 476هـ . / 1083 م) (242) .

3) ـ أبو زيد محمد بن محمد الحميري (عاش حوالي سنة 484هـ . / 1091 م) (243) .

4) ـ أبو بكر يحيى بن عبد الله الفهري (توفي سنة 507 هـ . / 1113 م .) (244) .

وكان بإمكان الفقيه الواحد أن يشغل في نفس الوقت منصبا رسميا دينيا ومنصبا قضائيا فقد كلف أبو الحسن شريح بن محمد الرعيني المقريء (451 هـ . / 1059 م ـ 559 هـ . / 1163 م .) بإلقاء خطبة الجمعة ، من جهة ، وشغل منصب القاضي في إشبيلية من جهة أخرى (245) وليس من الواضح ما إذا كان كلف بالمهمتين معا وهناك فقهاء آخرون بإشبيلية كلفوا بإلقاء خطبة الجمعة ، دون غيرها (246) .

---

242) نفس المصدر ، ص ، 275 .

243) « كتاب الصلة » ، ج 2 ، ص 537 .

244) نفس المصدر ، ص 635 .

245) « كتاب الصلة » ، ج . 1 ، صفحتا 229 ـ 230 .

246) يشير ابن بشكوال الى أن الشخصيات التالية قد شغلت منصب صاحب الصلاة بإشبيلية : أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن أبي قابوس (351 هـ . /962 م . ـ 413 هـ . / 1022 م .) (« كتاب الصلة » ، ج . 1 ، صفحتا 93 ـ 94) وأبو عثمان سعيد بن عبيد العبسي المقري" (365 هـ . / 975 م ـ 442 هـ / 1050 م .) نفس المصدر ، ص . 210 . أما أبو عثمان سعيد بن يحيى التنوخي (365 هـ . / 975 م ـ 459 هـ . / 1066 م .) فقد صلى « . . إمام بالمسجد بإشبيلية . . » (نفس المصدر ، ص . 214) .

ومن المناصب الرسمية العدلية الخالصة « كتاب الرد » . وقد شغل هذا المنصب في إشبيلية أبو الاصبغ عبد العزيز بن علي اللخمي الباجي (المتوفى سنة 473 هـ . / 1080 م .) (247). وقد انفردت الاندلس بهذا المنصب دون المغرب والمشرق . ورغم ذلك فإن أهدافه ليست واضحة عندنا . وليس من الوارد أن تكون مكانة هذا المنصب أسمى من مكانة منصب القاضي، ولكن يبدو أن الهدف الاساسي منه هو تمكين المتقاضين من الطعن في أحكام القضاة .

كان النظام القضائي في إشبيلية خلال القرن الهجري الخامس نظاما مرضيا على وجه العموم ، فقد أدى دوره الاساسي رغم توتر الظروف السياسية في ذلك العهد . ويجب إرجاع هذا الاستنتاج حول حالة العدالة بإشبيلية إلى مذهب مالك الذي شمل تطبيقه جميع أنحاء الاندلس . فإذا كان هذا المذهب قد عرف بصرامة أحكامه فقد كان متسامحا مع النصارى واليهود الذين تمكنوا من تطبيق قوانينهم الدينية . ولقد ذهب بعضهم إلى اتهام المذهب المالكي بعدم تسامحه وردته عن عصره . إلا أننا نجد أن عددا من أبرز الفقهاء في مذاهب أخرى قد عاشوا وألفوا وعملوا في ظل المذهب المالكي بصفته المذهب الرسمي في المغرب والاندلس . لقد ذكرت قضية إحراق كتب ابن حزم في إشبيلية مثالا لتعسف المذهب المالكي (248) . إلا أن

---

247) نفس المصدر ، ص . 358 .

248) هناك إشارة إلى أن ابن عباد حرق كتب ابن حزم (« الذخيرة » ، القسم الاول ، ج . 1 ، ص . 169) . ويؤكد هذا الحدث ما ورد في أبيات ابن حزم الشعرية حيث يعبر فيها عن غضبه (نفس المصدر ، ص . 171) . واعتبارا لكون ابن حزم توفي سنة 456 هـ . / 1068 م . قبل حصول المعتمد بن عباد على الحكم سنة 461 هـ . / 1070 م فلا شك أن الحاكم المعني بالامر هو المعتضد بن عباد .

السبب الحقيقي للضغوط التي سلطت على الفقيه ابن حزم الظاهري المذهب كان سبباً سياسياً ، يرجع بالاخص إلى عدائه الشديد لنظام دول الطوائف . ولم تكن قضية ابن حزم قضية استثنائية في ظروف كان فيها ملوك الطوائف يباشرون المطاردة السياسية على نطاق واسع ، بل إن ابن حزم ، رغم خلافه الجوهري مع المذهب المالكي ، كانت له صلات متينة بالمؤسسة الدينية . ومما يثبت هذه الحقيقة أنه درس على أساتذة مالكيين وتتلمذ عليه طلاب مالكيون . ومن جهة أخرى كان الفيلسوف والفقيه ابن رشد الذي امتاز بحرية تفكيره في تعارض مع التعاليم المالكية خلال القرن الهجري السابع ، حيث كان المذهب المالكي ما يزال مسيطراً . ولا يجب التقليل بأي حال ، في هذه الخاتمة ، من أهمية دور المذهب كعنصر توحيد خلال القرن الخامس الهجري الذي انطلقت خلاله قوى التفكك السياسي والاقتصادي والاجتماعي في الاندلس . وقد ظلت وحدة النظام القضائي بالاندلس ضمن القوى القليلة التي ساهمت في الاندماج الاجتماعي داخل دول الطوائف ، وأدت إلى الوحدة السياسية النهائية في الاندلس تحت لواء المرابطين .

الفصل الثالث

الحيـاة الاقتصاديـة والاجتماعيــة في إشبيليـة

1 . الاقتصـاد الاشبيلي

(1) إشبيليـة وموارد الاندلس :

شكلت القوة الاقتصادية لبلاد الاندلس خـلال القرن الخامس الهجري - إذا تصورناها كياناً متكاملا - تناقضاً واضحاً بالمقارنة مع جميع الدويلات المسيحية في شمال إسبانيا وبلاد المغرب. لقد احتوت الاندلس على أخصب الاراضي وأكثرها إنتاجاً في شبـه الجزيرة الايبيريـة ، امتدت عبر الوادي الكبير غرباً وضمت مناطق من بلنسيا وسرقسطة شرقاً وكانت الزراعة في معظم هذه الاراضي تعتمد على الري.

ومما يدل أيضاً على هذه القوة الاقتصادية التي كانت تتمتع بها بلاد الاندلس ما كانت تزخر به أرضها من وفرة في المواد الخام وتنوع في الثروات الطبيعية بإشبيلية. إن المجتمـع الاندلسي كان فلاحياً بالاساس

والانتاج الفلاحي هو الذي يسد حاجيات هذا المجتمع من المواد الاساسية ، ومن هنا كانت أهمية المناطق القروية عظيمة بصفتها المنتج للموارد الفلاحية . وبالرغم من سيادة مظاهر التمدين في إشبيلية قامت الارياف المجاورة بدور رئيسي ، فلقد عرفت الضواحي الريفية للدولة الطائفية الإشبيلية استغلالا فلاحيا واسعاً يؤكده ارتفاع عدد سكانها . ورغم عدم توفر الاحصاءات ، فإن عدد القرى المهم في إشبيلية يحمل دلالة كبرى في هذا الصدد . وحسب الرقم الذي أورده المقري فهي تقرب من اثنتي عشرة ألف وهو عدد مبالغ فيه بلا ريب (1) . وتبعاً للنمط السائد بالاندلس كان الريف الاشبيلي يعتمد أساساً على اقتصاد معاشي ، ولكن إذا اعتبرنا الاهمية التي اكتسبتها بعض المدن كإشبيلية من الناحية التجارية فإننا نصادف وجود علاقة حضرية بدوية جد متطورة .

لقد كانت المناطق الريفية تسعى لتحقيق الاكتفاء الذاتي فيما يتعلق بمنتوج القمح الذي يكون المصدر الاساسي للغذاء . أما صناعة الزيت فكانت نشيطة بسبب انتشار غرس أشجار الزيتون . وفي جانب آخر سهل توفر شبكة للمواصلات الاتصال مع أهم المدن مثل إشبيلية ، كما ساهم في تنشيط عملية المبادلات فيما بينها (2) . ولا تتضح الأهمية الحقيقية للموارد الفلاحية الاشبيلية إلا بوصفها في إطار الحالة العامة التي كانت عليها الاندلس . فلقد اشتهرت أرض الأندلس بانتاج الزيتون واللوز والرمان

---

1) « نفح الطيب » ج . 1 ، ص . 210 .

2) لم يكن التنقل داخل أنحاء دولة إشبيلية الطائفية إلا مسألة أيام معدودة (« صبح الاعشى » ، ج . 5 ، ص . 225)

والبرقوق والموز ، فضلا عن التين وخاصة ما كان يعرف في إشبيلية بالتين القوطي والتين السفري (3) . وإلى جانب ذلك ازدهرت منتوجات كانت تستخرج مع النبات كالعطور وأخرى كالتوابل مثل الزعفران (4) .

واعتبرت المعادن من أهم الثروات الطبيعية التي جادت بها أرض الأندلس ، وبتنوعها تعددت مناطق استخراجها . وقد ذكر ابن سعيد وجود أنواع ، سبعة من المعادن ، لكنه لم يحدد طبيعتها . فالصفر كان موجوداً في مناطق مختلفة من البلاد بينما كان يتم تحويل الرمال في ابلة إلى زجاج (5) . وبالنسبة للرخام فكان يستخرج من عدة مناطق ، فمثلا في قرطبة وجد الرخام الابيض والأحمر ، أما الرخام الاسود وهو أقل قيمة من سابقيه فتعددت نواحيه (6) . وفيما يخص الذهب فإنه كان يستورد من الشرق ومن إفريقيا عن طريق المغرب ، ومع ذلك وجدت كمية منه في بعض مناطق شبه جزيرة إيبيريا . ونظراً لتعدد المعادن عرف إستغلال المناجم في الاندلس ـ شأنه في ذلك شأن الفلاحة ـ تطوراً فاق بلاد المغرب . وزيادة على ما ذكر اشتهرت مواد ومنتوجات أخرى كالخشب والصباغة التي غلب عليها اللون الأحمر خاصة (7) .

---

3) « نفح الطيب » ، ج . 1 ، ص 186 .
4) نفس المصدر ، ص . 165 .
5) نفس المصدر ، صفحتا 186 ـ 187 .
6) نفس المصدر ، ص 187 .
7) نفس المصدر .

كما انتشرت الصناعات في مختلف أنحاء الأندلس حيث تخصصت كل ناحية في إنتاج صناعة معينة تكمل بها حاجيات النواحي الأخرى، فعلى سبيل المثال تخصصت مورسيا في صناعة الطرز الذهبي وصناعة الزرابي والأساور المذهبة والمقصات والسكاكين وفي صنع الأسلحة . أما المورية ومالقة فقد تخصصتا أيضا في الطرز الذهبي وصناعة الخزف والأواني الزجاجية . واشتهرت غرناطة بصناعة ثوب حريري ملون عرف باسم الملبد (8). كما كان يصدر إلى الشرق زليج ملون ولامع عرف باسم الزليجي (9). وفي إشبيلية عرفت المنتوجات المعدنية شهرة واسعة ضاهت الشمال المسيحي ومن جملتها صناعة الاقواس والرماح والسهام بالاضافة إلى صناعة السرج المزينة (10) .

وهذه الصورة العامة من الأحوال في بلاد الأندلس والمستخلصة من مصادر متأخرة تقتبس من ابن سعيد ، تطابق أحوال القرن الخامس الهجري، وهناك ملاحظتان :

أولا ، إن الحيوانات والنباتات التي وجدت في الأندلس خلال هذه الحقبة كانت معروفة في البلاد منذ أربعة قرون ، ذلك أن أحوال المناخ لم يطرأ عليها أي تغيير ، كما أن البلاد لم تشهد أية ظاهرة طبيعية عظمى .

---

8) نفس المصدر .
9) نفس المصدر ، صفحتا 187 ـ 188 .
10) نفس المصدر ، ص . 188 .

وثانياً ، إن المعادن والمنتوجات الصناعية الأخرى المذكورة في المصدر السابق كانت تستغل على نطاق واسع خلال فترة حكم ملوك الطوائف وقبلها أي خلال عهد بني أمية . بالاضافة إلى ذلك شهد القرن الخامس الهجري تشييد أفخم القصور الأندلسية وأجمل المنشآت المعمارية وفي مقدمتها المسجد الأعظم بقرطبة . ومثل هذه المنشآت كانت تتطلب استهلاك قسط وفير من الذهب والفضة والمواد الاخرى المستعملة في التزيين والزخرفة .

ويتحدث المقري في كتابه عن النشاط الذي كانت تعرفه إشبيلية وعن تطورها خلال القرن الهجري الخامس ، فيدفعنا إلى استخلاص نتيجة إيجابية وهي ان إشبيلية كانت من أبرز المدن الاندلسية وأشهرها ، فقوتها السياسية والاقتصادية بالمقارنة مع الدول الطائفية الأخرى ، ومستواها المعاشي والحضاري الرفيع المتمثل في قصور بني عباد وفي الدور الأساسي الذي لعبه الوادي الكبير في ميادين الزراعة والتجارة ، كل ذلك يؤكد صحة هذا الاستنتاج .

وبالرغم من القوة الإقتصادية التي كانت تتمتع بها بلاد الاندلس فإن عدم الإستقرار السياسي الذي تميز به عهد ملوك الطوائف كان له أثر وخيم على الاوضاع الاقتصادية . وتجلى ذلك في مستويين :

الاول ، ان التقسيمات السياسية عرقلت التعاون الاقتصادي، ذلك أن عمق وحدة النزاع السياسي بين دول الطوائف الذي اتخذ الطابع العسكري خلال مدة فاقت السبعين عاماً ، قد ازداد تفاقماً .

والثاني ، إلى جانب عدم الاستقرار السياسي ، وجد تناقض خطير تمثل في توحيد مملكتي ليون وقشتالة تحت إمرة ألفونسو السادس ، وقد تمكن هذا الاخير بفضل الوضعية المضطربة التي كانت عليها دول الطوائف من أن يستأثر بثمار الاقتصاد الطائفي من طريق ممارسة الضغوط على هؤلاء الملوك .

ولقد شكل التطور الاقتصادي للأندلس عنصراً مادياً هاماً حرك شره ألفونسو السادس ويوسف بن تاشفين فيما بعد ، وإذا كانت مملكة ليون وقشتالة ومملكة ابن تاشفين قد عرفتا الاستقرار السياسي ، فتدهور أوضاع الطوائف جعلها، على النقيض من ذلك، فريسة سهلة .

ونتيجة لذلك يجب التذكير بالعوامل الاقتصادية كقوة محركة هامة خلال تحليلنا المدقق للعلاقات السياسية بين إشبيلية والوحدات السياسية الأخرى خلال القرن الخامس الهجري .

(2) الاقتصاد الحضري في إشبيلية

ساهمت الطبوغرافيا والتاريخ والثقافة المحلية الإشبيلية في خلق كيان فريد متميز بخصائصه ، ولئن كانت لإشبيلية عناصر مشتركة على مستوى التنظيم الاجتماعي مع الحواضر الإسلامية الأخرى فإنها ظلت أهم المراكز الحضرية بالاندلس ، وقد شهدت المدن الأندلسية في القرن الخامس الهجري نمواً واتساعاً أصبحت معه إشبيلية من أهم حواضر البحر الابيض المتوسط ، وقد نعتها بهذه الصفة أصحاب الرحلات خلال القرون الوسطى (11) .

---

(11) « نفح الطيب » ، ج 4 ، ص . 151 .

ولقد ساعدت الظروف الطبيعية على اتساع المدينة ونموها المطرد ، وامتدح الشعراء والكتاب هواءها الخفيف ونهرها الرائع ومنشآتها الجميلة (12) . وكما عرفت المدينة بتعدد قراها ، تميزت أيضاً بكثرة أسواقها ودورها البهية ، وحماماتها العمومية (13) . وقد اشتغلت الضواحي المجاورة الخصبة أحسن استغلال بفضل مياه الري (14) . واتسع نطاق المغروسات وفي مقدمتها أشجار الزيتون ، فكان المسافر يقطع مسافة خمس وعشرين ميلا تحت ظلال الزيتون الوارفة . ونتيجة لسهولة الملاحة التجارية بواسطة الوادي الكبير وقيام أسواق منظمة تنظيماً جيداً ، استطاع التجار الإشبيليون أن يحصلوا على ثروات مهمة خاصة عن طريق المتاجرة في زيت الزيتون الذي كان ينتج محلياً (15) .

إن بروز إشبيلية كمركز حضري هام خلال عهد بني عباد قد تقدم باستمرار، ويتضح ذلك من مقارنة وضعيتها في هذا الصدد، قبل وبعد فترة حكم بني عباد . كانت قرطبة عاصمة للاندلس بدون منازع خلال القرن الرابع الهجري . أما اشبيلية فبالرغم من أنها مركز حضري هام لم تكن تداني قرطبة بأية كيفية . ومع ذلك ، ففي أواخر القرن الخامس الهجري كانت قرطبة قد تعرضت للتخريب مراراً ، ولربما لم تعرف مدينة أخرى في

---

12) نفس المصدر ، ص 149 .

13) نفس المصدر ، ص 151 .

14) نفس المصدر ، ص 150 .

15 نفس المصدر .

الاندلس ما عرفته قرطبة من أعمال السلب المتتالية على يد جيوش المهدي وسليمان وعلي بن حمود والقاسم بن حمود، وابن ذي النون وابن عباد، الذين كان لهم جميعاً نصيب وفير في تخريب هذه المدينة وفي انهيار مكانتها تدريجياً خلال القرن الخامس الهجري. وعلى العكس من ذلك أدى تزايد القوة السياسية والعسكرية لإشبيلية ومناعة حاجزها الطبيعي المتمثل في الوادي الكبير، بالاضافة إلى سورها الهائل إلى إفشال محاولة القاسم بن حمود في احتلال المدينة. ولأسباب عديدة لم تستطع باقي المراكز الحضرية الاندلسية المهمة الوصول إلى أهمية النمو الذي بلغته إشبيلية وسرعته. فعلى سبيل المثال، عانت طليطلة وبلنسية من حالتي الحصار ثم الاحتلال على يد ألفونسو السادس ثم السيد، لكن خسائرهما لم تكن في مستوى ما لحق قرطبة من أضرار. وهناك مدن أخرى كغرناطة ومالقة وقرمونة والجزيرة الخضراء لم تكن قادرة على منافسة مكانة إشبيلية الحضرية العامة، بل كانت هذه المدن تضعفها هجمات الجيوش الإشبيلية. واستطاعت سرقسطة أن تدافع عن استقلالها الذاتي أمام أطماع جيرانها المسيحيين، كما استطاعت أن تواجه جيوش المرابطين. لكن معالمها الجغرافية والطبوغرافيا لم تكن تساعد على قيام الفلاحة وتنشيط التجارة خلافاً لما كانت عليه الحال في إشبيلية. ومما زاد في تفوق إشبيلية وبروزها كأعظم المراكز الحضرية بالاندلس اختيارها من طرف المرابطين لتكون عاصمة لهم في الأندلس بعد أفول حكم بني عباد. ثم استمر نمو إشبيلية ليبلغ أوجه في عهد الموحدين.

كانت نقطة الضعف التي اتسم بها الاقتصاد الاشبيلي على عهد بني عباد هي إصطباغه بصبغة من الإستقرار المصطنع. لقد كانت إشبيلية مثلها

مثل جل الدول الطائفية الاخرى تشتري سلمهـا من ألفونسو بدفـع جزيـة سنوية له . وكان ضرر هذه الجزيـة مزدوجاً ، فمن جهـة أولى ، كانت دائمة ، ومن جهة ثانية ، كان مال الجزية يؤدى عادة حسب شروط ألفونسو. (16) وكانت نتائج ثقل هذه الضريبة على الاقتصاد الاشبيلي عديدة، مما تسبب في إضعافه تدريجياً ، فأصبح بامكان جيش ألفونسو إلحاق مزيد من الضرر بها. كما ارتفعت الضرائب الداخلية لمواجهة إلحاح الجزية ، فتعثرت قدرة الاقتصاد الاشبيلي إلى أقصى الحدود . وباختصار ، إتجه الإقتصاد الإشبيلي نحو الاضطراب والتبعية . لقد كان ممكناً استعمال أموال الجزية التي سلمت لألفونسو مقابل شراء السلم في تقوية الجيش الإشبيلي كي يصبح قادراً على القيام بواجباته الدفاعيـة . وعلاوة على ذلك فكلما طالت مدة تسليم الجزية الى ألفونسو كلما تعسر الامتناع عن أدائها ، لأن جيش ألفونسو يزداد قوة لا بأموال الجزية التي قدمتها له إشبيليـة فقط ، بل وحتى الدول الطائفيـة الاخرى مثل غرناطة وطليطلة وبلنسية . وبعبارة أخرى ، إن إضعاف الاقتصاد الاشبيلي ينعكس بالنسبة لألفونسو تقوية طاقته الاقتصادية التي تزداد سنوياً .

إنه يصعب علينا تحديد القيمة المالية في دول الطوائف نظراً للتناقضات التي تصادفنا . فعلى سبيل المثال ، نجد الهدايا التي منحها المعتمد بن عباد للشعراء وصلت خمسمائة مثقال (17) . وجاوز هـذا القدر أربعين مرة قدر

16) فعلى سبيل المثال ، اشتكى الامير عبد الله بن بلقين من الورطة التي وقع فيها ملوك الطوائف لكون ألفونسو السادس فرض عليهم أداء أموال الجزية السنوية (« نفح الطيب » ، ج . 1 ، ص 76) .

17) « قلائد العقيان » ، صفحتا 9 ـ 10 .

عشرين ألف مثقال ، وهو المبلغ الذي طلبه ألفونسو في البداية من الامير عبد الله بن بلقين (18). ولم يتجاوزه قدر ثلاثين ألف مثقال الذي سلمه في النهاية عبد الله بن بلقين لألفونسو إلا بستين مرة (19) . إن مقارنة هذه المبالغ تدفعنا الى أحد استنتاجين فإما أن مبلغ الجزية كان قليلا عند مقارنته بالهدايا التي تعطى لبعض الشعراء ، وإما أن هؤلاء كانوا يحصلون على مبالغ تفوق ما يستحقونه بكثير .

إن مقدار مال الجزية التي أدته إشبيلية لألفونسو لدليل على قوة إقتصادها وحجم إيراداتها الاجمالية . فبالرغم من تصاعد مقادير الجزية المفروضة على إشبيلية سنة بعد أخرى ، فإن نفقات القصور ازدادت تبذيراً ، ولمواجهة ثقل الجزية وإلحاحها لجأ الحكام الى تصعيد الضرائب واستغلال الغنائم التي غنمت بسبب الهجوم على دول الطوائف الاخرى . فسلمت المقادير التي كان من الواجب صرفها في تكوين جيش قوي قادر على صد خطر قشتالة المتربص باستمرار لهذه الاخيرة في شكل جزية ، وبدلا من إبعاد التهديد المباشر ، ساهمت الجزية في تقويته لأن جيش ألفونسو أصبح قويا بسبب استغلاله لمال الجزية ، وأصبحت مطالبه أكثر إلحاحاً نتيجة لهذا التفوق .

ويمكننا أن نتساءل عن القدر المالي للجزية التي فرضها ألفونسو على إمارة إشبيلية ، هل كان أكثر من طاقتها ؟ . نشير بعض المفاوضات التي دارت بين وزير المعتمد ، ابن عمار ، وألفونسو إلى عكس ذلك ، فقد

---

18) « نفح الطيب » ، ج . 1 ص . 69 .
19) نفس المصدر ، ص . 75 .

وعد ابن عمار ألفونسو بتسليمه خمسين ألف مثقال مقابل مساعدته العسكرية ضد الامير عبد الله حاكم غرناطة (20) . ولم يرفض ألفونسو هذا العرض السخي إلا لكونه فاوض الامير عبد الله بشأن جزية قدرها ثلاثون ألف مثقال (21) . وكان غرض ابن عمار الوحيد على ما يتراءى هو السيطرة على غرناطة بعد تعهده بالتنازل عن جميع المكاسب المالية والغنائم لصالح ألفونسو (22) . ويكفي الشرف الذي صاحب هذا الاحتلال ، خاصة وأن الامر كان يتعلق بالاستيلاء على مدينة مهمة كغرناطة. فليس محتملا أن يكون موقف إشبيلية راجعاً الى حاجتها لمداخيل جديدة. ولئن كان هذا صحيحاً في بداية الامر ، فلقد تغيرت الوضعية في سنة 478 هـ / 1085 م. لأن الجزية السنوية أصبحت تشكل عبئاً ثقيلا على الاقتصاد الاشبيلي الى الحد الذي جعل المعتمد يدفع مالا مغشوشاً لمبعوث ألفونسو المكلف بجباية الجزية وهو اليهودي ابن شاليب الذي رفض أخذه متعجرفاً فقتله المعتمد ، وكان ذلك مؤشراً على بداية المواجهة الحربية مع ألفونسو (23) .

إن ظاهرة المقارنة بين قيمة النقود الاندلسية خلال القرن الخامس الهجري كانت شاذة ، فظاهرة تخفيض القيمة النقدية على عهد الطوائف تغيرت لما انتعش الوضع المالي في الاندلس غداة دخول المرابطين . ففي

---

20) نفس المصدر ، ص . 69 .
21) نفس المصدر ، ص . 75 .
22) نفس المصدر ص 72 .
23) « الحلل الموشية » ، ص 29 .

الفترة الاولى كان يكفي خمسمائة دينار لارشاء شخص مجهول للقيام باغتيال الحاكم ، أو لمنحه مكافأة على شعر ممتع (24) وكان حاكم مالقة تميم أخو عبد الله قد أرسل خمسين مثقالا إلى القاضي ابن سهل يستميله بواسطتها لمساندته على تشويه سمعة عبد الله عند يوسف بن تاشفين، لكن القاضي بن سهل امتنع تسلم المبلغ لاعتبار مبدئي (25) .

وبالرغم من ذلك ، فإن شذوذ المقاييس النقدية تزيد دهشة في قضية مدينة وادي آش التي تأتي أهميتها بعد مدينة غرناطة ، والتي كان يسيرها القائد علي خلال حكم جد عبد الله بن بلقين والتي كان دخلها السنوي يبلغ خمسة عشر ألف دينار ، وعندما كلف اليهودي يوسف بن النغرالة بتسيير شؤونها تضاعف دخلها أكثر من خمس مرات حيث وصل الى مائة ألف دينار (26) .

---

24) قدم يدير الشيخ الصنهاجي المسمى بفرقان مبلغ 500 دينار لارشائه مقابل مشاركته في الخطة الهادفة لوضع نهاية لحكم باديس في غرناطة (نفح الطيب ، ج 1 ، ص . 32) وقبل استسلام غرناطة ليوسف بن تاشفين ، تعرض الامير عبد الله بن بلقين لضغوط شديدة من طرف ضابط الجيش المرابطي الذي فرض عليه أداء مبالغ مالية تتراوح ما بين 500 و 1000 دينار (نفس المصدر ، ص 115) . ومن السخرية أن مبلغا قدره 500 مثقالا هو المبلغ المالي الذي أعطاه المعتمد بن عباد مكافأة لبعض الشعراء مقابل الابيات الشعرية التي نالت إعجابه («قلائد العقيان» ، صفحتا 9 ـ 10)

25) «نفح الطيب» ، ج . 1 ، ص . 116 .

26) نفس المصدر ، صفحتا 38 ـ 39 .

ونظرا للنفوذ السياسي العام الذي منحه حكام إشبيلية لعمالهم فإنه كان من المحتمل أن تكون سيطرتهم على التسيير المالي للحصن مستقلة عن أية مراقبة ، وإنهم بفضل هذه الحالة حصلوا على أرباح طائلة .

لقد فرض ألفونسو السادس على ابن ذي النون مبلغ مائة وخمسين ألف مثقال تضاف إليها خمسمائة أوقية من القمح تدفع لعساكره مقابل أن يعيده إلى حكم طليطلة (27) .

والذي يتناقض مع هذا القدر الضخم من المال هو كمية الذهب الذي قدرت قيمته بستة عشر ألف مثقال ، وهو كل ما زعم الأمير عبد الله أنه بقي بين يديه عند استسلامه لجيوش يوسف بن تاشفين (28) .

2) التركيب الاجتماعي

أ) التنضيد الاجتماعي والحركية

إن ملامح عالمية المواطنة لسكان إشبيلية الطائفية أفرزت عناصر متنوعة ، كانت مرتبطة أحيانا بوشائج منحلة وأحيانا بأخرى متماسكة بالرغم من الفوارق الجغرافية او الإثنية كالنسب أو العشيرة أو الدين . ومثل

27) «نفح الطيب» ، ج . 1 ، ص . 77 .

28) نفس المصدر ، ص . 156 . ومع ذلك ، من المحتمل أن يكون عبد الله بن بلقين قد قلل من المبلغ الذي حافظ عليه خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار الظروف التي كتب فيها مذكراته وهو سجين عند يوسف بن تاشفين .

شأن المدن الاندلسية الاخرى تميز سكان إشبيلية باختلاف أصولهم العرقية. فقد قبل عدد من السكان الذين تعود أصولهم إلى اسبانيا القيزيقوطية أسلوب الحياة في ظل الحكم الاسلامي ، وكان لعدد منهم أجداد مدفونون في إشبيلية قبل دخول الاسلام .

كان للعنصر العربي في إشبيلية تأثير قوي على المستوى السياسي والثقافي ، أما العنصر البربري فلم تكن له أهمية ولا تأثير في إشبيلية عكس ما كان عليه الامر في ممالك الطوائف الاخرى كغرناطة ومالقة وقرمونة والجزيرة الخضراء . وليس مسلما وجود مجموعات أخرى مثل الصقالبة الذين كان لهم وزن كبير في مناطق أندلسية أخرى كقرطبة في عهد بني أمية ودانية على عهد الطوائف . ومع ذلك لا تجب المبالغة في أهمية اختلاف الاجناس في إشبيلية لانها كانت قد تمازجت فيما بينها على مر السنين . فعدد الصقالبة والبربر في إشبيلية كان ضئيلا لم يطرح معه مشكل الصراع أو الاصطدام مع المجموعتين المتفوقتين العربية والاسبانية وعلاوة على ذلك ، فقد شاع الزواج والاختلاط بين العناصر المختلفة مما محا كل علامة للصراع على أساس تباين الجنس . وكان التسامح ميزة عامة طبعت المجتمع الاندلسي ، فالاقليات اليهودية والمسيحية كانت تعامل وفق التعاليم الاسلامية . ومما زاد في نقص الفوارق العرقية اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية ، ثم موقف عام يتسم بالانفتاح الذي مهد له الاتصال بالعالم الخارجي عن طريق المبادلات والتعليم .

لقد اعتمد الباحثون كثيرا على المنهج الجنسي في دراستهم للمجتمع

الاندلسي ، خصوصا خلال عهد بني أمية (29) . ودون أن ندخل في نقد هذا المنهج ، يجدر التأكيد بأن صلاحيته في تحليل المجتمع الاندلسي خلال القرن الخامس الهجري مستحيلة لانه لا وجود لبديهة تؤكد الصراع الجنسي كقوة إجتماعية متحركة . فلقد كان لعوامل إقتصادية وإديولوجية تأثير أقوى على الهيكل الاجتماعي في إشبيلية ، وهذه العناصر تنعكس بوضوح داخل الهيكل نفسه وقد تحكمت بعض المقاييس كالغنى والمهنة والشرف في تحديد نوعية المركز الاجتماعي للفئات المختلفة في إشبيلية ، لكن هذه الفئات لم تظل قائمة أو ساكنة كما تشير إلى ذلك درجة الحركية المرتفعة التي تميز بها المجتمع الاشبيلي في ظل بني عباد .

إن التركيبة الاجتماعية في إشبيلية كانت أفقية ، والغنى موزع بطريقة غير متساوية ، لكن مشكلة التقسيم الطبقي لمجتمع ما بدون فرض نظريات مسبقة هي مشكلة من نوع مختلف . إنه لمن الصعب تحديد طبيعة تنضيد تسلسلي نظرا للتناقضات العديدة التي تواجهنا من جهة ، ومن جهة أخرى لتعدد الاصطدامات الداخلية وعدم الاستقرار العام والاجتراف الاجتماعي المتدرج في إشبيلية . إن التعقيد يزداد عندما نقدم المشكل المتعلق بطبيعة الاصطدامات الطبقية داخل المجتمع الاشبيلي. وبعبارة اخرى

---

29) فعلى سبيل المثال ، انظر كتاب ليفي بروفنصال الكلاسيكي «تاريخ إسبانيا الاسلامية» : E. Lévi-Provençal, *Histoire d'Espagne musulmane*, 3 vols., Paris - Leiden, 1591).

أو كتاب «التراكيب الاجتماعية (الشرقية) و(الغربية) في إسبانيا الاسلامية» لبيير كيشار : (Pierre Guichard, *Structures sociales «orientales» et «occidentales» Dans l'Espagne musulmane*, Paris. 1977).

يصعب الحديث من صراع طبقي في ظروف لم يوجد فيها الوعي الطبقي على نطاق واسع .

إن تنضيد المجتمع الاشبيلي خلال عهد الطوائف يعكس تطوره الاجتماعي والاقتصادي والسياسي العام ، فقبل صعود بني عباد إلى الحكم كان المجتمع الاشبيلي يشبه سائر المجتمعات الاندلسية الاخرى حيث اعتبر النسب عنصراً مهما في المحافظة على التأثير السياسي والاقتصادي الخاصة كطبقة حضرية متمكنة .

فالقاضي ابن عباد استطاع أن يفرض نفسه كحاكم على إشبيلية وبمساندة أكثر الاشبيليين قوة وتأثيراً ، ومع ذلك كما أثبتنا في الفصل الاول من هذا البحث ، لم يتردد القاضي بن عباد في التخلص من أبرز مؤيديه بعد تغلبه على الخطر الذي كان يشكله جيش محمد بن حمود داخل إشبيلية ، وعساكر القاسم ابن حمود الواردة من قرطبة ، وكان الاثر الاجتماعي مضاعفا من جراء القضاء على أبرز الشخصيات الاشبيلية ، تجلى أولا في عدم قيام أية مجموعة قوية منافسة للبلاط. ففي حالة حكم بني عباد كان هذا يعني أيضا أن شرعيتهم كحكام سوف لن يتحداها أو ينازعها أحد داخليا ، وثانيا ، قامت الطبقة الوسطى بدور بناء وأكثر فعالية، ويجب استعمال عبارة «الطبقة الوسطى» بحذر هنا حيث لا تتضمن مفاهيم عصرية، وإنما استعملت هذه العبارة لعدم وجود عبارة احسن . لم يتصور المؤرخون المعاصرون مفهوم الطبقة الوسطى ولهذا لم يعطوها إسما ، ولكن هناك عدة عوامل تشير إلى وجود عناصر الطبقة الوسطى في إشبيلية . إن جو عدم الاستقرار خلال عهد بني عباد كانت تصاحبه حركية إجتماعية

صعودية من النوع الذي لا يمكن وقوعه إلا في جو من إنفاذية طبقية . وأخيراً ، باعتبار المقاييس السالفة : المهنة والدخل والثراء والنسب ، نجد أن فئة اجتماعية واسعة لا تدخل في إطار النفوذ الذي تملكه الخاصة ، أو العامة التي كانت تضم العمال والفلاحين .

لقد تصور الاندلسيون طبقة العامة فأصبح استعمالها شائعا ، وأخيراً ، إن قلة المصادر والمعلومات حول الطبقة الوسطى والطبقة العامة تجعل الجواب المقتنع مستحيلا فيما يخص عدة اسئلة يقدمها علماء الاجتماع حاليا.

إن درجة الحركية الاجتماعية العمودية المتصاعدة في إشبيلية كانت فيما يبدو عظيمة رغم أن المؤسسات والامتيازات التقليدية الموروثة استمرت سليمة إلى حد بعيد . فتحسين المركز الاجتماعي للأفراد كان الحصول عليه يتم بواسطة وسائل متعددة . كان النظام التعليمي مجانيا ومعمما وذا طابع ديني بالاساس ، يهيء ويكون الموظفين لمختلف فروع الادارة ، وهكذا استحال تطور مجتمع ذي فئات إجتماعية منغلقة ذاتيا يمثل النسب أهم مقاييس تقسيمها . وتحسين المركز الاجتماعي للشخص يأتي إما بالعمل في ميدان القضاء أو في قرض الشعر في بلاط الحاكم ، أو بالحصول على منصب وزاري . وهناك أشخاص من غير الاشبيليين حصلوا على مناصب عالية في إشبيلية وقد سبق ذكرهم ، وإن شغلهم لمناصب الوزراء والقضاة والفقهاء وعدم انتمائهم لاشبيلية ينفي إمكانية تحسينهم لوضعيتهم الاجتماعية عن طريق الوراثة ، بينما يثبت تكيفهم مع الاوضاع بإشبيلية . إن الحركية الاجتماعية العمودية التصاعدية كانت شائعة . ولذلك شكلت المهارات المكتسبة عنصرا مهما لتحسين الوضعية الاجتماعية ، وأكثر من ذلك الوراثة ، حيث أن النظام السياسي كان ملكيا . فكل من النسب والانتماء العرقي شكل

عنصراً أساسياً في تقرير امتيازات بني عباد والموظفون الخاضعين لهم . وأهم مثال في هذا الصدد هو الوزير أبو بكر بن زيدون الذي كان لابيه أبي الوليد عبد الرحمن بن زيدون الملقب بذي الوزارتين أثر عظيم في حصول إبنه على منصب عالي كهذا (80) .

ورغم الحركية الاجتماعية التصاعدية في إشبيلية فإن عنصري عدم الاستقرار وعدم الامن كانا يساهمان في الحركية الاجتماعية التنازلية . فعلى سبيل المثال ، خسر المنافسون السياسيون للقاضي بن عباد وفيهم مجموعة من الشخصيات الاشبيلية التي أبدت زعامته ضد بني حمود مركزهم الاجتماعي الممتاز بعد أن شيد القاضي بن عباد دولته بإشبيلية ولما تولى المعتمد بن عباد الحكم قضى على عدد من الاشبيليين البارزين وأقصى عامله ابن عمار من منصبه وجرده من جميع الامتيازات السياسية فكان من نتائج ذلك تحطيم مركزه الاجتماعي . وفي مثل ذلك يكون فقدان المركز الاجتماعي نتيجة لتصفيات سياسية . ومع ذلك ، اعتبارا للاتجاه السائد للحركية الاجتماعية بإشبيلية (نسبة الذين صعدوا في السلم الاجتماعي في مقابل نسبة الذين نزلوا فيه) فإن الحركية الاجتماعية الصعودية الافقية تبدو أكثر أهمية نظراً لازدهار التجارة والفلاحة في إشبيلية اللتين كونتا العمود الفقري لاقتصادها .

---

80) برز أبو بكر بن زيدون في البلاط الاشبيلي مقتفيا خطوات أبيه ، ووقع اختيار المعتمد بن عباد عليه ضمن البعثة الرسمية التي أرسلها ملوك الطوائف لطلب النجدة من يوسف بن تاشفين في مواجهة الفونسو السادس وذلك بعد احتلال هذا الاخير لطليطلة («الحلة السيراء» ، ج 2 ، ص 99) .

2) الخـاصة .

إذا أخذنا بعين الاعتبار التأثير الحاسم الذي مارسه الاعيان والوجهاء الاشبيليون ، والنهوض المباغت لحكام بني عباد وتمكنهم من السلطـة ، يمكننا أن نستنتج أن الحـاكم لم يعد يجلب فحسب بل غـدا يشجع الاعقاء البارزين في المجتمع . ولهذا كان تطور هذه النخبة الجديدة في ظل الحكم .

كان بلاط الحاكم في إشبيلية يمثل القمة من حيث مستوى المعيشة وأسلوب الحياة الرفيع ، وإلى جانب كونه يجسم النفـوذ السياسي شكل البلاط مثالا أعلى للمجتمع برمته . فرغم عزلته وانفصاله الكامل عن الواقع الإجتماعي الإشبيلي ورغم مزاجه المتطفل الذي كون شرطاً أساسياً لوجوده ، ساهم البلاط بفعاليـة في تكوين طمـوح العامـة نحو تحسين وضعيتهم الإجتماعية وفي نفس الوقت غذى طموح الخاصة وزاد في تقويـة مكانتهم . إن التقرب من بلاط الحاكم والإنتماء إليه كان يعـد الوسيلـة الوحيـدة للحصول على دخل ونفـوذ لا يتأتى الحصول عليهمـا بوسائل أخرى . إتسم البلاط بسمتين متناقضتين : تميزه عن الحياة العادية التي تسود المجتمـع الاشبيلي ، وفي نفس الوقت إعتمـاده على المجتمـع الـذي يقـدم السنـد المادي والبشري .

لقد شكل بلاط الحاكم عالماً خاصاً ومتميزاً من عـدة جوانب ، فحياة اللهو والترفيه ، الطوباويـة ، وانعزاله ، جعلت المجتمع ينفر منـه ، والتناقض وزداد حدة أمام مشاكل المجتمع كما أن تميزه عن المجتمع كان يتصف بعدة صفات :

1 ـ كان الحاكم هو الشخصية المركزية في البلاط ، وتنظيم أنشطة البلاط يتجه بالاساس نحو إرضائه وتسليته . فهو الذي يقرر تواريخ ويحدد طبيعة وأهمية الحفلات أو الجلسات التي تعقد في بلاطه ، وكان حضوره وترأسه لها من اللوازم الضرورية .

2 ـ كان البلاط غريباً في عمقه عن الواقع الاجتماعي الاشبيلي ، فهو عبارة عن نسخ تصوري للبلاط القرطبي في عهد الامويين ، فكان المراد هو ربطه بسمعة هذا الاخير واكتساب شهرته .

3 ـ وكان البلاط منعزلا عن المجتمع حتى على المستوى المادي ، فأنشطته تستثني مشاركة المجتمع ككل ، ويكون فوق المجتمع .

4 ـ حاول البلاط أن يظهر أمام المجتمع كمثل أعلى لا ينطبق مع الواقع ، فكانت طموح العامة تغذي ولا تزود بحلول واقعية .

ورغم كل ذلك ، فالبلاط احتفظ بروابط مع المجتمع على المستوى السطحي وفي درجة محدودة ، فكانت أطره توظف من المجتمع ولم يقتصر التوظيف على أهل إشبيلية بل تعداهم إلى أفراد من أقطار مجاورة في الاندلس . وربما كان أبرز الموظفين السامين في البلاط من الشعراء ، فهؤلاء لم يكونوا يتقاضون رواتب هامة إعتباراً لبراعتهم الشعرية فحسب ، بل كانوا يشغلون مناصب سياسية . ولم تنحصر حاشية البلاط في طبقة إجتماعية معينة بل اختيرت من مراتب إجتماعية مختلفة . فعمل في بلاطات القاضي بن عباد والمعتضد عدد من الشعراء ، أما بلاط المعتمد بن عباد فامتاز بخاصية جلبه لأبرزهم ، ويمكن ذكر أمثلة عديدة عن الذين عملوا منهم في بلاط بني عباد . فالشاعر أبو الحسن بن اليسع نظم شعراً في أم

عبيد فمنحه المعتمد خمسمائة دينار ثم عينه عاملا على لورقة (31) . وزار أبو الحسن علي بن عبد الغني الحصري القيرواني بلاط المعتمد فنظم شعراً يمدحه به (32) . ولما كان المعتمد قد وقع في أسر يوسف بن تاشفين الذي أمر بنقله إلى أغمات ، عرج في سفره على طنجة وهناك جاد على أبي الحسن القيرواني بثلاثين مثقالا مكافأة له على ما جادت به قريحة الشاعر في هذه المناسبة ، وكان ذلك القدر آخر ما بقي لدى المعتمد (33). ولما هاجر أبو مصعب بن محمد بن أبي الفرات القرشي من صقلية التي احتلها المسيحيون إلى إشبيلية نال إعجاب المعتمد بشعر نظمه خلال لقائهما الاول سنة 465 هـ / 1072 م . (34) . وذكر ابن حمديس عن وروده إشبيلية أول مرة حيث ظل مغموراً وخاب أمله إلى درجة أنه فكر في مغادرتها . ثم ما لبث أن أسعفه الحظ حين توصل بخطاب من المعتمد يأمره بالقدوم إليه في بلاطه وهناك شرع في اختبار قدراته الشعرية . وقد أعجب المعتمد بأشعار ابن حمديس وأعطاه جائزة سنية (35) . وتعتبر أبيات الأسعد بن بلطة في مدح المعتمد شهادة أخرى (36) . وربما كان أشعر الشعراء في بلاط المعتمد هم ابن عمار وابن اللبانة وابن زيدون .

---

31) «القلائد العقيان» ، صفحتا 9 ـ 10 .
32) «الذخيرة» ، القسم 4 ، ج 1 ، صفحات 261 ـ 263 .
33) «الذخيرة» ، القسم 2 ، ج . 1 ، صفحتا 66 ـ 67 و«الاحاطة» ، ج . 2 ، ص . 113 .
34) «خريدة القصر» ، ج . 2 ، ص . 102 .
35) «ديوان ابن حمديس» ، ص . 543 .
36) «الذخيرة» ، القسم 1 ، ج . 2 ، صفحتا 800 ـ 801 .

ورغم أن هؤلاء الشعراء أخذوا هدايا كثيرة ومكافآت عن قصائدهم إلا أن ارتباطهم بالدولة العبادية لم يكن محركه الكسب المادي فحسب، ويشهد على ذلك رثاؤهم لحكام بني عباد، وخير مثال ما نظمه عدد الشعراء من قصائد في رثاء المعتمد، ومن المعروف أن أبا بكر عبد الصمد أنشد أبياتاً شعرية على قبر المعتمد في أغمات (37). ومن الشعراء الذين رثوا المعتمد أبو الحسن علي الحصري القيرواني (38). وابن عبدون (39). وأبو محمد بن حمديس الصقلي (40). وبعد مرور قرنين ونيف على وفاة المعتمد رحل الوزير والشاعر الشهير ابن الخطيب سنة 761 هـ / 1359 م. إلى زيارة قبره في أغمات، ونظم بالمناسبة مرثية في شأنه (41).

لقد كان الشعراء يوفدون، في الغالب، في مهمات دبلوماسية، فقد بعث زهير حاكم ألمرية وزيره أبا جعفر بن عباس في مهمة إلى قرطبة ورافقه في هذه البعثة بعض الشعراء كابن برد وأبي بكر المرواني وابن الحنات والطنبي (42). كما استقبل المعتمد بعثة موفدة من قبل حاكم

---

37) هناك إشارات الى هذه الابيات الشعرية أو نصها الكامل (أنظر مثلا «الذخيرة»، القسم 2، ج 1، صفحتا 67 ـ 68 و«الاحاطة»، ج 2، ص 120 و«أعمال الاعلام»، ص. 192 و «وفيات الأعيان»، ج. 5، ص. 31). وقد أسندت هذه الابيات الشعرية خطأ إلى ابن اللبانة في كتاب «الكامل في التاريخ»، ج. 8، ص 177.

38) «الذخيرة»، القسم 4، ج. 1، ص. 272 و«الذخيرة»، القسم 2، ج 1 صفحتا 66 ـ 67

39) «الذخيرة»، القسم 1، ج 2، صفحات 818 ـ 819.

40) «الذخيرة»، القسم 1، ج. 2، ص. 816.

41) «أعمال الاعلام»، ص. 191.

42) «الذخيرة»، القسم 1، ج. 1، صفحتا 305 ـ 306.

ألمرية المعتصم يترأسها الشاعر أبو الاسبق بن أرقم بصحبة أبي عبيد البكري وأبي بكر بن صاحب الأحباس (43) . كما تردد ابن عمار في سفارات المعتمد وعرف عن ابن زيدون إشرافه على بعثات دبلوماسية (44) .

إن الشعر المعاصر لتلك الفترة يعكس بوضوح الروعة والبذخ في قصور إشبيلية والحياة في بلاط الحاكم ويظهر من خلال هذا الشعر أن أسلوب الحياة داخل البلاط كان يطبع خيال أفراد الحاشية ويلهم إحساسهم خصوصاً الشعراء .

ويكتسي شعر البلاط أهمية خاصة بالنسبة للمؤرخ ، لأنه يصف الجو النفساني الذي سيطر داخل البلاط وطبيعة العلاقات الإنسانية فيه ولكن مما يكسبه أهمية أكثر ، قيمته كبديهة تاريخية معاصرة حيث أن هذا الشعر كون جزءاً متكاملا مع أسلوب الحياة السالف .

لقد تمتع حكام بني عباد بالعيش الرغيد في قصورهم العديدة التي لا زال الشعر المعاصر لذلك العهد يحتفظ بأسمائها وأوصافها . وعند ما انتقل المعتمد من قصر المبروك إلى قصر المكرم نظم الوزير أبو جعفر بن أحمد أبياتاً شعرية يصف فيها البلاطين (45) . والمكرم هو القصر الذي ودع فيه المعتمد عامله على شلب ابن عمار (46) . ويعتقد أن هذا القصر هو أحدث

---

43) «قلائد العقيان» ، ص 8 .

44) «الذخيرة» ، القسم 1 ، ج 1 ، صفحتا 338 - 339 .

45) «الذخيرة» ، القسم الثالث في كتاب «تاريخ بني عباد» لراينهارت دوزي :
(R. P. A. Dozy, *Historia Abbadidarum*, vol. 1. p p. 141 - 142, Footnote 106) .

46) «قلائد العقيان» ، ص . 6 .

القصور وقد طرأ عليه تغيير ، فأصبح قصر إشبيلية (alcazar) . وهناك أوصاف شعرية رائعة لبعض القصور كالواحد والزاهي المشهور بقبته الفريدة (47) . كما تناول الشعراء في قصائدهم وصف حدائق وبساتين وناقورات بعض القصور البديعة كالزاهي والزاهر إلخ (48) .

إن الرونق الذي طبع قاعات القصور اكتسى شكلا رومانتيكيا في خيال الشعراء . فقد أطلق إسم سعد السعود على قاعة في قصر الزاهي وهي من أبهى القاعات في إشبيلية (49) . ويقارن ابن زيدون قاعة الثريا في قصر المبارك بالنجوم (50) .

وقد تعدت حياة اللهو والتسلية عند الحاكم وحاشيته جو القصور إلى الطبيعة بمختلف مظاهرها ، فالوادي الكبير لم يستغل في الملاحة والري فحسب ، وإنما شكل مشهدا طبيعيا رومانتيكيا ، يتنزه فيه الحاكم ، ويتبادل المعتمد واعتماد الرميكية ، لدى بداية قصة تحابهما ، باقات شعرية (51) . وكان نزل الفنت البديع بأزاهيره يقع قريبا من إشبيلية (52) . كما أن جمال إشبيلية ظل منقوشا في أذهان الكثير من زوارها (53) .

---

47) «قلائد العقيان» في كتاب «تاريخ بني عباد» لراينهارت دوزي :
R . P . A . Dozy , *Historia Abbadidarum* ' vol . 1 ' p . 61

48) «قلائد العقيان» ، ص ، 25 .

49) نفس المصدر .

50) «ديوان ابن زيدون» ، ص 158 .

51) «نفح الطيب» في كتاب «تاريخ بني عباد» لراينهارت دوزي :
R . P . A . Dozy , *Historia Abbadidarum* , vol . 2 p . p . 225 - 226 .

52) «ديوان ابن زيدون» ، صفحتا 112 ـ 118 .

53) أنظر على سبيل المثال أبيات ابن عمار بخصوص موضوع إشبيلية («قلائد العقيان» ، ص 87)

3) العامة: الطبقتان الوسطى والسفلى

العامة هو اللفظ الاندلسي لتعيين الاغلبية الاقل إمتيازاً، وهي عكس الخاصة. كانت ملامح العامة في إشبيلية خلال عهد الطوائف مشابهة لملامحها في الاقطار الاندلسية الاخرى رغم أن الاوضاع في إشبيلية كانت تختلف في بعض نواحيها عن الامارات الاخرى. فمثلا كانت الحياة بصفة عامة في إشبيلية هادئة ومستقرة، وكانت هذه المدينة من بين المدن المزدهرة في الاندلس. ومن ناحية أخرى، فإن السيطرة الثابتة التي مارسهـا حكام بني عباد حالت دون لجوء شعبي كبير نحو العنف كوسيلة للتعبير عن الإحباط.

إن المعنى الاساسي للفظ العامة يدل على طبقـة غير محظوظة، بينما ازدهرت في إشبيلية طبقـة وسطى ناجحة وحيويـة لم يمنحهـا الاندلسيون إسماً. ولم تنظم الطبقة الوسطى نفسها لحماية مصالحها كقوة إجتماعية نظراً لغياب الوعي في هذا الصدد، بينما سيطر عليها شعور جماعي شامل بالانتماء إلى الامة الاسلامية. ومع ذلك فإن وجود الطبقة الوسطى الاشبيليـة يفرض نفسه على عدة مستويات.

وكانت مصالح الطبقة الوسطى تخدم أحياناً مصالح الخاصة. وقد خفضت الحركية الاجتماعية من الفوارق بين الطبقتين، إن وجود الطبقـة الوسطى الاشبيلية كان بمثابة «تغليف» المنية الفوقية للجهاز السياسي والاداري فالادارة المعقدة المطلوبة لتسيير شؤون إشبيلية كانت تتطلب تجنيد عدد كبير من الموظفين. واعتباراً لمكانة إشبيليـة السياسية والتجارية دعت الحاجة إلى قيام جهاز إداري ذي أهميـة، وازاء هـذا النظـام المنظم تنظيماً

راقياً تطلبت الادارة السياسية وجود موظفين مؤهلين. وكان حضور الطبقة الوسطى يفرض نفسه على مستوى قصر الحاكم وداخل الهيكل السياسي والاقتصادي، وكانت هذه الطبقة تشمل أساسا التجار الكبار والصغار وأصحاب المشاريع الصناعية وموظفي الدولة والملاكين الصغار. ويجب التأكيد على هذه النقطة عند مناقشتنا للتغيير الاجتماعي والاستمرارية في إشبيلية.

كانت العامة تتألف من مجموعتين من السكان لم تكن لهما الامتيازات في المناطق الحضرية والريفية. ويصعب تحديد أيهما تتمتع بوضعية أحسن ذلك أن حالة أية منهما كانت أقل حظوظاً. ولربما كانت الاوضاع الريفية أسوأ مما هي عليه في المدن حيث استفادت العامة إلى حد ما من ازدهار التجارة والصناعة. أما في الريف، فاستغل العمال بكل السلطة، كما أن ثقل الضرائب كان له مفعول أقوى، وذلك ما دفع في بعض الاحيان إلى إثارة التمرد ضد ملوك الطوائف الآخرين (54). وبسبب سخط سكان الأرياف على الشؤون العامة في الدولة لم تكن بعض الطوائف كغرناطة تعتمد عليهم سياسياً. وكانت المناطق الريفية التي لم تكن تتمتع بالحماية الضرورية كسائر المناطق الحضرية التي كان يحميها الجيش والسور المحيط بها، تعاني من الجور والآلام نتيجة لعمليات السلب والنهب والغارات التي كانت تتعرض لها. وفي إشبيلية كانت العامة مسالمة ولم تلجأ إلى التمرد للتعبير عن سخطها واستيائها كما حصل في قرطبة خلال القرن

54) كانت الضرائب الثقيلة السبب الرئيسي وراء ثورة لوسنة، في دولة غرناطة الطائفية (كتاب التبيان، ص. 131).

الخامس الهجري . كانت الجماهير تعلن من عصيانها كلما مكنها من ذلك الجو السياسي (55) .

وقد أبرز الغنى الذي تمتع به الحكام التناقض في توزيع الخيرات داخل المجتمع مما تسبب في خلق درجة من الوعي بالاوضاع العامة البئيسة . ورغم الفاقة والاستغلال الذي تميزت به العامة في إشبيلية فإنها لم تذهب إلى العنف الجماعي . فباستثناء وقوع حوادث منعزلة في السوق (56) . أو حالات السرقة (57) ، فإن العامة الاشبيلية رضيت بمصيرها . ومن جهة أخرى . يمكن الظن بأن رفاهية الحكام قد ساهمت في إذكاء طموح العامة ، فاستطاع بعض الافراد تحسين وضعيتهم . وقد كان الانخراط في الجيش اختياراً مغرياً للبعض ، خاصة عند ما نلاحظ سمعة الجيش الاشبيلي من جراء حملاته العسكرية الناجحة .

وطبقة العامة تشمل أيضاً عدة فئات ويمكن تصنيف العبيد في هذا الاطار ، لكنه يبدو من العسير التقرير ما إذا كانت وضعية العبيد أحسن

---

55) لقد أصيبت قرطبة بأضرار أكثر من غيرها نتيجة الاصطدامات المتعددة بين مجموعات مختلفة . لقد بدأت هذه الاصطدامات سنة 400 هـ . / 1009 م . عندما وضعت نهاية لحكم عبد الرحمان بن أبي عامر («البيان المغرب» ، ج . 3 ، صفحات 66 ـ 67) ثم استمرت الاصطدامات وعمليات التخريب حتى فترة تأسيس دولة بني جهور سنة 422 هـ / 1030 م . عندما فرض السلام من جديد («الذخيرة» القسم 1 ، ج . 2 ، صفحات 602 ـ 614)

56) «الذخيرة» ، القسم 1 ، ج . 1 ، ص . 416 .

57) كثيرا ما كانت المنازل في المدن الاندلسية عرضة لهجومات اللصوص ليلا («نفح الطيب» ، ج . 1 ، ص . 205) .

أو أسوأ من وضعية الاحرار ؟ ففي بعض الاحوال كان العبيد يمنحون فرصاً عادلة لإظهار مهاراتهم وقدراتهم ، وبذلك شكلوا قسماً من جيش بني عباد (58) . وفي هذه الحالة فقد تمتعوا بوضعية تشبه وضعية الجنود الآخرين .

ومثلما جرى في قضية إعتماد الرميقية استطاعت الجارية الموهوبة أن تحسن وضعيتها . لقد بيعت إبنة المعتمد بن عباد ، بثينة ، كجارية في سوق النخاسة بعد خلعه ، لكنها تزوجت من محبوبها وهو ابن تاجر إشبيلي لما كشفت الحجاب عن أصلها . بيد أن هذه الحالات الاستثنائية والمنعزلة لا تعكس الأوضاع العامة للعبيد . كما أن وصول بعض الشعراء من وسط فقير كابن عمار وابن وهبون إلى بلاط المعتمد لا يعكس بحق الفرص التي منحت للعوام ليحسنوا من وضعيتهم . ويجب كذلك أن نتساءل هل شكلت الأقليات المسيحية واليهودية طرفاً من العامة ؟ فكما كان هناك مسيحيون ويهود أثرياء ، كان آخرون – بلا ريب – يعيشون في نفس وضعية العوام المسلمين ، فكانت حظوظهم مشابهة لحظوظ العامة بصفة خاصة ، ولم يكن الالتحاق بالجيش يتطلب أي شرط ديني (59) .

---

58) «الذخيرة» ، القسم 2 ، ج . 1 ، ص . 16 .

59) هناك أمثلة عديدة لمشاركة المسلمين في جيوش مسيحية بصفتهم مرتزقة خلال القرن الخامس الهجري كما هناك أمثلة لمشاركة المسيحيين في الجيوش الاسلامية الاندلسية. ولا يخلو ذلك من الاستغراب، اعتبارا لانضمام جيوش إسلامية بأسرها إلى الجيوش المسيحية ضد جيوش إسلامية أخرى، واعتبارا كذلك لمساندة الجيوش الاسلامية لجيوش مسيحية ضد جيوش مسيحية أخرى. فعلى سبيل المثال، تحالف ألفونسو السادس مع الجيش الاشبيلي ضد عبد الله بن بلقين حاكم غرناطة («كتاب التبيان»، صفحات 69 ـ 72) وبذل ألفونسو السادس جهوداً جبارة لاعادة يحيى بن ذي النون إلى الحكم في طليطلة (نفس المصدر، ص 77).

وبصفة عامة ، فأحوال هذه الطبقة بإشبيلية لم تكن بأسوأ من أحوال مثيلاتها في مناطق أندلسية أخرى ، لأن بعض أفراد العامة الإشبيليين وجدوا فرصاً لتحسين أحوال عيشهم نتيجة للإزدهار العام وقوة دولة إشبيلية الطائفية .

وبالرغم من أن العامة الإشبيلية كانت هي الطبقة الاقل حظوظاً فقد برز أثرها كقاعدة للهيكل الاقتصادي والسياسي . فإشبيلية بصفتها مركز حضري هام ، كانت تعتمد كثيراً على العامة في ميدان العمل اليدوي كنقل البضائع أو حملها أو إفراغها ، ولا تنفي مشاركة العامة في التجارة على أقل مستوى، فكانت تحمل إلى السوق منتوجات فلاحية محلية ومنتوجات الصناعة اليدوية . كما تحملت هذه الطبقة عبء الخدمات لفائدة الطبقة المحظوظة في المجتمع ، وكانت أيضاً تسهر على خدمة وصيانة بلاط الحاكم . فكان كل ثقل النظام السياسي بتحمله كاهل العامة ، كما كانت هذه الاخيرة تكون معظم الجيش الإشبيلي وأيضاً المراتب السفلى من سلم الجهاز الاداري وكانت المساواة أمام القانون مضمونة بين جميع أفراد المجتمع رغم أن العوام كانوا غير محظوظين داخل النظام الاجتماعي الذي شكلوا فيه جزءاً لا يتجزأ . ولهذا كان دور العامة ذا أهمية بالغة كالعماد المتين الذي يرتكز عليه المجتمع الاشبيلي . وبالرغم من تناقض مستوى المعيشة وأسباب الحياة مع الخاصة ، فإن أحوال العامة في إشبيلية لم تكن بأسوأ من مناطق أندلسية أخرى أو بالمقارنة مع وضعية الفلاحين في الشمال المسيحي .

3 ـ التغيير الاجتماعي والاستمرار

1) العائلة والعلاقات الشخصية

بالرغم من قلة المستندات التي تتعلق بهذا المجال ، فإنه يبدو واضحاً أن وحدة العائلة كانت تشكل النواة الاساسية للتنظيم الاجتماعي في إشبيلية . فالعائلة لعبت داخل المجتمع الإشبيلي دوراً بالغ الاهمية خاصة في مستوى تشكيل العقائد والمواقف والقيم الفردية . فكل أفراد المجتمع الإشبيلي مسلمون أو ذميون يندمجون اندماجاً تاماً في العائلة بغض النظر عن دخلهم ومركزهم الاجتماعي وانتماءاتهم للجماعات . كانت العائلة الإشبيلية ذات طبيعة أبوية ، فالاب هو المسؤول عن رعاية الأفراد الآخرين ، وهو يتخذ القرارات المهمة المتعلقة بالعائلة بأسرها ، الشيء الذي يبرز مقدار التعظيم والتقدير الذي كان يتمتع به الاب من قبل أفراد عائلته، ولا ننسى أيضاً أن تأثير النساء بصفة ضمنية غالباً ما كان حاسماً . وإذا ما كانت العائلة ممتدة فروعها فإن أعضاءها الذكور يتمتعون بالاحترام ، ومكانة المرأة داخل العائلة لها وافر الاهمية بينما كان دورها محدوداً باعتبار مساهمتها في ميدان السياسة والتسيير الاداري ، ومع مرور السنين تقدمت مكانة المرأة وازدادت مسؤوليتها ، حيث أصبحت أكثر انسجاماً اجتماعياً . وكان دور جميع النساء الإشبيليات متشابهاً بغض النظر عن انتمائهن الديني أو العرقي . أما نساء البلاط فكانت لهن وضعية استثنائية بسبب تأثيرهن الكبير على دواليب الحكم ، ونذكر بالخصوص ما تمتعت به إعتماد زوجة المعتمد من نفوذ وقوة وإن لم تبلغ قوة صبح أم هشام الثاني خلال حكم المنصور بن أبي عامر .

لقد مارست التأثير على المعتمد فيما يخص علاقاته مع وزيره ابن عمار الذي كانت تكن له الكراهية . ومما يشهد على مساهمتها في الحياة العامة للبلاد ، ما تحمله النقوش من ذكر إسمها يوم الشروع في بناء صومعة إشبيلية سنة 472 هـ . / 1079 م . (60)

وإذا ما حاولنا النظر في دور المرأة داخل المجتمع الإشبيلي على نطاق أوسع ، فإننا نفتقر إلى المستندات المتعلقة بذلك ، بالرغم من أن أثرها على العائلة يبدو واضحاً نظراً لقيامها بمهمة التسيير المنزلي .

كان للعائلة بوصفها عاملا للتكيف الاجتماعي أثر قوي على الفرد من الناحية النفسية ، وكان تأثيرها دائماً أسبق من عوامل التكيف الاجتماعي الاخرى كالنظام التعليمي . وبعد مرحلة النضج والتكوين تتسع أنشطة الفرد الاجتماعية وتتعدد . إلا أن روابطه بالعائلة تظل وثيقة دائماً ، ولذلك كان انتقال الفرد من دائرة الوصاية العائلية إلى المجتمع يتم تدريجياً ويختلف في نمطه ومدته من فئة إجتماعية لاخرى . وكمثال على ذلك ، فإن نشأة المعتمد في بلاط والده كانت بقصد تهيئته للوصول إلى العرش بينما ينشأ ابن فلاح إشبيلي في بيئة تغلب عليها البساطة . إن معلوماتنا حول العائلة محدودة ، وهذا يرجع أساساً إلى أنها مسألة شخصية ، والواقع أنه يصعب مقارنة سلوك فرد إشبيلي داخل إطار عائلته وخارجها . لكن إذا كان الانتقال حاداً وفجائياً بالنسبة لبعض الاشخاص ، فهو غالباً سهل ، خاصة وأن العائلة كانت وحدة أساسية في المجتمع الاشبيلي .

---

(60) « النقوش العربية في إسبانيا » لليفي بروفنصال :
E. Lévi-Provençal, *Inscription arabes d'Espagne*, Leiden-Paris, 1931, p. 40.

كانت طبيعة العلاقات الانسانية في إشبيلية متماثلة مع تلك التي سادت في أنحاء أندلسية أخرى لأن القوى الاجتماعية التي حددت تطورها كانت أيضاً متشابهة. بسبب وجود روابط سياسية وثقافية وإجتماعية متينة كانت تجمعها. فالعلاقات الانسانية في المجتمع الاندلسي كانت مباشرة ومتشابكة، كما أن الروابط الشخصية كانت متينة ومتطورة جداً وتلك من خصائص المجتمع الاندلسي البارزة والناتجة عن تشعب قنوات التكييف الاجتماعي.

فامتداد العائلة ووجود المسجد والسوق ومختلف المؤسسات الاخرى جعلت الاتصالات البشرية ضرورية وواسعة النطاق. وعلاوة على ذلك، ساهمت الاحتفالات الرسمية والدينية أو التي لها طابع إجتماعي في ازدياد مشاركة واجتماعية الجماهير. ولذلك اندمج الفرد اندماجاً كلياً في المجتمع وفي نفس الوقت حافظ على خصوصياته الفردية وخصوصيات المجموعة المنتمي إليها. وشكلت الاصطدامات والتناقضات بين العلاقات الانسانية داخل المجتمع الاندلسي قوى الانعاش وعنصر الجمود في آن واحد. فكانت العلاقات الشخصية تطبع بطابع الاخلاص والصدق أحياناً وبطابع عدائي في غالب الاحيان، ومن جهة أخرى وصلت الروابط الشخصية إلى درجة جد متطورة، ليس بسبب مصالح مادية فقط، وإنما أيضاً، لاسباب عاطفية محض. فالاخلاص كان موجوداً وبإمكانه أن يدوم مدى الحياة (61). كما أخذ الحب العذري

---

61) كانت لجارية علاقة مع قريب لسيدتها فتم جلدها على ذلك دون أن تعترف بذنبها (« طوق الحمامة» ص. 199) ماتت ابنة القاضي محمد بن احمد بن إيحيى من كثرة بكائها على زوجها المتوفى (نفس المصدر، ص. 168). (وحتى عندما ضربت)، رفضت جارية في منزل السمري محمد بن أحمد الركيزة أن تغني أو تمارس علاقات جنسية إلخ . . . مع سيدها الجديد رغم ضربها بسبب إخلاصها الشديد لصاحبها السابق (نفس المصدر، ص 198).

أشكالا كانت أحياناً متطرفة ولا عقلانية (62) . ففي قرطبة مثلا أدى الحب الانفعالي ببعضهم إلى سوء أحوالهم وطبائعهم ووصل بهم إلى حد يرثى له (63) . وقد أدى أحياناً التغيير في المواقف العاطفية إلى نشوب عدوان كلامي بين الاطراف (64) . وبالاضافة إلى ذلك ، هناك مثال متناقض لامرأة متدينة لم تشعر بأن نزاهتها قد مست في شيء عند ما ساعدت شاباً فدبرت له موعداً مع جارية (65) وإلى جانب الامثلة السالفة لم يخل المجتمع من أشخاص لم تشتملهم العواطف كما ذكر ابن حزم (66) .

---

62) ظهرت جارية في منام لعمار بن زياد ففتنته بجمالها ثم جادله ابن حزم في الموضوع حيث قدم له حججاً عقلانية قبل إقناعه بسخافة ارتباطه بشخصية خيالية (نفس المصدر ، صفحتا 63 ـ 64) . وهناك مثال لرجل محب عبر عن حبه في رسالة إلى محبوبته كتبها بدمه (نفس المصدر ، ص . 111) . ومن أغرب الامثلة ، مثل يحيى بن أحمد بن أبي عبده ومثال محمد بن يحيى بن جدير اللذين أصابهما الحمق عندما جرى بيع جاريتهن أمامهما (نفس المصدر ، ص . 240) .

63) ذكر ابن حزم مثالا من هذا النوع دون تحديد إسم الشخص المعني (نفس المصدر ، ص . 68) . وفي وليمة حضرها الطبيب اليهودي إسماعيل بن يونس ، اكتشف هذا الاخير رجلا مغرماً من خلال التقاسيم الحزينة البادية على وجهه (نفس المصدر ، ص . 81) . أحبت قرطبية شابا الى درجة كبيرة من الانفعال النفساني حيث أصبحت بحاجة إلى العلاج (نفس المصدر ، ص . 239) .

64) سرد ابن حزم قصة شرح فيها كيف غدر أصدق حبيب أفشى أسراره عندما تعكرت علاقتهما (نفس المصدر ، صفحتا 196 ـ 197) . لقد استقبل أبو محمد بن وليد بن مكسر الكاتب صديقه ابن حزم ببرودة وعامله معاملة تتصف باللامبالاة عندما لقيه بعد غربة طالت عدة سنوات وذلك رغم الصداقة القوية التي كانت تربطهما من قبل عندما كان والد ابن حزم وزيرا . ثم انتقده ابن حزم بشدة في رسالة موجهة إليه كما توصل بجواب مماثل (نفس المصدر ، ص . 197) .

65) نفس المصدر ، صفحتا 139 ـ 140 .

66) نفس المصدر ، ص . 69 .

وكانت الرومانسية من السمات التي طبعت المجتمع وواقع الحياة في الاندلس، وهناك عدة صور لهذا الواقع . فأبو يوسف بن هارون المشهور بالرمادي اقتفى خطى جارية في طريقها من باب العطارين الى قنطرة وهو يبوح لها بحبه وهيامه بها الى أن غابت عن أنظاره (67) ولقد فتنت امرأة مصعب عاصم بن عمر حتى أثنته عن كتابة رسالة (68) . كما وجدت الرومانتيكية في أشكال لم تكن بعيدة عن الفروسية (69) وكان التحرر الخلقي معروفاً وبالاخص لدى الطبقة الخاصة في المجتمع ، بالرغم من أنه كان محصوراً في مستوى غير رسمي وفي حدود السرية . وقد نقل ابن حزم أمثلة شتى عن ذلك (70). وكان التحرر الخلقي في إشبيلية شائعاً

---

67) نفس المصدر ، صفحتا 89 ـ 90 . ويعبر ابن حزم نفسه عن شعوره العاطفي نحو فتاة في السادسة عشر من عمرها شاهدها في بيت ابيه وهو شاب فلم يفلح في تكليمها . وقد صاحبه ذلك الشعور حتى كبر (نفس المصدر ، ص . 248) .

68) نفس المصدر ، ص . 122 .

69) ومن جملة هذه الامثلة أن مقدما بن الاصفر الذي كان يقوم بالصلاة في المسجد بانتظام ، أطال النظر في شاب إلى أن غضب هذا الاخير فقصده وضربه دون ان يشعر بالاهانة ، بل على عكس ذلك شعر ابن الاصفر بلذة عظيمة في ذلك كله (نفس المصدر ، صفحتا 129 ـ 130) .

70) مارس ابن كاتب مجهول الهوية علاقة سرية مع فتاة من أصل عائلي رفيع ومكانة اجتماعية بارزة (نفس المصدر ، ص . 91) . أعجبت فتاة بابن قائد وعند فشلها في جلب أنظاره إليها قبلته فأحبها (نفس المصدر ، ص . 162) . أدى تخلي فتاة عن حبيب لها من أصل اجتماعي راقي الى إلهاب عواطفه نحوها (نفس المصدر ، ص . 196) . وسجلت بعض حالات اللواط ، منها حالة أحمد بن فتح وهو ابن كاتب امتاز بالاخلاق الفاضلة إلى أن أحب المسمى إبراهيم بن أحمد (نفس المصدر ، ص . 193) .

عند رجال الحاشية ويضرب به المثل عند الحكام والوزراء كالمعتضد والمعتمد وابن عمار وغيرهم (71).

2) المؤسسات الاجتماعية: المسجد والسوق

كان المغزى الاجتماعي المديني في إشبيلية يعبر عنه على مستويات مختلفة وبطرق متعددة. فكان دور المسجد كأداة للتنظيم الاجتماعي يمس المجتمع بأكمله تقريباً ما عدا الاقليتين المسيحية واليهودية اللتين كانتا بدورهما منظمتين في إطار الكنائس والبيع (72).

---

71) إن مثال المعتمد بن عباد يعكس ذلك بوضوح. فبالرغم من حبه العميق لزوجته الرسمية إعتماد، كانت نفس المعتمد تميل إلى النساء. فعلى سبيل المثال، عبر عن عواطفه نحو جارية إسمها وداد في أبيات شعرية («المطرب»، ص. 18). كما ودع امرأة كان يحبها بأبيات شعرية (نفس المصدر).

72) لم يصلنا أثر الكنائس المسيحية أو اليهودية الاشبيلية التي يعود تاريخها إلى القرن الخامس الهجري كما هو الامر بالنسبة لبعض المدن الاندلسية الاخرى مثل قرطبة حيث لا زال السواح يزورون معبد اليهود. إلا أنه من المؤكد أن المسيحيين واليهود عاشوا في إشبيلية. فعلى سبيل المثال، وقع حادث خلال عهد المعتضد بإشبيلية يتلخص في خصام بين يهودي ومسلم في السوق («الذخيرة»، القسم 1، ج 1، ص. 418). ويعتقد البعض أن الكونت سيسناندو دافيديث (Sisnando Davidiz) عمل في بلاط المعتضد، ومع ذلك، وخلافاً لغرناطة حيث اشتغل اليهودي أبو إبراهيم إسماعيل بن النغرالة وابنه يوسف وزيرين تحت إمرة باديس، جد عبد الله بن بلقين («كتاب التبيان»، صفحات 30 - 34 و 36 - 42 و 46 - 55 و «الذخيرة»، القسم 1، ج. 2، صفحتا 761 - 769)، كان دور المسيحيين واليهود محدوداً في إشبيلية، مما يؤيد رأينا في كون المسجد كان يشكل المركز الاساسي لتنظيم الحياة الاجتماعية لأغلبية السكان الاشبيليين.

وكان للمسجد أثر غير مباشر وواضح على النظام السياسي من حيث كونه يساهم في تعليم وتكوين الموظفين . وكان هذا التعليم رسميا يتمثل في حضور الفئة المثقفة لدروس بعض الاساتذة المشهورين. (73) والى جانب ذلك ، فالحضور ظل مفتوحا أمام الجميع ولم تقيده أية شروط . وكان المسجد مكانا للعبادة وأيضاً للتعليم . وحيث سادت العلوم الدينية في البرامج التعليمية كان الفقهاء الاشبيليون يمثلون نوع العالم الذي كان النظام التعليمي ينتجه آنذاك . وتتضح أهمية التعليم في إشبيلية بوجود أساتذة بارزين انتشر صيتهم في الآفاق ، فتوافد عليهم الطلبة من مختلف أنحاء الاندلس. (74) لقد كانت السمعة الحميدة التي اتصف بها شيوخ إشبيلية منتشرة حتى قبل عهد بني عباد ثم استمر ذيوعها خلاله . ويبرز أبو محمد الباجي ، وهو أشهر محاضر إشبيلي في القرن الهجري الخامس ، مستوى الارث التعليمي الاشبيلي الممتاز والذي شكل العامل الايجابي والاساسي وراء نشاط الفقهاء في عهد بني عباد .

73) فعلى سبيل المثال ، يذكر ابن بشكوال أساتذة عدد من الشخصيات التي درسها عند تقييمه لمقدرتها الثقافية .

74) بالرغم من كون معظم الفقهاء غير الاشبيليين الذين عاشوا في إشبيلية قد درسوا على يد أساتذة غير إشبيليين (قرطبيين في غالب الاحيان) ، اكتسبت إشبيلية أهمية ثقافية إلى درجة أنها كانت تجلب الطلبة من « الخارج » ، فعلى سبيل المثال ، حضر أبو المصرد عبد الرحمان بن منفوخ القرشي (369 هـ . /979 م . ـ 446 هـ . / 1054 م .) دروس أبي عمر الاشبيلي (« كتاب الصلة » ، ج . 1 ، ص . 320) . وجلب أبو محمد الباجي عدداً من الطلبة من قرطبة نفسها ، من بينهم أبو القاسم خلف سعيد الأزدي بن منفوخ (الذي كان حيا سنة 403 هـ . / 1012 م .) (نفس المصدر ، ص . 162) وأبو عبد الله محمد بن عمر المالكي الحافظ (المتوفى سنة 419 هـ . / 1028 م .) (« كتاب الصلة » ، ج . 2 ، صفحتا 483 ـ 484) .

وكان أثر محمد الباجي الثقافي ملموسا داخل دائرة عائلته ، وخلفه إبنه أبو الحسن علي الباجي كأستاذ مشهور ، وكان من ضمن تلامذته أبو الحسن شريح بن محمد الرعيني المقري. (451هـ / 1059م - 559هـ / 1063م) وربما كان أبو محمد بن علي بن محمد الباجي حفيد الفقيه الشهير. (76) ومن ضمن أسماء طلبة ومريدي أبي محمد الباجي الذين بلغت إنجازاتهم درجة من الاهمية :

1) أبو عمر أحمد بن محمد اللخمي (ت . 428 هـ / 1036 م) (77).
2) أبو بكر أحمد بن القيسي السبتي (ت . 429 هـ . / 1037 م) (78).
3) أبو عمر أحمد بن محلب البحراني (381 هـ . / 991 ـ 449 هـ . / 1057 م .) (79).
4) أبو القاسم أصبغ بن عيسى البحصي الاعبدري (333 هـ / 944 م . - 418 هـ ./ 1027 م.) (80)
5) أبو القاسم ثابت بن محمد الاموي (338 هـ . / 949 م . ـ 426 هـ / 1034 م .) (81) .

75) « كتاب الصلة » ، ج . 1 ، ص . 229 .
76) نفس المصدر ، ص . 275 .
77) نفس المصدر ، ص . 48 .
78) نفس المصدر ، ص . 50 .
79) نفس المصدر ، ص . 57 .
80) نفس المصدر ، ص . 109 .
81) نفس المصدر ، ص . 134 .

6) أبو محمد حجاج بن يوسف اللخمي بن الزاهد (ت . 429 هـ . / 1037 م .) (82) .

7) أبو عمر سعيد بن ابان الخولانـي (ت . 1440 هـ . / 1048 م . وله حوالي 87 سنة) (83)

8) عبد الرحمان بن عبد الله الحضري بن شبراق (ت . 418 هـ . / 1027 م) (84) .

9) أبو المطرف عبد الرحمان بن عبد الواحد الجذامي (ت . 418هـ . / 1027 م .) (85)

10) أبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز اللخمي بن الباجي (447 هـ . / 1055 م. _ 532 هـ . / 1137 م .) (86) .

11) أبو بكر محمد بن مروان الايادي (ت . 489 هـ . / 1095 م .) وسنه حوالي 86 سنة (87).

---

82) نفس المصدر ، ص . 149 .

83) نفس المصدر ، ص 228 .

84) نفس المصدر ، ص . 341 .

85) نفس المصدر ، ص . 318 .

86) نفس المصدر ، ص . 347 .

87) « كتاب الصلـة » ، ج . 2 ، ص . 487 . ورد ذكر أبو محمد الباجي في لائحة الاساتذة القرطبيين . ومع ذلك ، فإن جميع الاشارات الاخرى تصفـه كأستاذ كان يدرس بإشبيلية . ونتيجة لذلك ، إذا كانت هذه الاشارة صحيحـة ، فإن الخلاصة التي تفرض نفسها علينا هي أن أبا محمد درس في إشبيلية وقرطبة معاً .

12) أبو القاسم محمد بن عبيد الله البناني المعمر (330 هـ . / 941 م . 424 هـ / 1032 م) (88)

13) أبو بكر محمد بن إبراهيم الاشعري بن أبي المقنع (ت. 426 هـ / 1034 م .) (89) .

14) محمد بن ثابت الاموي (ت . 435 هـ . / 1043 م.) (90) .

15) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الاحدب (357 هـ . / 967 م.- 437 هـ . / 1045 م.) (91).

16) محمد بن علي الاموي (ت. 422 هـ . / 1030 م.) (92).

17) أبو بكر محمد بن عمر الزبيدي (ت . 501 هـ . / 1107م.) (93).

18) أبو عبد اللـه مروان بن حكم القرشي (386 هـ . / 996 م . - 462 هـ. / 1069م) (94) .

وهكذا لم يكن عدد الاساتذة الاشبيليين قليلا ، وفي لائحة لاسماء الفقهاء الذين اشتغلوا في القضاء ، نلاحظ أنهم أكملوا دراستهم الاولى في إشبيلية بالرغم من أن بعضهم تابع دراسته في قرطبة أو الشرق ، ومن

---

88) نفس المصدر ، ص . 490 .

89) نفس المصدر .

90) نفس المصدر ، ص 495 .

91) نفس المصدر ، ص . 500 .

92) نفس المصدر ، ص . 503 .

93) نفس المصدر ، ص . 536 .

94) نفس المصدر ، ص . 581 .

جهة أخرى فإن الدلائل تشير إلى رقي الانشطة التعليمية وتعدد الفقهاء ممن درسوا في إشبيلية ، وإلى تحقيق هذه المدينة اكتفاءها الذاتي في ميدان التعليم.

ومن الاشبيليين الذين عرف عنهم أنهم مارسوا مهنة التعليم أو الذين ذكر أن تلامذتهم حضروا في حلقات دروسهم ، نجد الأساتذة الآتين :

1) أبو عمر أحمد بن عبد القادر الاموي (ت. 420 . / 1029 م). (95).

2) أبو عبد الله أحمد بن محمد الخولاني (418 هـ . / 1027 م - 508 هـ . / 1114 م .) (96).

3) أبو القاسم أحمد بن محمد القيسي (436 هـ / 1044 م. - 520 هـ . / 1126 م.) (97) .

4) أبو جعفر أحمد بن محمد اللخمي (ت . 533 هـ . / 1138 م .) (98).

5) أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن أبي قابوس (351هـ . / 962 م - 413 هـ . / 1022 م .) (99) .

6) أبو إسحاق ابراهيم بن أيمن (460 هـ . / 1067 م.) (100).

7) أبو القاسم إسماعيل بن محمد الحضري (ت . 429 هـ. / 1037م.) (101).

---

95) « كتاب الصلة » ، ج . 1 ، ص . 44 .

96) نفس المصدر ، ص . 78 .

97) نفس المصدر ، ص . 81 .

98) نفس المصدر ، ص . 88 .

99) نفس المصدر ، ص . 94 .

100) نفس المصدر ، ص . 98 .

101) نفس المصدر ، ص . 104 .

8) أبو الحسن بن محمد الرعيني المقرىء (451 هـ . / 1059 م. - 559هـ / 1163 م.) (102) .

9) أبو محمد عبد الله بن أحمد سليمان (444 هـ / 1052 م . - 522 هـ / 1128 م) (103) .

10) أبو الحسن علي بن عبد الرحمان التنوخي بن الاخضر (514 هـ / 1120 م.) (104) .

11) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الاهدب (357 هـ . / 967 م. - 437 هـ . / 1045 م.) (105) .

وتتجلى أهمية المسجد في الدور الذي يقوم به كمركز تعليمي ، فقد أمكن لعدد مهم من الاشبيليين الاستقرار في أنحاء مختلفة من العالـم الاسلامي . وإذا كانت إشبيلية قد جلبت إليها الموهوبين من خارج البلاد، فإن الاشبيليين بدورهم اغتنوا من خلال تجارقم التي شملت زيـارة أقطار متعددة في الاندلـس والمغرب والمشرق لاغـراض تعليمية وثقافية وبقصد الحـج والتجـارة .

وكانت الاتصالات بين إشبيلية ونواحي أخـرى متطورة بحيث أن عدداً من الاشبيليين هاجروا نحو أقطار أخرى وتكيفوا مع بيئات جديـدة

---

102) نفس المصدر ، ص . 230 .

103) نفس المصدر ، ص . 263 .

104) « كتاب الصلة » ، ج . 2 ، ص . 404 .

105) نفس المصدر ، ص 500 .

واستقروا بها إما مؤقتا أو نهائيا ، فقد استوطن مصر أبو القاسم أحمد بن محمد الحجي بن يحيى (ت . 425 هـ . / 1024 م) (106) وأبو عمر بن عياش القضاعي المالكي (عاش حوالي سنة 453 هـ . / 1061 م) (107) واستقر بمدينة سبتة أبو بكر أحمد بن محمد القيسي السبتي (ت . 492هـ / 1037 م) وإليها انتسب (108) كما استقر أبو الفتح سعدون بن محمد الزهري (ت . 440 هـ / 1048 م .) في مكة حيث توفي وعمره ثمانون سنة (109) ورحل إلى المغرب أبو محمد عبد الله بن اسماعيل (ت . 497 هـ / 1103م) حيث استقر بأغمات (110) .

والجدير بالذكر أن وزن العلماء والفقهاء في إشبيلية كان بالغ الاهمية شأنها في ذلك شأن الاقطار الاندلسية الاخرى ، وذلك لان اتصالهم بالناس كان مباشراً أكثر الحكام ، علاوة على هذا : كان الفقهاء في غالب الاحيان من أصول متواضعة لذا كانت جدورهم الشعبية عميقة ، فكثيراً ما عبروا عن مطالب وطموحات الجماهير ورفعوا شكاياتهم . بالرغم من أن ثقة الجماهير في الفقهاء كانت تتأرجح بحسب المناطق وفي مختلف أزمنة التاريخ الاندلسي . ومع ذلك فوجودهم كان يفسر دائما كقوة معارضة أو مؤيدة للحاكمين .

---

106) « كتاب الصلة » ، ج . 1 ، ص . 59 .
107) نفس المصدر ، ص . 218 .
108) نفس المصدر ، ص . 60 .
109) نفس المصدر ، ص . 225 .
110) نفس المصدر ، ص . 279 .

يمثل المسجد أهم وسيلة للاتحاد ليس روحيا فحسب وإنما إجتماعيا أيضا ، فزيادة على جوانبه الموحدة كمكان للتجمع والعبادة الجماعية وخلفياتها المعنوية ساهم في ازدياد الالتحام والتكامل الروحي . وكان الميدان الاجتماعي والسياسي يكملان التجمع التعليمي والديني في المسجد، ولكن التجمع السياسي كان محدوداً ومراقبا بسبب انعدام بديهة حرية التعبير كليا في إشبيلية .

إن الاجماع على قبول المسجد والاعتراف به كمؤسسة إجتماعية تنظيمية أساسية ، ودوره كأداة تسييس ونقل المعلومات والدعاية ، كلها عناصر خدمت الدولة حيث مكنتها من ممارسة السيطرة السياسية على السكان الاشبيليين . ومع ذلك ، لا يمكننا تحديد طبيعة ودرجة هذا التأثير بالضبط . إن تعايش الدولة والمسجد أمر واضح ومسلم به ، ولكن ما هو أثر المسجد على الدولة ؟ فرغم أن القرارات السياسية العليا كان يقررها القصر فإن السوق شكل المكان الذي تنظم فيه الانشطة التجارية . وإذا كانت السلطة التنفيذية للدولة مستقلة عن المسجد ، فإن هذا الاخير شكل أداة أساسية لربط الصلة بين الدولة والشعب في إشبيلية . فالمعلومات كانت تنقل عبره إلى الجمهور ، ولكن لم يسمح أي نظام بالحوار المفتوح، وإنما كان على الدولة أحيانا أن تأخذ بعين الاعتبار رد الفعل تجاه أي قرار ستتخذه وأن عليها أن تتراضى والهيكل الاجتماعي العام . وكان على الدولة كذلك أن تعمل داخل حدود ومحيط المعايير والتقاليد الاجتماعية الموجودة ، وأن تجانب خرق العرف الاجتماعي أو المعتقدات الدينية.

وإلى جانب المسجد نجد السوق ، عبارة عن مؤسسة إجتماعية هامة

في إشبيلية . ان التقدير الكامل لدور السوق الاشبيلي خلال القرن الهجري الخامس يمكن وضعه في إطار مكانة إشبيلية كمركز تجاري هام ، كان نمو إشبيلية يتم سريعا بالمقارنة مع نمو سائر المدن الاخرى في الاندلس خلال القرن الهجري الخامس ، وتعود بعض أسباب هذا التطور الى عوامل خارجية ، منها : إنحطاط قرطبة ومدن أندلسية كبرى أخرى ، وهناك عوامل داخلية تتجلى مثلا في الانتاج الفلاحي الذي كان يتحسن أساسا بواسطة الري . ثم إن الصناعات الصغيرة واستغلال المناجم ساعدت كذلك على ترويج إقتصادها ونشاطها التجاري . كما ساهم تفوق إشبيلية السياسي والعسكري واعتداءاتها على جيرانها الطوائف الآخرين في زيادة التداول المالي بسبب الحصول على الغنائم . بيد أن قيامها بدفع الجزية التي فرضها ألفونسو السادس ظل يعرقل ازدهارها الاقتصادي، وبالرغم من خطورة التبعية لقشتالة فإن ذلك لم يؤثر على بقاء إقتصادها وازدهارها التجاري الذي تعرض للهلاك . ومن ناحية كانت نهاية دولة بني عباد نتيجة لهذه التطورات حلا سياسيا للازمة الاقتصادية . فلم تمس تجارة إشبيلية في جوهرها بسبب هذا التغيير ولم تشمل أو تتعرض للانقلاب . كان أهم عنصر ومحفز في نفس الوقت وراء نجاح إشبيلية المنقطع النظير كمركز تجاري تمتعها بمنفذ مباشر على البحر الابيض المتوسط عن طريق الوادي الكبير . ولهذا السبب جلبت إشبيلية إليها التجار ليس من مختلف أنحاء الاندلس فحسب ، بل وأيضا من المشرق الاوسط خاصة من إفريقيا عبر المغرب .

لقد جلبت أهم خصائص السوق الاندلسية إهتمام الباحثين حديثا ، خصوصا من ناحية المنظورين : الحضري المحض

والاقتصادي (111) ولكن هناك بعداً ظل مهملا هو دور السوق الاندلسية كعامل للتكييف الاجتماعي وباعث للوعي السياسي. وبالرغم من قلة المصادر التي تساعد على دراسة السوق الاشبيلية والاندلسية خلال القرن الهجري الخامس يمكننا أن نعيد بناءه بفضل المادة الموجودة عن السوق خلال الفترات المتأخرة.

شكل إقتصاد المكان عنصراً رئيسياً في المراكز الحضرية الاندلسية وكان هذا معكوسا بوضوح في السوق. فالتجارة كانت تمارس في شوارع ضيقة وساحات صغيرة غالبا ما تكون قريبة من المسجد الذي يعتبر المؤسسة الاسلامية العامة في المدينة الاسلامية. لقد تخصصت بعض النواحي في بيع بضائع معينة. وبينما عرفت بعض الاسواق حركة مستمرة كانت أسواق أخرى تعرف نشاطاً مؤقتاً. وكما اختلفت طبيعة المنتوجات المتبادلة كماً وكيفاً. اختلف أيضا حجم السوق ونطاق التبادل التجاري.

كانت الاهمية الاولى للسوق الاشبيلي خلال القرن الهجري الخامس تمثله كقاعدة للتبادل التجاري الذي كان ينظمه المحتسب أو صاحب السوق.

لا يمكن إنكار دور المحتسب بإشبيلية، لكن هذا الموظف لم يكن يتمتع بنفس درجة السلطة التي تمتع بها في أماكن وأزمنة مختلفة، وعادة

---

111) ضلي سهيل الشال، انظر مقال «الساحات والاسواق والمتاجر في المدن الاسلامية الاسبانية» لطوريس بالباس:

L. Torres Balbas, *Plazas, zocos y tiendas de las ciudades hispano-musulmanas*, *Al-Andalus*, XII (1947), pp. 437-476, especially pp. 446-72 for the Andalucian suq.

وفي موضوع ولاية السوق في الاندلس، أنظر كتاب «صاحب السوق في إسبانيا» لبيدرو شالميطا:

Pedro Chalmeta, *El señor del zoco en España*, Madrid, 1973, pp. 357-494,

ما يقوم صاحب المدينة مقام المحتسب مثل الحادث الذي حصل بين مسلم ويهودي في سوق إشبيلية سنة 462 هـ / 1069 م. (112) وليس واضحا عما إذا كان حسم صاحب المدينة في مثل هذه الحوادث يعود إلى حدود سلطة المحتسب أم إلى طبيعة الحادثة. ولقد كانت إشبيلية بصفتها مركزاً تجارياً لا تستغني عن خدمات صاحب المدينة.

فخلال عهد بني أمية كان المحتسب يخضع لمراقبة القاضي لكن تعيينه أضحى فيما بعد من إختصاص الحاكم. (113) وفي أوائل القرن السادس الهجري كان القاضي يعين المحتسب بشرط أن يوافق على ذلك الحاكم كما يشير إلى ذلك ابن عبدون. (114) وكان دور المحتسب يقتضي محاربة الغش وتنظيم الانشطة التجارية كما كان يقوم بمراقبة وفحص حجم السلع والاوزان والمكاييل. (115) وأحيانا تتداخل مسؤوليات المحتسب مع واجبات القاضي بحيث أن منصب المحتسب كان يكمل منصب القاضي. (116).

ولهذا لم يكن المحتسب موظفا من طبيعته يعجب به التجار والبائعون، لكن دوره كان ضروريا للاشراف والحفاظ على تجارة عادلة ومشروعة. وعلاوة على ذلك، كانت وظيفة المحتسب تحمل مضامين دينية حيث

---

112) « الذخيرة » ، القسم 1 ، ج . 1 ، ص . 419 .

113) « المقدمة » ، ج . 2 ، ص . 577 .

114) « الرسالة في القضاء والحسبة » ، ص 20

115) « المقدمة » ، ج . 2 ، صفحتا 576 - 577 .

116) نفس المصدر ، و « الرسالة في القضاء والحسبة » ، ص . 20 .

الله كنون رئيس العلماء المغاربة حاليا في المؤتمر الذي خصص لابن حيان في الرباط من 19 الى 23 نفمبر 1981 . ونشر هـذا البحث بعنوان «نقطة ضعـف في تاريخ ابن حيان» («المناهل» ، العدد 29 (1984) ، ص : 301 ـ 309) .

44) يمكن ذكر مثال الفقيه ابي بكر بن ملح الذي عاش سكيرا قبل ان يتحول الى عالم محترم .

(ابن بسام ، «الذخيرة» ، القسم الاول ، ج . 1 ، المصدر السابـق ، ص : 452) . وعبر ابن ملح عن تغير سلوكه في ابيات شعرية (نفس المصدر) .

45) «الذخيرة» ، القسم الاول، ج . 1، المصدر السابق، ص: 11 ـ 12 .

46) «الذخيرة» ، القسم الاول ، ج . 2 ، المصدر السابق ، ص : 826 .

47) نفس المصدر .

48) نفس المصدر .

49) نفس المصدر .

50) تطرقنا لهذا الاتجاه بالتفصيل عندما قدمنا الاوضاع الاقتصادية العامة في الاندلس في القرن الهجري الخامس اعتمادا على المصادر التاريخية الاولية في الفصل الثاني من هذا الكتاب .

51) ربما كانت احسن محاولة لتوضيح المشاكل المنهجية العامة المرتبطة بعصر الطوائف تلك التي قام بها الدكتور حسين مؤنس في مقالته «اعتبارات حول عصر ملوك الطوائف» :

Hussayn Monés , Coniderациones sobre la epoca de los reyes de taifas, Al - Andalus , XXXI (1966) , PP . 305 - 328 .

ومع ذلك ظهرت بعد صدور هذه المقالـة دراسات جيدة حول عصر ملـوك الطوائـف .

52) مثلا ، قرر القاضي بن عباد ان يعترف بهشام الثاني وبسيادته على إشبيلية والاندلس سنة 426 هـ . ـ 1034 م . («الذخيرة» ، القسم الثاني ، ج .

المسيطرة ثقافياً وسياسياً (118) . وعلى العكس من ذلك ، لم يعارض ابن زيدون نظام دول الطوائف في حد ذاته ، بالرغم من أنه انتقد حكام قرطبة ومجتمعها ، وانتقل إلى إشبيلية التي استقر بها حيث بلغ مكانة بارزة . وهناك أيضاً ، موقف أبي الوليد الباجي الذي سعى لإصلاح حال المجتمع الاندلسي بمحاولته إقناع عدد من ملوك الطوائف القيام بإصلاح سياسي معم (119) . إلى جانب هؤلاء نجد ابن حيان المؤرخ الذي يعتبر كتابه « المتين » طرحاً تاريخياً ونقدياً لعهد الطوائف وللمجتمع الاندلسي خلال القرن الهجري الخامس (120) . لكن هذه الاحتجاجات لم تتبلور وتمتد لتأخذ شكل معارضة إجتماعية منظمة . فالانتقادات الشفاهية أو المكتوبة التي قدمها من كانوا واعين بتدهور الاوضاع الاجتماعية لم تصلح كأساس لحركة سياسية ومن جانب آخر ، فإن هذا الوعي يمكن المؤرخ الحديث من إعادة

---

118) لقد عبر ابن حزم ، الذي كان مضطهداً بسبب أفكاره السياسية ، عن شعوره بالعزلة في أبيات شعرية (« الذخيرة » ، القسم 1 ، ج 1 ، ص . 171) . فعلى سبيل المثال هناك انتقادات شديدة وجهها ابن حزم إلى ملوك الطوائف لموافقتهم على أداء الجزية للملوك المسيحيين وإلى الفقهاء الاندلسيين الذين استغلوا الدين لمصالحهم الشخصية كما انتقد ابن حزم النتائج الاجتماعية السلبية للضرائب غير العادلة التي فرضها الجشر، وملوك الطوائف على الشعب الاندلسي . أنظر :

Miguel Asin Palacios, *Un códice inexplorado del cordobés Ibn-Hazm*, *Al-Andalus*, II, (1934), pp. 35-37.

119) « الذخيرة » ، و « الحلة السيراء » ، ج 2 ، ص 98 .

120) وبالرغم من الانتقادات الشديدة التي قدمها ابن حيان لعدد من ملوك الطوائف كان معجباً بأبي الوليد بن جهور حاكم قرطبة والذي عمل معه (« الذخيرة » ، القسم 1 ، ج 2 ، ص 605) .



بناء أو تصور بعض العناصر الاجتماعية الاساسية لهذه الفترة التي نمت نتيجة هشاشة المؤسسات الاجتماعية المتواجدة آنذاك كالرشوة التي غالباً ما تفاحش أمرها ، فإلى حد ما أصبحت المشروعية تصوراً نسبياً . فبالرغم من قيام نظام قضائي موحد ، كانت المصالح السياسية تعترض سبيله ، فما كان مشروعاً في دولة طائفيـة ، كان محرماً في دولة أخرى . وفي نفس الوقت ، ما شرعه الحاكم يصبح لاغياً بمجرد ذهاب عهـده . إن مشكلة المشروعية في دولة طائفية معينة لا تكتسب دلالتها إلا إذا وضعنا ذلك في إطار مشروعية مفهوم الدولة الطائفية نفسها ، فرغم أن ظاهرة الرشوة لم تعرف تأييداً رسمياً فإنها استمرت كنتاج للنظام .

كان الفساد يتضح على عدة مستويات ، وربما كان أخطرها المستوى السياسي نظراً لهشاشة أسس وبنية الدولة الطائفية ، لقد مثلت ردود الفعل التلقائية والعنيفة وسيلة مشتركة للابقاء على الإمتيازات والسلطـة فمعارضة حاكم دولة طائفية معين لا تنهض إلا بمساعدة حاكم آخر . وزيادة على ذلك انعكست التصفية المنظمة للمعارضين السياسيين بعمق على المستوى الاجتماعي حيث بلـغ الفساد درجـة خطيرة وأصبـح مستشرياً في المجتمع الاندلسي ، واختلفت أشكاله من رشوة واستغلال ممتلكات وأموال العامة ومحسوبية بينما سادت الرشوة داخل المجتمع . وقد ذكر ابن حيان في رسائله أسماء بعض الشخصيات ووصف الانشطة التي مارسهـا (121) . ورغم

---

(121) فعلى سبيـل المثـال ، أنظر الحالات الموصوفـة دون ذكر أسماء المعنيين في « الذخيرة » ، القسم 1 ، ج 2 ، ص . 888 .



أن معظم هذه الشخصيات كان أصلها من قرطبة فإن الظروف الاجتماعية كانت متشابهة في إشبيلية خلال عهد الطوائف مما يفسر وجود أوضاع فساد متماثلة . وعلاوة على ذلك . فكل من قرطبة وإشبيلية تمتعتا بروابط ثقافية وإقتصادية متينة مع الدول الطائفية المجاورة . كما أن معرفة ابن حيان بإشبيلية . خاصة خلال العقد الاخير من حياته تدلنا على أن الشخصيات التي أشار إليها كانت تقطن إشبيلية .

ووجود مظاهر الفساد والرشوة في إشبيلية لم تخل الإشارة إليها أيضاً . وإن كان انتشارها أقل درجة مما ساد في قرطبة (122) . وإذا كان

122) أصيبت قرطبة بتخريب شديد في مناسبات متعددة خلال « الفتنة » من طرف جيوش عبد الجبار المعروف بالمهدي الذي أطاح بآخر حاكم بني أبي عامر ثم خلع هشام الثاني وهدم مدينة الزهراء (« الذخيرة » ، القسم 1 ، ج . 1 ، ص . 99) . و « البيان المغرب » ، ج . 3 ، ص 64) . أما الناصر سليمان بن الحكم فقد خلع المهدي بعد تخريب كاف الكثير (« البيان المغرب » ، ج . 3 ، ص . 113) ثم خلف علي بن حمود سليمان ليفرض حكمه المطلق بعد اكتسابه سمعة الحاكم العادل (« الذخيرة » ، القسم 1 ، ج . 1 ، ص . 99) وبعد فترة حكم بني أبي عامر تنافس عدد من القادة على قرطبة دون أن ينجح أي منهم في فرض سلطته عليها بكيفية نهائية بل حتى حكم بني جهور الذي فتحه أبو الحزم بن جهور في سنة 498 هـ/1081م . (« الذخيرة » ، القسم 1 ، ج 2 ، صفحات 602 ـ 604 انتهى باحتلال المعتمد لقرطبة خلال حكم عبد الملك بن جهور في 468 م / 1070 م . (نفس المصدر ، صفحتا 610 ـ 611) وفي إطار عدم الاستقرار الذي شهدته تلك الفترة ، استغل ابن باشة نفوذه السياسي في قرطبة إلى درجة لم يضاهها أحد في إشبيلية . ذلك أن ابن باشة خرب ما بقي من قصور بني أمية ثم باع كل ما وقع تحت يديه من المواد الثمينة كالرخام والخشب والبرنز والحديد والفولاذ (« الذخيرة » ، القسم 1 ، ج . 2 ، ص . 600) .



الاستقرار في دويلة إشبيلية قد ساهم في الرفع من المستوى الاجتماعي وتحسين ظروف المعيشة ، فإن المستوى الاجتماعي بقرطبة ـ نظراً لتحول مركزها من عاصمة مركزية للاندلس إلى عاصمة لدويلة طائفية تتعرض لحملات عسكرية يقوم بها بعض المغامرين أحياناً وحكام دويلات الطوائف أحياناً أخرى ـ قد عرف نتائج معكوسة .

لقد تسبب الازدهار المادي في المجتمع الحضري الاندلسي المتطور في زيادة أطماع بعض الافراد الذين كان غرضهم الرفع من مستوى معيشتهم فلجأوا إلى طرق غير مشروعة ، وقد انتشرت هذه الظاهرة في ظروف عدم الاستقرار السياسي الذي ساد خلال عهد الطوائف ورغم ذلك فهذه الظاهرة لم تمض دون اعتراضات من قبل بعض الافراد المتنورين من الاندلسيين ممن كان لهم موقف إزاء التناقضات والمظالم داخل مجتمعهم . وقد انتقد هؤلاء سوء تصرف المسؤولين الكبار والانتهازيين ، فقد انتقد ابن حيان وزيرين لم يذكر إسمهما ونعتهما بعدم الكفاءة والجهل وعدم استحقاق منصبيهما (123) . وإذا كان الدافع الشخصي هو الاساس في انتقاد ابن زيدون لحكام بني جهور ، فإن انتقاد ابن حيان للوزير ابن جهور كان أكثر موضوعية (124) . وذكر ابن حيان شخصاً بدون تسميته من قرطبة أو إشبيلية كان يمارس نشاطاً فلاحياً وتجارياً

---

123) « الذخيرة » ، القسم 1 ، ج 2 ، ص . 103 .

124) فعلى سبيل المثال ، انصب نقد ابن حيان على ابن جهور عندما بالغ في تقدير امرأة بحضوره جنازتها وعدم معارضته اتخاذ قبرها الذي كان يشبه قبور الملوك (نفس المصدر ، صفحتا 595 ـ 596) .



وحصل على ثروات طائلة رغم جهله الكبير ، عن طريق استغلال أملاك الاوقاف ومتاع اليتامى (125) . وذكر أيضاً شخصاً آخر لم يحدد إسمه سعى الى تراكم الارباح بواسطة رفع الاسعار في السوق بطريقة اصطناعية ، ويرجع ابن حيان السبب في هذه الاوضاع إلى الفوضى التي سادت قرطبة (126) .

وهناك إشارة أخرى لاحد العوام الذي اغتنى بطريقة غير عادية خلال الفتن التي عرفتها قرطبة سالكاً أساليب الغش والمضاربة والجور بالرغم من جهالته (127) . إلى جانب ذلك ، لم تقف ملاحظات ابن حيان عند الانتقاد والتشويه ، فنراه مثلاً يمتدح أبا القاسم سوار بن أحمد لاجتنابه الوشاية السياسية ، ذاكراً إياه بإسمه مع نسبته إلى قرطبة (128) .

4) الإستنتاج : التكامل الإجتماعي

كان المجتمع الاندلسي مجتمعاً متكاملا وراسخاً إستطاع أن يصمد أمام الصدمات التي نتجت عن نشوء أنظمة سياسية مختلفة ، وقد حافظ في عهد بني عباد على أسس تركيباته البنيوية التي بقيت منذ حكم المرابطين .

---

125) نفس المصدر ، ص . 591 .

126) نفس المصدر .

127) نفس المصدر ، ص . 593 .

128) نفس المصدر ، صفحتا 597 ـ 598 .

ولكي نقرز مدى التكامل الاجتماعي الذي حصل بإشبيلية لا بد من اختبار العلاقات الداخلية القائمة بين مختلف مجموعاتها . فلقد كان أفراد المجتمع الاشبيلي مخلصين بعضهم لبعض ولنظامهم الاجتماعي إلى حد ما . ومن علامات هذا التكامل النسبة المرتفعة لغير الاشبيليين ممن قصدوا المدينة خلال هذه الفترة التي نحن بصددها . وبالرغم من أن العامل الاساسي في هذا التكامل الاجتماعي كان هو الخوف من التهديدات الخارجية ، وهذا ما يفسر روح التضامن وارتفاع المعنويات لدى الاشبيليين لدرجة أدت الى الاستعداد العام لخوض الكفاح المشترك من أجل البقاء . كما أن الحفاظ على رفاهية المجتمع كانت من الدواعي الاساسية الاخرى . فكانت الانشطة التعاونية كالتجارة تفرض وجود سلطة التقرير وأيضاً سلطة تدريجية تتمتع بالنفوذ الشرعي يتيح لها إعطاء الاوامر ، بينما كانت القواعد التنظيمية تسير الحياة الحضرية المتطورة في إشبيلية . وكان الحفاظ على وحدة النظام الاجتماعي يتم بواسطة المراقبة الاجتماعية وحصر ردود الفعل وضبط المخالفات . فكانت النزاعات المتعلقة بتفسير وتنظيم مقاييس العلاقات الاجتماعية أو المتعلقة بجوانب من النزاعات المصلحية يقرر فيها عن طريق اتفاقات رسمية كالأعراف التقليدية أو عن طريق المؤسسات الرسمية كالشرطة والقاضي .

إن التغيير الاجتماعي في إشبيلية كان يتم بمستوى أقل مما كان يتم به هذا التغيير في الميدانين السياسي والاقتصادي . ولكن يجب أن نفهم أيضاً أهمية هذا الانتقال السياسي والاقتصادي في إطار عواقبه الاجتماعية . فلم يتحول المجتمع الاشبيلي بأكمله ، لكنه تغير نتيجة لحكم بني عباد . لقد فرض الحكام قبل عهد بني عباد وخلاله سيطرتهم على الإشبيليين . ونادراً ما شاركوهم على مستوى الحكم . الامر الذي يشير إلى التبعية



السياسية التي فرضت على الاشبيليين . كان نمو المجتمع الاشبيلي منتظماً ، كما كانت تغيراته متطورة باستمرار . وأدى ارتباطه الوثيق بالانشطة التجارية والصناعية إلى عدم اهتمامه بالشؤون السياسية. لكن رغم ذلك فقد كانت الضغوط والانتفاضات العنيفة والعارضة في جزء منها نتيجة لهذا المنع أو التضييق للنشاطات السياسية .

لم يمس التغيير الاجتماعي في إشبيلية المقاييس الاساسية . ولا يمكن اعتبار أي تغيير وقع في المجتمع الاشبيلي خلال حكم بني عباد تحولا في بنيته أو في مؤسساته الاجتماعية أو في مقاييسه . بدل ذلك ، يجب تصور التغيير في المجتمع الاشبيلي كنتيجة للعلاقات المتبادلة بين النظام السياسي والمجتمع . وكانت عوامل انتصار دولة بني عباد نتيجة للاستقلال السياسي والاقتصادي للمجتمع الاشبيلي .

لقد حصل التغيير الاجتماعي المتدرج باستمرار خلال عهد بني عباد ، ولكن عوض أن يكون تغيراً بنيويا كان شبه بنيوي وتوزيعي ، ذلك أن البنية الاجتماعية الاساسية في إشبيلية لم تمس رغم التحولات الخارجية السطحية التي استمرت طيلة فترة حكم بني عباد. كما حصلت عناصر جديدة سواء أفراد أو جماعات على مراكز امتياز في إطار النظام السياسي والاداري . ورغم ما أصاب بعض الافراد القليلين من بلاء وهلاك على يد المعتضد والمعتمد بن عباد عند قيامهما بتوطيد حكمهما ، فإن النخبة التقليدية استطاعت أن تحافظ على امتيازاتها المتوارثة ، واستمر وجودها قائماً إلى جانب حكام بني عباد الجدد ، بينما لم يطرأ أي تحسن جوهري على أسلوب أحوال العامة .



الفصل الرابع

السياسـة الخارجيـة الاشبيليـة

1) المراحل التاريخية التي قطعتها

إشبيلية على عهد بني عباد

لقد حاول عدد من المؤرخين لاشبيلية على عهد بني عباد تقسيم تلك الفترة إلى عدة مراحل . واختلفت الطرق التي استعملت في تلك التقسيمات ، كما اختلفت أسبابها باختلاف الجوانب التي سعى المؤلفون الى التركيز عليها فقد خصص إبن بسام منذ أوائل القرن الهجري السادس ثلاثة فصول في القسم الثاني من كتابه « الذخيرة » للقاضي بن عباد والمعتضد بن عباد والمعتمد بن عباد . ورغم أن إنتاجاتهم الادبية كانت محور اهتمامه الاول ، فقد درس أيضاً أسسهم التاريخية ، معتمداً بصفة مطلقة

على المؤرخ ابن حيان (1) . ومن المهم أن نلاحظ أن إبن بسام كان يقيم ويدرس البيئة التاريخة وأهم الاحداث التي جرت خلال الفترات التي عاش فيها الثلاثة المذكورون ، مركزاً على الاحوال التاريخية لاشبيلية بصورة أساسية . ولذلك يحتاج إلى تبرير موقفه بغية شرح الجوانب الادبية لكل شخصية درسها . ووصف مؤرخون آخرون تاريخ إشبيلية على عهد بني عباد بطريقة تسلسلية كجزء من مناهجهم لدراسة الاندلس ، الذي كان يتميز على العموم بطابع الوصف (2) . وقد إقترح حسين مؤنس ، حديثاً ، تقسيم عهد ملوك الطوائف إلى ثلاث فترات: من سنة 1009 م . إلى 1031م ، ومن 1031 م . إلى 1040 م ، أو 1045 م ، ثم من سنة 1045 م . إلى 1090 م .

---

1) « الذخيرة » ، القسم 2 ، ج . 1 . صفحات 13 ـ 28 و 28 ـ 41 و 41 ـ 81 . من الملاحظ أن ابن بسام كان يولي اهتماما خاصا للارضية التاريخية للشخصيات الادبية التي كانت موضع دراسته مما أدى الى وجود عنصر تاريخي في منهجه . ومع ذلك فإن ابن بسام اعتمد أساسا على نموذج معاجم السير وما كتاب «الذخيرة» إلا معجم سير للشخصيات الاندلسية البارزة في القرن الخامس الهجري ، ومن جهة أخرى . اختلف مؤلفو معاجم السير عامة مع ابن بسام في كونهم حصروا جهودهم في تقديم المعلومات الادبية ووصفها، فكان العنصر التاريخي غير موجود في كتاباتهم ، ومن جملة الامثلة لهذا النمط من كتاب السير الذين تطرقوا لبعض الشخصيات البارزة الاشبيلية التي عاشت خلال عهد بني عباد نذكر ابن خلكان صاحب كتاب « وفيات الاعيان » وابن خاقان صاحب كتاب « قلائد العقيان » وابن فرحون صاحب «كتاب الديباج المذهب» .

2) نذكر على سبيل المثال ابن عذاري «البيان المغرب» ، ج 3 ، صفحات 198 ـ 216) والمراكشي («المعجب» ، صفحات 93 ـ 100 و 186 ـ 161) وابن الخطيب («أعمال الاعلام» ، صفحات 177 ـ 197) .

ولم يكن الامير عبد الله شخصية معاصرة فقط، بل شارك في عدد من الاحداث التاريخية التي يناقشها . لقد ألف عبد الله كتابه في المغرب بعد احتلال يوسف بن تاشفين لدول الطوائف. ولذلك كان عبد الله مقلا فيما قاله عن يوسف، ولكنه استطاع أن يناقش تاريخ غرناطة وعلاقاتها بالدول الطائفية الاخرى مثل اشبيلية بحرية تامة. ولا تنحصر قيمة كتاب «التبيان» في كونه مصدرا مهما للمعلومات، فعبد الله بن بلقين يقدم لنا أفكاره والدوافع الخفية وراء قراراته، بل انه يذهب إلى تحليل سلوك وعقلية خصومه أمثال وزير المعتمد بن عباد، ابن عمار، أو ألفونسو السادس. وينقل أحيانا اقتباسات من الشخصيات التي يشير اليها مثل رسل ألفونسو السادس، سيسناندو ، دافديث وألفا فانييث وبيدرو أنسوريث. وأخيرا فرغم اهتمام عبد الله أساسا لتاريخ غرناطة فانه يناقش أبرز الاحداث التاريخية في القرن الخامس الهجري مثل احتلال ألفونسو السادس لطليطلة في سنة 478هـ ـ 1085 م. ومعركة الزلاقة في سنة 479هـ ـ 1086م التي شارك فيها.

وللمعلومات الواردة في المصادر المسيحية إسهام كبير في تكميل أو مطابقة أو معارضة المعلومات الواردة في المصادر الاسلامية أو العربية ويتمكن المؤرخ من خلال اختلاف نظرة كل منها اختبار المادة ومعالجة المشاكل المختلفة بموضوعية أكثر، ومع الاسف الشديد فإن الوقائع التاريخية المسيحية (كرونيكاس) التي اهتمت بالقرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) قليلة ولا يمكن استعمالها إلا في نطاق محدود، ولم تهتم هذه الاخيرة بالمجتمع الاندلسي الاسلامي في حد ذاته بل انحصر ذكرها لهذا المجتمع في إطار علاقاته مع الحكام والقادة المسيحيين أمثال ألفونسو السادس و«السيد القنبياطور» رودريغو دياث. ولكن هناك روايتان تاريخيتان

ورغم أن حسين مؤنس من المؤرخين القلائل الذين حاولوا وضع منهاج شامل لتاريخ الاندلس خلال هذا القرن الهجري الخامس، فإننا نجد صدى لتأويلاته السابقة واستنتاجاته بخصوص عهد بني أمية عند تعرضه لدول الطوائف (4). فقد اعتبر حسين مؤنس، فعلا، عهد دول الطوائف امتداداً لعهد بني أبي عامر، وحاول أن يبين كيف أن معظم ملوك الطوائف الاوائل قد تأثروا بالمنصور بن أبي عامر (مثل بني حمود في مالقة والجزيرة الخضراء وقرطبة، وبني صمادح في ألمرية وبني الافطس في بطليوس وبني رزين في السهلة وبني ذي النون في طليطلة (5).

وينظر حسين مؤنس إلى عهد الطوائف بعين الماضي عندما يهون من أمر القوى المستقلة الاصلية التي برزت خلال عهد دول الطوائف. فهو عندما يدرس هذا العهد يهتم أساساً بتحديد أسباب انهيار دولة بني أمية ولما كان انهيار هذه الدولة ظاهرة تميزت بتطورها السريع، فيصعب علينا

---

4) لقد كان اتجاه المؤرخين المعاصرين عامة، يميل الى اعتبار عهد دول الطوائف من خلال زاوية تنطلق من قبول شرعية حكام بني أمية على الاندلس كله دون غيرهم. ولقد اتخذ المؤرخون الاندلسيون موقفا مشابها في هذه القضية وذلك منذ القرن الخامس الهجري. فعلى سبيل المثال، لم يقبل ابن حزم تفكك الاندلس وتقسيمها الى دول الطوائف كما أنه لم يفهم هذه الظاهرة، فعبر عن غضبه في كون خطبة الجمعة كانت تقرأ باسم أربعة خلفاء وهم خلف الحصري الذي انتحل شخصية هشام الثاني في إشبيلية ومحمد بن القاسم بن علي بن حمود في الجزيرة الخضراء ومحمد بن إدريس بن علي بن حمود في سبتة («نقط العروس»، ص. 95).

5) «اعتبارات حول ملوك الطوائف»، صفحات 124 ـ 128 و 318 ـ 319.

تفسيرها تفسيراً مرضياً ، لان البحث عن أسباب جديدة لانحطاط دولة بني أمية أو تطوير العوامل التي ظهرت من قبل ، قد أدى إلى الاهتمام بعهد الطوائف . ونتيجة لذلك كان إهتمام المؤرخين بعهد الطوائف محصوراً في إطار محاولتهم تسليط المزيد من الانوار على عهد بني أمية الذي سبق عهد الطوائف ، وكذلك على عهد المرابطين الذي تلاه . ولم يكن الاهتمام بدول الطوائف راجعاً بالاساس لما لهذه الفترة من أهمية في حد ذاتها .

إن تصنيف عهد بني عباد يعني إمتيازه بدرجة معينة من الالتحام ، علماً بأن التقسيم لا يمس إلا الاشياء التي تتمتع بدرجة معينة من الوحدة . وقد تطورت دولة إشبيلية الطائفية على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي بكيفية ملتحمة ، بحيث يمكن تصور مسيرتها في إطار مرحلة الشباب والرشد والشيخوخة ، رغم محدودية هذه النظرة .

والنظرة إلى تاريخ إشبيلية الذي ينقسم إلى ثلاث مراحل لها فوائد عند إعتبار سياستها الداخلية . فقد تمكنا في الفصل الاول من هذا الكتاب بفضل تركيزنا على فترة حكم كل من القاضي بن عباد والمعتضد والمعتمد من إيراد تحليل أعمق للاسباب الكامنة وراء قيام دولة بني عباد وانهيارها . كما تمكنا من وضع كل حاكم في إطار بيئته بخصائصها وأوضاعها المتميزة دون أن نغفل عن إطارها الشمولي الجامع . وقد كان هذا التقسيم عملياً لان كل حاكم طائفي عاش خلال فترة مختلفة رغم ارتباطها بالمراحل الاخرى للتطور الداخلي لدولة إشبيلية الطائفية . أما فيما يخص السياسة الخارجية التي هي موضوع الفصل الرابع من هذا الكتاب ، فإن تقسيماً من هذا القبيل قد يفتقد طابعه العملي ، بل إنه من الافضل إتباع الخطوط العريضة للسياسة الخارجية الاشبيلية ككل ، مع تحليل لاهدافها البعيدة والقريبة

المدى ، وكذلك الوسائل المعتمدة للوصول إليها والاختتام بعرض تقسيم عام للسياسة الخارجية .

وكما أن التقسيم الزمني إلى عدة قرون يعتبر أمراً مناسباً ، فإن من الملائم اختيار عهد بني عباد وعزله على مستوى مجرد ، نستطيع به حصر مجال التخصص والوصول إلى إدراك أعمق لهذا العهد . وقد كان تاريخ دولة إشبيلية الطائفية في الواقع جزء لا يتجزأ من تاريخ الاندلس خلال القرن الهجري الخامس ، حيث أننا نجد تشابهاً في الخصائص البارزة التي كانت وراءها دوافع داخلية وضغوط وتأثيرات خارجية متشابهة . فإذا لم نتمكن من إدراك طبيعة علاقة إشبيلية بالوحدات السياسية الاخرى والقوى التي حركت هذه العلاقات فسيستحيل علينا إدراك الابعاد المختلفة لسياسة إشبيلية الخارجية .

2 ـ أهداف السياسة الخارجية

يتعين إدراج سياسة إشبيلية الخارجية خلال عهد بني عباد في إطار شامل للعلاقات الدولية إذا أردنا تقييم طاقتها في إطار الوحدات السياسية المحيطة بها والمجاورة لها تقييماً صحيحاً . فقد كانت إشبيلية بوصفها دولة طائفية تؤثر في مصير الوحدات السياسية الاخرى . إلا أن الاتجاه العام لسياستها الخارجية كان يتأثر باستمرار وبطريقة حاسمة . بقوى خارجية . والنمط العام الذي نتج عن هذه الظروف يبرز قدرة إشبيلية وسيطرتها الاقتصادية والسياسية على دول الطوائف الضعيفة . كما أن إشبيلية بدورها كانت تخضع للدول الكبرى ، مستسلمة أحياناً ، وأطواراً عن قصد . وهذه

الازدواجية في سياسة إشبيلية الخارجية بمعنى تعسفها من جهة وخضوعها من جهة أخرى، تظهر معكوسة بوضوح على المستوى العسكري. فقد كانت النتائج المباشرة لهـذا التناقض إيجابيـة، إذ ظهرت إشبيليـة بمظهر الدولة الطائفية القوية السليمة البنيان. إلا أن التناقض والازدواجيـة في سياستهـا الخارجية ساهما في استمرار الخلل في سياستها الداخلية. ثم إن النزاع الذي نتج عن هذا التناقض ضمن تنامي الضغوط والتأثيرات الخارجية على إشبيلية من طرف وحدات سياسية قوية قد ظل غير محصور حتى وصلت تلك الضغوط درجة لم يعد بمستطاع إشبيلية أن تواجهها أو تحد منها.

ومن أبرز خصائص السياسة الخارجية لاشبيلية عزلتهـا السياسية. فرغم أن إشبيلية كانت تمضي إتفاقيات الصلح وتبرم الاحلاف مع الدول الصغيرة والكبيرة التي كانت لها صلات معها فإن تلك الروابط ظلت هامشية، إذ أن تلك الأحلاف والتكتلات لم تكن إلا إجراءات مؤقتة بغية الحصول على أهداف معينة. وكانت سياسة إشبيلية الخارجية قائمـة على فكرة العداء السائد في علاقاتها مع جميع الوحدات السياسية الاخرى. ورغم أن إشبيلية كانت في أول الامر مهددة من جانب ملوك الطوائف بقرطبـة ومالقـة وبطليوس، فقد ردت بعداء عنيف على تلك التهديدات خلال الفترة الاولى من عهـد الطوائف حتى امتـد ليشمل دول الطوائف كافة، وليصبح جزء لا يتجزأ من سياستهـا الخارجية وبرز نهجها المستمر على دول الطوائف الضعيفة، مع أن اتفاقياتهـا ومعاملاتهـا مـع الدول الكبرى كانت بدافع المصلحة. أما على المستوى المذهبي، فقد كانت سياسة إشبيليـة الخارجية تجاه الدول الطائفية متصفة بالحياد إذا لم تتصف بالعداء، بل إنها غفلت عن الروابط التي كانت تربطها بالمناطق الاندلسية الاخرى من الناحية السياسية

والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وجعلت المحافظة على استقلالها الذاتي وتوسعها العسكري والاقليمي هدفها الاساسي في صياغة سياستها الخارجية . ومن أهم الاسباب التي أدت إلى هذه الوضعية اعتقاد الاشبيليين الخاطيء بتفوقهم العسكري على دول الطوائف الاخرى ، مع العلم بأنه كان تفوقاً محدوداً ، قد يمكنهم من قهر وابتلاع تلك الدول الواحدة بعد الاخرى (6) . ونتج عن ذلك أن إشبيلية لم تحاول أبداً إستمالة الدول الطائفية الاخرى بوسائل سلمية وجعلها تسبح في فلكها . بل ربما كان بامكان مثل تلك السياسة أن تيسر لاشبيلية توحيد صفوف تلك الدول وقيادتها . إلا أن إشبيلية كانت بدل ذلك تفرض قوتها السياسية والعسكرية بنية محو الدول الطائفية الاخرى . وكانت هذه السياسة تجبر ملوك الطوائف على المقاومة حفاظاً على وجودهم ، ناظرين إلى إشبيلية بحذر وخوف وعداء . ولذلك يجب وضع النتائج السلبية في المدى البعيد لسياسة إشبيلية الخارجية في إطار ارتباط مصيرها بالدول الطائفية الاخرى وبالصلة بين الامن العام للطوائف الاخرى ، مجتمعة ، إزاء الشمال المسيحي والمغرب .

وفشلت إشبيلية والدول الطائفية الاخرى في تدارك هذه الوضعية ، فكان الثمن المؤدى من هذا القصور في الرؤية هو نهاية الوجود السياسي

---

6) إلا أن وعي بعض ملوك الطوائف بالنتائج الوخيمة التي تسببت عن التوازن الدقيق في القوة بين دول الطوائف القوية كان وعيا تاما . فعلى سبيل المثال ، كان الامير عبد الله بن بلقين حاكم غرناطة يرى كيف استغل ألفونسو السادس هذه الوضعية لصالحه («كتاب التبيان» ، ص . 69) .

والاقتصادي لجميع دول الطوائف ، باستثناء سرقسطة . فإذا كان الاتجاه العام لسياسة إشبيلية الخارجية من سنة 414 هـ . إلى 484 هـ . (1023 م . إلى 1091م .) واضحاً ومتسلسلا فإنه كان يحمل في النهاية بذور الانهيار . فقد كانت أهداف سياسة إشبيلية الخارجية ، بدورها ، واضحة عند الذين باشروها ، إلا أنها كانت محدودة باعتبار مناعتها ومتانتها على المدى البعيد . فقد كانت الاهداف البعيدة المدى تختلط في بعض الاحيان بالمطامع العاجلة ، وكان من العسير التمييز بين الوسيلة والغاية . لقد كانت السياسة الخارجية لدول الطوائف تتسم بخللين : فقد تغافلت ، أولا ، عن مصالحها العليا التي تتجلى في صيانة مستقبلها السياسي والاقتصادي وإنعاشه . ومن العبث أن ننتظر أكثر من هذا من دول الطوائف متى اعتبرنا أن وجودها نفسه كان يحمل بذور الانقسام . ثم إن دول الطوائف لم تكن تتخذ المبادرة إلا نادراً . فبدلا من أن تخطط سياستها الخارجية بناء على خطة مدروسة ومحللة ، نجد أن سياستها تلك كانت انتهازية في أساسها . وكثيراً ما كانت تجد نفسها تنفعل لمجرى التطورات المفروضة عليها من طرف قوي خارجية . وإن هذه الاوضاع التي اتصفت بها السياسة الخارجية لاقوى دول الطوائف ، ومنها إشبيلية ، نتجت عن البيئة السياسية العامة التي سيطرت على العلاقات السياسية في الاندلس ، عامة ، خلال القرن الهجري الخامس .

لقد كان إخضاع وابتلاع الدول الطائفية الاخرى في طليعة الاهداف الرئيسية لسياسة إشبيلية الخارجية . فقد بذلت جهوداً مكثفة ومتصلة لتحقيق هذه الغاية ، وباشرت سياستها التهجمية على الطوائف الاخرى التي كانت تعتبرها فريسة مشروعة . فقد اعتبرت إشبيلية الضعف العسكري والاقتصادي والاجتماعي النسبي لدول الطوائف عاملا لصالحها ، فاستنتجت من ذلك ،

أولا ، أن إخضاع الجيش الاشبيلي لتلك الدول الطائفية لم يكن إلا أمراً موقوتاً . ثم إن الدول الطائفية الاخرى كانت مصدراً للغنائم عند إشبيلية في المقام الثاني . وفي إطار الاحتكام إلى القوة الذي أصبح أساساً للعلاقات بين الدول الطائفية في الاندلس أمسى الحرص على الظفر بالغنيمة أمراً عادياً ودافعاً فعالا امل، الفراغ بين الوحدات السياسية القوية والضعيفة عن طريق امتصاص الاولى لكميات متزايدة من دخل الاخيرة فقد أصبحت الغنيمة موزداً هاماً لتسيير الجيش الاشبيلي من جهة ، وساهمت من جهة أخرى في تلبية مطالب ألفونسو السادس للزيادة في قدر الجزية المفروضة على إشبيلية التي قررت توسيع أراضيها وتنمية عدد رعاياها نتيجة لذلك ، سعياً إلى فرض مركزها كدولة طائفية قوية في الاندلس . وكانت هناك أسباب غير مادية تفسر سياسة إشبيلية المعادية لدول الطوائف . فقد كان الحلم الاكبر الذي يساور مخيلة كل من المعتضد بن عباد فالمعتمد بن عباد هو بسط سيطرتهما على قرطبة . وقد تمكن المعتمد في سنة 468 هـ . / 1070 م . (7) من تحقيق أمنيته . وفي هذا الظرف كانت مدينة قرطبة وضواحيها قد خربت من طرف بعض الجماعات . ولم تكن قرطبة ، اقتصادياً ، أكثر إغراء من باقي الدول الطائفية الغنية الاخرى مثل طليطلة أو بطليوس . فترحيب سكان قرطبة بالمعتمد لم يكن راجعاً إلا لكونه فرض حكمه بالقوة . أما عباد ، ابن المعتمد ، فقد قتل بتحريض من المأمون ابن ذي النون عند ما احتل ابن عكاشة قرطبة (8) . وكان المعتضد قد

---

7) «الذخيرة» ، القسم 1 ، ج 2 ، ص ، 610 .
8) «الذخيرة» ، القسم 2 ، ج . 1 ، صفحة 270 ـ 271 .

فقد إبنه إسماعيل في محاولة فاشلة لاحتلال قرطبة . ويجب التذكير في هذا السياق بأن السبب المباشر لاتخاذ المعتضد قراراً بقتل إبنه المعروف بالمنصور هو رفضه في عام 460 هـ . / 1068 م . قيادة الجيش الاشبيلي في حملة عسكرية على قرطبة ليقينه بعجز ذلك الجيش عن أداء تلك المهمة (8) . ورغم العقبات البديهية والعراقيل المتعددة لضم قرطبة فقد كان إحتلالها في اعتبار المعتضد والمعتمد بين المرامي الاولية لسياستهما الساعية إلى رفع منزلتهما . فلقد كانت أهمية قرطبة تفوق ما كانت تمثله ، مادياً ، بوصفها رمزاً لوحدة الاندلس ، عند ما كانت العاصمة على عهد دولة بني أمية .

وكانت لسياسة إشبيلية الرامية إلى ضم أكبر عدد ممكن من دول الطوائف تأثيرات مباشرة في سياستها الداخلية . ومن أهم المؤثرات في تطبيق هذه السياسة السعي في الحصول على المنافع وإدراكها في المدى القريب . فقد كانت المكاسب المادية ، كالغنائم والاحتلال ، مغرية جداً . ثم إن أخطار مثل هذه السياسة كانت هزيلة بالنسبة لاشبيلية التي أصبحت بمثابة العملاق وسط الدول الطائفية الضعيفة . فعند ما تمكن القاضي ابن عباد من توطيد حكمه على إشبيلية كانت معظم دول الطوائف تنقصها القدرة وتعوزها الارادة لتشن هجومات مضادة ناجحة . ثم إن نمو الجيش وتعزيزه كانا في الظاهر راجعين إلى سياسة إشبيلية التوسعية التي استفادت منها استفادة مباشرة . وقد كان الحاكم هو المستفيد الاول من هذه السياسة باعتبار مكانته البارزة في النظام الاشبيلي . أما المضاعفات الحتمية في المدى

(8) «الذخيرة» ، القسم 2 ، ج 1 ، صفحات 137 ـ 141 .

البعيد لهـذه السياسة فقد كان معظم الناس عنهـا غافلين . وكان عبء الحرب المستمرة على المجتمع الاشبيلي مرهقاً . فلم يكن هذا المجتمع ، أصلا ، مجتمعاً حربياً كما كان عليه الامر في بعض المجتمعات المجاورة ، كمجتمع قشتالة مثلا . وقد كان ذلك العبء المرهق ، في نهاية المطاف ، حاجزاً منيعاً في وجه المجتمـع الاشبيلي . فانتصارات إشبيليـة على الدول الطائفية الاخرى كانت رغم مظهرهـا الخارجي المذهل تخفي في طياتهـا عواقب استنزافية في المدى البعيد . ولذلك نراهـا لم تهتم الاهتمـام اللازم بأمارات خطر العبء الاقتصادي الذي تتحمله إشبيلية بأداء الجزية . ولم تكن السياسة التعسفية لاشبيلية إزاء الدول الطائفية الاخرى مخللة باستثناءات إلا مؤقتاً ولاسباب مصلحية وتكتيكية بصرف النظر عن الاعتبارات المذهبيـة . ويبدو أن المعيار الوحيد الذي يمكن الاخذ به بكيفية ثابتة لتفسير فلسفة سلوك إشبيلية مـع دول الطوائف الاخرى هو الكسب المباشر والمصلحة الذاتية . وكثيراً مـا كان هذا الهـدف يقوم على غمط حقوق الاطراف الاخرى ، ونفس مصالح إشبيلية على المدى البعيد .

وكان إنعدام الوعي الجماعي العميق مـع الكيانات السياسية الاخرى عاملا أساسياً في فشل إشبيلية في التعاون مع الطوائف الاخرى وقيادتهـا في جبهة متراصة ، بل إن إشبيلية رغبت بدل ذلك في بسط سيطرتهـا بالقوة عليها . وكان حكام بني عباد يفتقرون إلى مذهب في الحكم متين تعتمده الدولة . فكثيراً ما كانت صلاتهم بالدول الطائفية الاخرى قائمة على مواقف متناقضة . فقد كانت إشبيلية كبقية الدول الطائفية دولة إسلاميـة . إلا أن الطريقة الحقيقية التي كانت تباشر بها تلك العلاقات كانت تتعارض في أغلب الاحيان مع المبادىء الاسلامية الاساسية تعارضاً جلياً . فمن المبادىء

الجوهرية في القانون الدولي الاسلامي المعروف بالسير لدى الفقهاء بتمين إنتهاج علاقات مختلفة مع الدول في أوقات الحرب وأوقات السلم . ومع ذلك فإن علاقات إشبيلية بالدول الطائفية لم تراع ذلك . مثال ذلك أن المعتضد لم يقتل ملوك الطوائف الحاكمين على أركش وموررو في فترة السلم فحسب ، بل فعل ذلك وهم حلفاء له (10) . واستغرب الامير عبد الله بن بلقين ، حاكم غرناطة ، قيام الجيش الاشبيلي المتحالف مع الجيش القشتالي بحملات عسكرية داخل أراضيه دون استفزازه لهما وبدون أن يكون لديهما أي مبرر مقبول (11) . واحتل الجيش الاشبيلي قرطبة رغم العلاقات السلمية الموجودة بينهما . وكان الجيش الاشبيلي قد جاء إلى قرطبة في أول الامر ليساعد أهلها على الدفاع عن أنفسهم من هجومات المأمون بن ذي النون ، غير أنه احتل قرطبة بعد قيامه بالمهمة الاولى (12) .

ويصعب التوفيق بين مبادئ القانون الدولي الاسلامي ومحالفة إشبيلية لملك مسيحي ومناصرته على ملك طائفي مسلم . وكان المعتمد بن عباد واعياً لمخالفته القانون الدولي الاسلامي عند ما ضم قواته لجيش ألفونسو السادس ، ففاجأ الامير عبد الله بن بلقين الذي لم يكن يتوقع انضمام جيش إسلامي إلى صفوف عدوه ألفونسو . وقد عبر الامير عن هذا الرأي بوضوح (13)

---

10) «البيان المغرب» ، ج ، 3 ، صفحتا 295 . 296 و«أعمال الاعلام» ، ص . 181 و«العبر» ، ج 4 ، ص . 157 .

11) أنظر «كتاب التبيان» ، صفحات 72 ـ 76 .

12) «الذخيرة» ، القسم 1 ، ج . 2 صفحتا 610 ـ 611 .

13) «كتاب التبيان» ، ص . 69

ولو أنه كان مخطئاً في تقديره ، فأدى عن ذلك الخطأ ثمناً باهضاً عند ما فقد حصن إسطبة (Estepa) وحصن مارتش (Marto) ، بالاضافة إلى ارتفاع حصة الجزية التي كان يؤديها لالفونسو (14) .

وعلاوة على ذلك فقد كان الاحساس بالتضامن العرقي غير متوفر لدى إشبيلية . فنحن نجد أن حكام بني عباد قد حاربوا ملوكاً للطوائف من أصول مختلفة . نذكر من أعدائهم على سبيل المثال بني جهور ، حكام قرطبة العرب الاقحاح ، وبني الافطس حكام بطليوس المعربون . أما من الحكام البربر الذين إصطدم بهم بنو عباد فنذكر بني زيري حكام غرناطة، وبني حمود حكام قرطبة ، قبل حكم بني جهور لها ، ومالقة والجزيرة الخضراء . ومع ذلك لم يكن الانتماء العرقي والاحساس الواعي به ، في وقت من الاوقات ، سبباً من الاسباب الرئيسية لتطاحن دول الطوائف . من ذلك أن حاكم قرمونة البربري كان حليفاً للقاضي بن عباد ، ثم أصبح عدواً للمعتضد بن عباد . لقد كانت الاحلاف تبرم وتنكث بسهولة في هذه الفترة. ويبدو من العبث أن نبحث عن نمط عرقي لتحالفات دول الطوائف ، فكيف يمكن أن نعتبر عداء دولة غرناطة الطائفية برئاسة الامير عبد الله بن بلقين لمالقة التي كان أمرها لاخيه تميم . بل أين نضع هذه الحالة في تصورنا للتحالفات القائمة على العصبية العرقية ؟ وقد كانت إشبيلية معادية أيضاً للدول الطائفية بصرف النظر عن حجمها وقوتها . فمن الاعداء الالداء

---

14) نفس المصدر، صفحتا 75 ـ 76 .

الدائمين لاشبيلية دول طائفية مثل بطليوس وطليطلة . وكانت إشبيلية تصطدم بدول طائفية دونها قوة مثل غرناطة ومالقة ، كما كانت دول الطوائف الصغرى ، مثل مرورو وأركش من ضحايا إشبيلية . ولم تنج من ذلك أية دولة طائفية باعتبار أن سكانها عانوا الكثير من الهجومات العسكرية ، رغم ما كان لاولئك السكان من روابط مشتركة مع سكان دولة إشبيلية الطائفية . أما التفريق بين الحكام والرعية في دول الطوائف فلم يؤخذ قط بعين الاعتبار ، بل إن هذا التصور لم يكن موجوداً . فما كان للجيش الاشبيلي في حالة وجوده أن يهاجم حصن غرناطة وينهب حقولها ، متحالفاً مع جيش ألفونسو السادس .

لقد كانت السياسة الخارجية لبني عباد ، كما كان شأن سياستهم الداخلية ، مبنية على القوة لسوء استعمالها . ولعل الاعتماد المفرط على القوة واعتبارها ركناً أساسياً للنظام بأكمله يفسر أحسن من غيره نجاح بني عباد في الاندلس ، كما يفسر نهايتهم المحتومة أيضاً .

ومن الاهداف الرئيسية لسياسة إشبيلية الخارجية تعزيز وبسط سيادتها لتقوية سلطتها على الدول الطائفية الاخرى والحصول على الاعتراف الشامل منها . وقد واجهت إشبيلية في بداية محاولتها الحصول على الاعتراف الخارجي العام عراقيل عظيمة تمكنت من التغلب عليها تدريجياً أثناء حكم القاضي بن عباد في الفترة المتراوحة بين سنتي 414 و 431 هـ . (1023 الى 1089 م .) وباستقرار الامن في إشبيلية والتسليم بسيادتها من طرف الاندلسيين تواصل عظم عدوانها على الطوائف الاخرى حتى أصبح ذلك العداء هدفاً في حد ذاته . أما القوى التي ساهمت في تحقيق ذلك الهدف فقد ظلت مكبوتة ويجري استخدامها للزيادة في حجم الامتياز والمركز اللذين حققتهما إشبيلية .

مالك ومذهبه. ويعطي مالك أهل المدينة مقاما خاصا كما يتضح من رسالته الى الليث بن سعد (99). ويخصص القاضي عياض عدة أقسام من كتابه للدفاع عن الاولوية التي يجب إعطاؤها لاهل المدينة، حيث أن هذا المبدأ عنصر انفرد به المذهب المالكي.

أما ثقافة المفكرين المالكيين فكانت خصبة، تثبت ذلك وفرة الادب المالكي الذي انتشر بالاندلس خلال القرن الخامس الهجري. فقد كان كتاب موطأ مالك بن أنس والدروس التي أخذها تلامذته عنه والمعروفة بالمدونات (كمدونة ابن القاسم) مراجع أساسية للفقهاء المالكيين بالاندلس والمغرب. ثم إن هناك أمثلة لاشبيليين ألفوا دراسات حول مواضيع عديدة تتعلق بمذهب مالك وبالفقهاء المالكيين البارزين وبموطأ مالك. وقد قدم ابن بشكوال المؤلفين الاشبيليين الذين درسوا هذه المواضيع وهم:

(1) أبو عمر أحمد القاضي الاموي المتوفى سنة 420هـ. / 1029م. (100).

(2) أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن حارث (377 هـ. / 987 م. - 421 هـ. / 1030 م.) (101).

---

99) يوجد النص الكامل لهذه الرسالة في كتاب «ترتيب المدارك»، ج 1، ص. 48. وربما حاول القاضي عياض أن يؤكد صحة ما ادعاه الامام مالك بشأن أهل المدينة فنقل جواب الليث بن سعد («ترتيب المدارك»، ج. 1، ص. 44).

100) الاموي هو مؤلف كتاب «التحقيق في سفرين» و «المحتوى» (في 5 أجزاء) و («كتاب الصلاة»، ج 1، ص. 44).

101) الحارث هو مؤلف كتاب «الاتفاق» في أربعة أسفاره (نفس المصدر، ص. 104).

المخشنة . إلى إضعاف ثقة الدول الطائفية بها . وكان الهدف الاول من تقوية سلطة إشبيلية وسيادتها لا يقتصر على حدود معينة . بل أصبح شغلها الشاغل بدلا من إنتاجها لسياسة واضحة تستهدف منافع بعيدة المدى . بل كان من المحتمل أن تصبح الرزانة والحكمة والشرعية من الخصائص التي تميز تلك السياسة التي لم يعط الاعتبار الكافي لاهدافها ونجاحها في المدى البعيد ، فجاء تطور الاحداث ليبرهن على أن شكل الاعتراف الذي رغبت فيه إشبيلية بإلحاح مفرط كان في نهاية الامر مناهضاً لمصلحتها الرئيسية وهي العمل من أجل البقاء . ومع ذلك فإن شرعية مطالبة إشبيلية بالاعتراف الخارجي أمر غير مشكوك فيه ، بل إن الطموح المفرط الذي غذاه كان يساعد سياسة إشبيلية الخارجية والاسلوب السطحي الذي استعمل في تنفيذها ، فأدى في النهاية إلى التقليل من قيمتها .

3 ـ دور الحرب في سياسة إشبيلية الخارجية

(1) الحملات العسكرية التخريبية

كان التعسف العسكري وسيلة مباشرة وفعالة في تطبيق سياسة إشبيلية الخارجية خلال الفترة التي لم تتردد فيها الدول الطائفية القوية في فرض تفوقها على الطوائف المستضعفة . وقد اعتمدت هذه الوسيلة من طرف دول الطوائف عموماً ، كما اعتمدها ألفونسو السادس ويوسف بن تاشفين أيضاً . واتخذ التعسف أشكالا مختلفة باختلاف الظروف والاوضاع . وبصرف النظر عن تعقد تلك الظروف أو بساطتها الظاهرية فقد ظل التعسف العسكري أداة حيوية وجوهرية لتنفيذ السياسة الخارجية .

واتخذت الحروب في الاندلس خلال القرن الهجري الخامس أشكالا عدة ، منها الإغارات التخريبية التي كانت تنظم كحملات عسكرية على الدول الطائفية الضعيفة ، بهدفين ، أولهما كسب المنافع المادية ، وثانيهما تكثير التفاوت في القوة بين المعتدي والمعتدى عليه . وظلت إشبيلية طيلة عهد بني عباد توجه حملاتها العسكرية لاحلال الدمار بأراضي الطوائف الضعيفة ، بل وحتى بأراضي الدول التي كانت تنازعها الهيمنة على الاندلس . وفي نفس الوقت كانت أراضي إشبيلية نفسها معرضة لحملات ألفونسو السادس العسكرية . أما في الاطراف الشرقية من الاندلس فقد كانت الغارات التي أعدها « رودريغو دياث السيد القمبيطور » تماثل حملات ألفونسو نمطاً وهدفاً ، ولو أنها كانت على مستوى أدنى . وكثيراً ما كانت هذه الارساليات العسكرية تتفاوت في حجمها حسب أهمية الغارات وأهدافها العاجلة ، ولو أن شكلها وكيفية تنظيمها كانا متشابهين .

وكان عنصر المفاجأة شرطاً أساسياً لنجاح تلك الإغارات ، كما كانت السرعة في الانجاز أمراً هاماً للتمكن من مباغتة العدو . وقد كانت هذه الحملات تتوخى عدم مواجهة العدو ، بقدر ما تستهدف ضربه والتمكن من الفرار متى انعدم توازن القوى ، دون إمهاله لتنظيم هجوم مضاد . ولما كانت المدن محصنة بأسوار وقائية ، فقد أصبحت المناطق القروية الهدف الاول لتلك الهجومات ، فشاع التخريب وإفساد الغلل والمحاصيل . وساهمت الهجومات السريعة والمباغتة في تيسير إنسحاب الارساليات العسكرية ونقل الغنائم قبل أن يصبح العدو قادراً على تنظيم صفوفه وإعداد عدته .

ومن الخصائص الاساسية الاخرى لنجاح الحملات سرعتها الفائقة وقدرتها العالية على القيام بهجومات واسعة النطاق . وقد استطاعت الارساليات

العسكرية التي كان يبعثها المنصور بن أبي عامر، كل عام، أواخر القرن الهجري الرابع، أن تتغلب على جميع المصاعب الجغرافية حتى وصلت ضرباتها الى «سانتياغو» (Santiago de Compostela). أما الارساليات التي نظمها ألفونسو السادس أو رودريغو دياث الملقب بالسيد، فقد استهدفت النهب في أراضي كل من بلنسية ودانية وطرطوشة وغرناطة وطليطلة وإشبيلية إلخ (15). أما الميزة الخاصة الناتجة عن السرعة الفائقة في الحركة والقدرة الفائقة على الهجوم عند الارساليات العسكرية فتكمن في أنها استطاعت إصابة التروس.

ولم يتمكن أحد من تحدي حملات ألفونسو داخل أراضي العديد من دول الطوائف، فكانت تلحق أضراراً كبيرة بفلاحتها. وقد كان هدفها الحقيقي الاول شن حرب إقتصادية على دول الطوائف. واتخذ ألفونسو السادس تلك الحملات وسيلة لابراز قوته والسعي لتحقيق هدفه النهائي الذي هو ترهيب دول الطوائف وإرغامها، تباعاً، على الخضوع لمطالبه المختلفة كأداء الجزية كل سنة. وقد عبر عبد الله بن بلقين، حاكم غرناطة، مراراً، في مذكراته، عن الضغوط النفسية التي مارسها ألفونسو على ملوك الطوائف (16).

وقد أبرزت الحملات العسكرية إنعدام التوازن في القوة بين الطرفين المتنازعين ومقدرة الجانب الاقوى على استغلال عجز الجانب الضعيف من

15) على سبيل المثال أنظر كتاب «تاريخ رودريكي»، صفحتا 18 ـ 19 وكتاب «أول تاريخ عام لاسبانيا»، ج. 2، صفحات 537 ـ 538 و 562.

16) «كتاب التبيان»، صفحات 72 ـ 74 و 122 ـ 126.

حماية أراضيه وصيانة ممتلكاته . وأدى هذا التفاوت في القـوة إلى إنعدام مقاومة فعالة ، بل إلى العجز عن اتخاذ تدابير ضد الغازي . وقد كانت لهذه البعثات العسكرية عوائد مضمونة لان أخطار وقوع الخسائر المادية كانت متعددة ، بينما كان الكسب في معظم الاحيان مضموناً فلم يكن بمستطاع الامير عبد الله بن بلقين أن يواجـه أو يصد حمـلات ألفونسو السادس والمعتمد بن عباد على أراضي غرناطة ، ولم يكن بمقدوره أيضاً أن يرد عليهـا بالمثل (17) . بل إن الجيش الاشبيلي وهو في أوج عظمته وقوته لم يتمكن من تنظيم حملات إنتقاميـة مـن القوات التي بعثهـا ألفونسو إلى الاراضي الاشبيلية بعد رفض المعتمد لانذاره النهائي بتسليم إشبيليـة بدون قيد أو شرط (18) . ونلاحظ من الامثلـة المذكورة ، وغيرهـا كثير ، أن الارساليات العسكرية إستطاعت أن تجني أقصى مـا يمكن إقتطافه من ثمار دون أن تؤدي أعمالها إلى نتائج خطيرة ويمكن اعتبار هذه الحالة ، دون شك ، عنصراً رئيسياً ساهم في تشجيع استمرار هذا النمط الحربي الذي يمكن تقدير مخاطره المباشرة بسهولة .

2) ـ الحروب التوسعية التقليدية

كانت الحرب التوسعية المنظمة أبرز الطرائق التقليدية التي اعتمدتها إشبيلية لتحقيق أقصى أهداف سياستها الخارجيـة وهو ضم أكبر عدد من

17) نفس المصدر ، صفحات 70 ـ 71 و 74 ـ 75 .

18) « الحلل الموشية » ، صفحات 28 ـ 30 .

دول الطوائف وإدراجها ضمن حدودها . فعند ما كان الجيش الاشبيلي يهاجم دولة طائفية كان عادة يواجه في ميدان القتال تجنباً لوقوع خسائر مادية، كثيراً ما كانت تحدث عند ما تجد الجيوش الغازية الحرية الكاملة المطلقة في التنقل داخل أراضي العدو . وإذا كانت قوة الجيش الاشبيلي تفوق قوة جيوش الطوائف الضعيفة فإن هذه الجيوش كانت تلجأ عادة إلى حصونها أو إلى مدنها المسورة فتجعل الجيش الاشبيلي أمام اختيارين : إما محاصرتها وإما تخريب المناطق القروية المجاورة لها قبل جمع الغنائم والعودة إلى إشبيلية .

وكثيراً ما كان الموقف الهجومي لجيش إشبيلية يساعده على الانتصار ، ولكن نجاحه كان يواجه عقبتين خطيرتين ، مما أدى إلى إرهاق إشبيلية بتكاليف مضنية في محاولاتها لضم الحصون والمدن والاراضي التي احتلتها . فأما العقبة الاولى التي واجهت الجيش الاشبيلي فكانت ذات طابع إجتماعي وجغرافي . فقد كان الاشبيليون يحاربون في مناطق غريبة عنهم ويعتبرون سكان دول الطوائف المفتوحة شعوباً مغلوبة ، وتكبد الجيش الاشبيلي إحدى هزائمه الكبرى في بطليوس حيث كان للعوامل الجغرافية دور بارز في تقرير نتيجة مواجهته لجيش المظفر بن الافطس (19) . أما العقبة الثانية التي كانت تعوق النجاح الكامل لقوات إشبيلية فتتمثل في أن الاطراف

---

19) هاجمت القوات البطليوسية الجيش الاشبيلي فجأة عند مروره بواد فألحقت به أضرارا كبيرة ولم تستطع سوى مجموعة صغيرة منه الهروب الى إشبيلية عبر أراضي العدو (« الذخيرة » ، القسم 2 ، ج . 1 ، ص . 22) .

المعرضة لهجوماتها كانت تعمل على إكتساب مساعدة أطراف أخرى ، الامر الذي كان يؤثر في ميزان القوى تأثيراً مضاداً لاشبيلية . ومن الامثلة البارزة نجاح الجيش الاشبيلي في احتلال مالقة أثناء حكم المعتضد ، ثم إنكساره بعد وصول رجال بادس بن زيري، حاكم مالقة آنذاك ، لنجدة المرتزقة الافارقة القلائل الذين صمدوا في مواجهة الاشبيليين (20) .

وظلت المواجهة مع الدول الطائفية القوية ، إلى سقوط قرطبة في يد المعتمد سنة 463 هـ . / 1070 م تمتص أكبر قدر من طاقات إشبيلية المسخرة لتحقيق سياستها الخارجية فلم تتردد إشبيلية في مواجهة جيوش أقوى ملوك الطوائف ،كبني الافطس ، حكام بطليوس ، وبني ذي النون حكام طليطلة ، وبني جهور ، حكام قرطبة ، وبني زيري ، حكام مالقة وغرناطة ومن المستغرب أن الجيش الاشبيلي لم ينافس ألفونسو السادس وغيره من الملوك والزعماء المسيحيين ، بل انتهج سياسة عسكرية إزاء دول الطوائف الاخرى بتشجيع ومساندة ملك قشتالة نفسه . وهكذا نرى أن تعسف الجيش الاشبيلي ضد الطوائف القوية لا يعني تفوقه العسكري المطلق ، إذ أنها لم تكن مستقلة إستقلالا تاماً ، وكانت تعمل داخل حدود سبق للحاكم القشتالي أن وافق عليها ، فكانت سياسة عدم التدخل في عمليات الجيش الاشبيلي من طرف ألفونسو السادس تخدم مصالحه البعيدة المدى .

وتواصل تعسف الجيش الاشبيلي ضد الدول الطائفية القوية بالرغم من بعض الفشل الذي أصابه في هذا المجال ، إذ فشل في ضم مالقة وطليطلة

---

20) نفس المصدر ، صفحتا ، 49 ـ 50 .

وبطليوس لعوامل تقنيــة صرف . فقد كانت الاسلحــة والطرائق والمناهج العسكرية التي اعتمدها الجيش الاشبيلي مشابهة، عموماً، للتي اتخذتها جيوش الطوائف الاخرى، ثم إن إشبيلية لم تكن تتوفر على قواد بارزين بمقارنتهم مــع غيرهم من القــواد الاندلسيين . بل إن الجيش الاشبيلي كان مؤلفاً بالدرجة الاولى من المرتزقة والعبيد الذين لم يكونوا يحاربون مــن أجل مبادىء يؤمنون بها ، فكانت تنقصهم المعنويات العالية ذات الاثر الكبير في حسم المعارك . ويقضي التأويل المنطقي لاتخاذ إشبيليــة موقفاً هجومياً إزاء الطوائف القوية بإرجاع أسبابه إلى عوامل سياسيــة واقتصادية بالدرجــة الاولى ، إذ كانت مساندة الحاكم الاشبيلي لتلك الحروب تساهم في تقوية سمعته بالداخل وإبعاد صيته في الخارج على السواء . وكثيراً ما وجد حكام إشبيلية أنفسهم مضطرين إلى شن الحروب على الطوائف الاخرى ، فكانت الغنائم ، بالاضافة إلى الضرائب ، مصدراً رئيسياً لتسديد الجزية القشتالة . وإذا استثنينا سقوط طليطلة عام 478 هـ / 1085 م ومعركة الزلاقة سنة 479 هـ / 1086 م ، ، وهمــا الحدثــان اللــذان زعزعت نتائجهمــا تــوازن العش في الاندلس ، فإن المؤرخين المعاصرين ومن جاءوا بعدهم لم يولوا اهتماماً كبيراً لمعارك إشبيلية ، بل عالجوها بتصرف وبدون إمعــن . ومع ذلك فإن أهمية تلك المعارك تبرز بحكم ارتباطها بتاريخ إشبيلية كما اعترف بذلك عموم المؤرخين. وقد كانت قرطبة وبطليوس، ضمن الطوائف القوية، هدفين رئيسين في سياسة إشبيلية، الخارجية. كانت مواجهة المعتمد للمأمون بن ذي النون مرتبطة إلى حد بعيد بالسيادة على قرطبة التي كانت قيمتها الرمزية محوراً لمطامح أبرز ملوك الطوائف . وقد كان عداء المعتضد العميق للمظفر بن الافطس، حاكم بطليوس، موجهاً لرغبته وتطلعه إلى ضم الدول الطائفية

المنافسة والمجاورة له. ويرجع منشأ العداوة إلى فترة سابقة لولاية المعتضد. ويلاحظ بعض التناقض في الانتصار الظاهر للجيش الاشبيلي على الطوائف الاخرى، إذ أن الطاقة البشرية والموارد المالية المسخرة كانت تسهم بطريقة غير مباشرة في إضعاف قدرة إشبيلية وصمودها أمام هجومات ومطالب قشتالة أولا، والمغرب من بعدها.

وبرزت الانقسامات الداخلية بين سكان باجة أثناء الفتنة التي أصابت مدينتهم فخربوها تخريباً تاماً شمل قسمها القديم وقسمها الحديث على السواء (21). وكان من شأن تخريب باجة على ذلك النحو المفاجيء أن أيقظ مطامع القاضي ابن عباد، والمنصور عبد الله بن محمد بن مسلمة بن الافطس، ورغبة كل منهما في الاستيلاء عليها، فبلغت قوة اصطداماتهما أبعاداً لم تكن متوقعة. وفي سنة 421 هـ. (1030 م.) بعث القاضي بن عباد جيشه إلى باجة، بمصاحبة محمد بن عبد الله البرزالي، حاكم قرمونة، وامرة ابنه إسماعيل. وما أن شرعا في إعادة بناء المدينة حتى هاجمها جيش المظفر بن الافطس، حاكم بطليوس، وملك طائفي آخر هو ابن طيفور (22). وأعاد الجيش الاشبيلي تنظيم أحواله فشن هجوماً مضاداً أدى إلى تخريب مناطق شاسعة بلغت حدود يابرة (Ebora) وأطرافاً أخرى في غرب الاندلس، وحقق في النهاية إنتصاراً حاسماً. وقد أرسل الاسرى إلى إشبيلية، ومنهم موظفون سامون وأخ لابن طيفور صلب بها، كما أخذ حاكم قرمونة المظفر بن الافطس أسيراً (23). ووجد حاكم بطليوس نفسه في موقف

---

21) نفس المصدر، ص. 21.

22) نفس المصدر، و «البيان المغرب»، ج. 3، ص. 202.

23) نفس المصدر.

خرج عند ما وقع ابنه أسيرا ، حيث لم يمكن بامكانه أن يتحدى منافسيه ، فأطلق المظفر في ربيع الاول من عام 421 هـ . / مارس 1030 م) . إلا أن أثر الصدمة النفسية والاهانة الناتجة عن هزيمته وسجنه كانت لهما آثار سلبية على العلاقات بين بطليوس وإشبيلية (24)

وفي سنة 425 هـ . / 1033 م . بعث القاضي بن عباد ابنه إسماعيل على رأس كتيبة متوجهة إلى جلاقة ، وبينما كانت الكتيبة بأراضي بطليوس تربص بها المظفر ، رئيس جيشها (25) . فاضطر قسم من الجيش الاشبيلي إلى الاستسلام . إلا أن إسماعيل بن عباد وبعض جنوده تمكنوا من الفرار والالتحاق بأشونة (اشبونة) بعد اجتياز مصاعب كبيرة ، منها لجوءهم إلى قتل خيولهم وأكلها وطارد أهل بطليوس رجال إسماعيل فكانت الخسائر التي أوقعها بهم جنود المظفر ، يعززهم جنود نصارى ، مرتفعة (26) . فهل كان لاصطدام الجيش الاشبيلي بجيش بطليوس سنة 421هـ . / 1030 م . وعام 425 هـ . / 1033 م تأثير في نفس المعتضد بن عباد ، وبالتالي انعكاسات على نظرته وعلاقاته مع بطليوس بعد توليه الحكم سنة 433 هـ / 1041 م . ؟ يحتار الانسان في الاجابة عن هذا السؤال . فمن الواضح أن إسماعيل ، لا عبادا الذي اتخذ فيما بعد لقب المعتضد ، هو الذي قاد الجيش الاشبيلي في حملته على ابن الافطس في باجة ثم في

---

24) « الذخيرة » ، القسم 2 ، ج . 1 ، صفحات 20 ـ 23 .

25) نفس المصدر و « البيان المغرب » ، ج . 3 ، ص . 203 .

26) نفس المصدر .

بطليوس . ولا نعرف بنفس القدر من الوضوح هل كان عباد حاضراً أو غائباً في الاصطدامين المذكورين . علماً بأن المصادر لا تورد لذلك ذكراً . فعند ما أطلق محمد البرزالي سراح المظفر في عام 421 هـ . / 1030 م . كان عمر عباد يناهز أربعة عشر عاماً فقد سبق لابيه في سنة 414 هـ / 1023 م . أن قدمه رهينة إلى يحيى بن حمود . وهو آنذاك في السابعة من سنه . ونستنتج أنه ربما كان بسنه قاصراً عن المشاركة في معركة باجة . أما عن مشاركته المحتملة في هزيمة بطليوس سنة 425 هـ . / 1033 م فإن عمره كان ثمانية عشر عاماً عند حدوثها ولما كان حكام بني عباد يشجعون أولادهم على المشاركة في الحملات العسكرية فربما كان عباد ضمن جنود إشبيلية الذين نجوا بأنفسهم من تطويق جيش المظفر . وعلى أي حال فسواء كان السبب راجعاً إلى ما قاساه من ألم أم لا ، يتعين التساؤل عما إذا كان سبب الهزيمة ناتجاً عن معاناة شخصية أو إلى مجرد خيانة المظفر الذي سبق البرزالي . حليف إشبيلية ، أن حرره أربعة أعوام قبل وقوع الهزيمة في سنة 425 هـ / 1033 . وعلى أي حال فمهما كانت أسباب هذه الهزيمة فقد أسفرت عن الاحساس بالكراهية والمرارة بين بني عباد وبني الافطس ، مما أدى إلى انهيار وتحطيم العلاقات بين الدولتين الطائفيتين .

ومع أن احتقار المعتضد للمظفر كان مصدره شخصياً عاطفياً ، فإن هناك تفسيراً أشد عمقاً للتعسف الاشبيلي ضد بطليوس ، وهو تنافسهما كدولتين طائفيتين قويتين . ولم يمر وقت طويل على قيام دولة المعتضد في سنة 442 هـ . / 1050 م . حتى هاجم لبلة الذي وجد حاكمها العاجز

ابن يحيى نفسه مرغوماً على الاستغاثة بالمظفر بن الأفطس (27) وخف المظفر لمساعدة ابن يحيى كما كان معهوداً بين ملوك الطوائف، إلا أنه أخذ لبلة لنفسه واستأثر بها. وحمل هذا التصرف ابن يحيى على الاستنجاد بالمعتضد بن عباد هذه المرة. وقد شكل المعتضد تكتلاً مع جيوش حلفائه من ملوك الطوائف البرابرة، وعلى الخصوص مع باديس بن حبوس الذي استجاب تلقائياً للطلب بهدف الدفاع عن ابن يحيى (28). وأثناء ذلك حاول ابن جهور، حاكم قرطبة، أن يتدخل دبلوماسياً لتفادي المواجهة بين المعتضد والمظفر، مستهدفاً المحافظة على الأحوال القائمة، لتخوفه من احتمال الحاق بطليوس بإشبيلية فتصبح قرطبة اثر ذلك الهدف التالي للمعتضد ابن عباد الذي نصب نفسه مدافعاً عن الحقوق الشرعية لهشام الثاني في الخلافة، فلقيت دعوته قبولاً لدى بعض ملوك الطوائف. فكلما تنامت قوة إشبيلية يكون من شأنها أن تؤدي إلى محاولة احتلال قرطبة، العاصمة السابقة لدولة بني أمية. ولهذا بعث ابن جهور رسولاً إلى كل ملوك الطوائف المؤيدين للمعتضد، باستثناء محمد بن إدريس، حاكم مالقة، الذي كانت له تطلعات إلى الخلافة بالأندلس (29). ومع ذلك فلم تفلح مساعي ابن جهور السلمية، وشرعت جيوش المعتضد وحلفائه في زحفها منطلقة من إشبيلية نحو لبلة (Niebla) مشيعة الخراب في المناطق التي اجتازتها (30)

---

27) «الذخيرة»، القسم 2، ج 1، صفحات 33 ـ 35.

28) «الذخيرة»، القسم 1، ج 1، صفحات 314 ـ 318، و«البيان المغرب»، ج 3، ص 210.

29) «الذخيرة»، القسم 2، ج 1، ص 33.

30) «الذخيرة»، القسم 2، ج 1، صفحتا 33 ـ 34، و«البيان المغرب»، ج 3، صفحتا 210 ـ 211.

وشارك المعتضد نفسه عند لبلة في هزيمة المظفر الحاسمة ، فاحتل الجيش الاشبيلي عدة حصون وخرب المباني وأفسد المحاصيل أثناء مطاردته للمظفر إلى حدود عاصمته ، مدينة بطليوس (31) . ولم يجد المظفر بعد هزيمته مؤيداً من ملوك الطوائف فعجز عن الانتقام من المعتضد ، بل لم يجد مفراً من قبول معاهدة الصلح معه ، بوساطة ابن جهور ، وذلك في ربيع الاول من سنة 443 هـ . / يوليوز - غشت 1051 م (32)

وبغض النظر عن أهمية بطليوس وأهداف إشبيلية الرئيسية الاخرى ، فقد كان ضم قرطبة هدفاً أساسياً طيلة عهد المعتضد ، وهو ما حققه المعتمد بن عباد سنة 469 هـ / 1076 م عند ما احتل قرطبة بصفة نهائية : وكان الجيش الاشبيلي في عام 463 هـ . / 1070 م . قد نجح في اقتحام قرطبة عند ما توجه إليها لنجدة حليفه ابن جهور ، فباغت الجيش القرطبي بداخل المدينة . ثم تغلب الجيش الاشبيلي بقيادة ابن المعتمد عباد . على جيش المأمون بن ذي النون وبعد نجاحه في هذه المهمة احتل الاشبيليون قرطبة باسم المعتمد (33) الذي تخلص من ابن جهور ، ثم كلف ابنه عبادا والقائد العسكري ابن مرتين بتسيير شؤون قرطبة قبل عودته إلى إشبيلية (34). ولم يرض ابن ذي النون عن تلك الهزيمة بصفة نهائية ، فأغرى ابن عكاشة

---

31) نفس المصدر .

32) «الذخيرة» القسم 2، ج 1، صفحتا 35 ـ 36 و«البيان المغرب»، ج 3، صفحتا 212-213 .

33) «الذخيرة» ، القسم 1، ج 2، ص 31 و«الذخيرة» ، القسم 2 ، ج 1، صفحتا 248 ـ 269 و «أعمال الاعلام» ، صفحتا 171 ـ 172 .

34) نفس المصدر .

الذي كان يحكم حصناً قريباً من قرطبة باحتلالها فدخلها ليلا سنة 467 هـ. / 1074 م. (35). وقصد ابن عكاشة، بمشاركة مجموعة من القرطبيين المتمردين، منزل عباد فقتله في الحين، دون أن يتمكن من ابن مرتين الذي لاذ بالفرار وهو في سكر مشين (36). وتمت البيعة لابن عكاشة في مسجد قرطبة بوصفه الحاكم الجديد، ثم دخل ابن ذي النون المدينة فلقي مصرعه بها بعد شهر. مسموماً فيما قيل. وبموت ابن ذي النون لم يجد المعتمد صعوبة في بسط حكمه من جديد على قرطبة التي دخلها وأمر بقتل ابن عكاشة (37).

وقد كان إلحاق قرطبة بإشبيلية مطمح المعتمد الابعد في سياسته الخارجية، إذ عزز هيبته وأظهر قوة جيشه بوصفه الجهاز العسكري الاصرم. أما الطريقة المتبعة والاسلوب المتخذ من قبل الجيش الاشبيلي، فجأة. من موقف المدافع عن قرطبة إلى وضع الجند الغازي والمحتل لها، دون مبرر ظاهر، لا يبرز فقط مدى فقدان الاعتبار الخلقي فقط. بل إنه يثبت أيضاً انعدام كل تقدير واقعي عند الجيش الاشبيلي في المدى البعيد. فارتداده التلقائي عن الولاء يبرز سطحية التحالفات المتناقضة المتقلبة عند دول الطوائف. ومهما بدا ذلك السلوك محيراً فإن انقلاب إشبيلية من موقفها كان منطبقاً مع الصبغة عديمة المنطق لعهد الدول الطائفية.

---

35) «الذخيرة» القسم 2، ج. 1. صفحتا 270 ـ 271.

36) «الذخيرة» القسم 2، ج. 1، ص. 36.

37) نفس المصدر.

كان النهج السياسي الذي سلكه الاشبيليون لاحتلال قرطبة يساير مصالحهم في المدى القريب لاسباب عدة . أولها وجود سوابق مماثلة كالقرار المفاجيء الذي اتخذه المظفر بن الافطس باحتلال ابلة التي قدم لحمايتها من الجيش الاشبيلي سنة 442 هـ . / 1050 م . . ثم انعدام أية قوة أسمى يكون باستطاعتها أن تصد إشبيلية عن احتلال أية دولة طائفية على أرادت . ولم يعد بمستطاع أي ملك طائفي بعد انهزام المظفر بن الافطس ووفاة المأمون بن ذي النون أن ينازع المعتمد أو ينافسه على احتلال قرطبة . وبعد الاعتبارين السالفين لم تكن انعكاسات هذا الاحتلال خطراً على إشبيلية . لان الثقة كانت منعدمة بين الدول الطائفية الاخرى بارتياب بعضها من بعض . كما كانت منشغلة بمشكلاتها الداخلية انشغالا يجردها من القدرة على مساعدة القرطبيين

وإذا كانت إشبيلية قد حققت بعض المنافع المباشرة باحتلال قرطبة وضمها إليها . فإن أضرارها في المدى البعيد كانت أهم . فقد كان لبني جهور حكام قرطبة الذين استبعدهم المعتمد . صيت طيب يحسدون عليه بفضل ما امتازوا به من الاستقامة والعدل ورضا الناس عن غيرهم من ملوك الطوائف . ومن المعلوم أن الانتخاب لم يكن معروفاً آنذاك سواء في أوربا أو في العالم الاسلامي ، مع أن حكام بني جهور لم يكونوا من اختيار الرعية فإنهم أحسنوا تعويضهم بالمسؤولية منها . وكانوا دون غيرهم من ملوك الطوائف في الاستفادة من نفوذهم السياسي ، بل إن سياستهم مع الدول الطائفية الاخرى كانت تتم بالمهادنة والوئام .

وبعد انتصار المعتضد على المظفر بن الافطس في ربيع الاول 443 هـ . / يوليوز . غشت 1051 م . جنحت إشبيلية إلى مواجهة الدول الطائفية

مواجهة عسكرية ضمن سياستها الخارجية العامة ، وأصبح الجيش الاشبيلي يستهدف الدول الطائفية الصغيرة . بمعنى أن الجهود العسكرية لاشبيلية كانت مركزة في بداية الامر ، أساساً ، على غرب الاندلس .

وكانت لضعف الدول الطائفية الصغيرة وهوان أمرها أسباب عديدة كانت في نفس الوقت من خصائص وجودها . فأما السبب الاول ، فهو أن تلك الدول بأحجامها الصغيرة كانت مضطرة إلى تحمل أعباء إقتصاد يتميز بطابع الاكتفاء الذاتي والبيعة معاً . وأما السبب الثاني ، فهو أن الاحوال الداخلية لم تكن مستقرة لان الحكام كانوا في معظم الاحيان مستبدين لا يملكون تأييد رعيتهم . ونذكر من الامثلة على ذلك حاكم شلب ، أحمد بن جراح ، الذي اتخذ ألقاباً فخمة ، كملك الملوك . ثم قتله رعاياه المضطهدون (38) . وأما السبب الثالث فهو استمرار الدول الطائفية الصغيرة في تطاحنها إلى سنة 442 هـ . / 1050 م . ، وهي الفترة التي لم تتدخل إشبيلية خلالها في سياسة غيرها من دول الطوائف وفي النهاية أدى تفاقم الخلل في ميزان القوى بين إشبيلية والدول الطائفية الصغيرة إلى أطماعها في بسط سيطرتها على تلك الدول . وهو أمر لم يكن صعباً على الجيش الاشبيلي آنذاك .

قاد المعتضد جيشه في محاربة ملوك الطوائف بالغرب ، أمثال ابن يحيى وابن هارون وابن مزين أو البكري ، فاحتل أراضيهم ، منهياً السلسلة الاولى من هجماته باحتلال الجزيرة الخضراء ، بعد أن هزم حاكمها القاسم بن محمد

(38) « البيان المغرب » ، ج، 3، صفحتا 215 ـ 216 .

ابن حمود (39) . وبعد احتلال تلك الدول الطائفية الصغيرة في الغرب والسيطرة على مضيق جبل طارق باحتلال الجزيرة الخضراء ، أنهى المعتضد اعترافه الاسمي بهشام الثاني بوصفه الخليفة الشرعي ، فلم يعد اسمه يذكر في خطب الجمعة (40) . وفي سنة 455 هـ / 1063 م . وطد المعتضد هيمنته على آخر دولة طائفية في الغرب ، وهي شلب ، ثم توجه إلى تركيز مجهوداته التوسعية جنوباً (41) . وكان نشاط إشبيلية العسكري قد توقف مؤقتاً في نهاية عام 451 هـ . / 1059 م . ولكن سرعان ما شرع المعتضد بن عباد في نشاطه العسكري بتحريض الفتنة الداخلية في الدول الطائفية الواقعة جنوب إشبيلية ، ثم بالهجوم على عدد من الطوائف الضعيفة فضمها بسرعة ، كما فعل في الغرب . فقد هزم المعتضد أبا النصر فتوح بن هلال بن أبي سقرة اليفرني في سنة 457 هـ . / 1064 م . ثم احتل الجيش الاشبيلي رندة (42) . وجاءت هزيمة عماد الدولة مناد بن محمد بن نوح الدماري ، واحتلال مرورو من طرف الاشبيليين عام 458 هـ . / 1065 م . (43) . أما قرمونة التي كان يحكمها المستظهر عزيز بن محمد البرزالي فقد وقعت في أيدي الاشبيليين سنة 459 هـ . / 1066 م. (44) . واقتصر جيش المعتمد

---

39) « الذخيرة » القسم 2 ج. 1، ص 36 . و«أعمال الأعلام» ص . 182 .

40) «الذخيرة» ، القسم 2، ج . 1، ص. 37 . و «جذوة المقتبس » ، ص . 80 والبيان المغرب » ، ج. 3، ص. 215 .

41) نفس المصدر ، ص . 36 . و « البيان المغرب » ، ج . 3 ، ص . 214 .

42) نفس المصدر ، ص . 38 . و « البيان المغرب » ، ج . 3 ، صفحتا 214 و 314 .

43) نفس المصدر ، صفحتا 38 ـ 39 . و « البيان المغرب » ، ج . 3 ، صفحتا 214 و 295 .

44) « البيان المغرب » ، ج . 3 ، ص . 212 .

ابن عباد عام 461 هـ . / 1068 م . على حاضر أركش . محمد بن محمد بن خزرون ، وذلك رغم تعاونهما السابق لاسقاط بعض ملوك الطوائف (45) . ورغم أهمية الجيش الاشبيلي وضخامته فإن الضعف الداخلي للطوائف الصغرى قد جعل انهزامها ميسوراً . من ذلك أن رعايا شلب ثاروا على ملكهم فقتلوه (46) ويمكن القول بأن علاقات إشبيلية مع الطوائف الضعيفة اتخذت، ولو على نطاق أصغر، نمطاً مشابهاً لعلاقات ألفونسو السادس مع دول الطوائف عموماً. فقد ساهمت سياسة المعتضد بن عباد إزاء الطوائف الصغيرة في تقوية إشبيلية ، على المدى القريب ، كما مكنت المعتمد فيما بعد من انتهاج سياسة المواجهة المباشرة للدول الطائفية الاكثر قوة والاوسع نفوذاً

ونرى بمنظار أوسع أن تصفية إشبيلية للدول الطائفية القوية كقرطبة وبطليوس وطليطلة قد ساهمت في التقاطل من القدرة الدفاعية لمجموع دول الطوائف أمام مملكة قشتالة وليون التي أصبحت تهدد إشبيلية مباشرة لانكسار حاجز دول الطوائف الكبرى الذي كان قائماً بينهما ، وذلك بسبب الضغوط العسكرية والاقتصادية الموجهة من طرف قشتالة شمالا ، وإشبيلية جنوباً .

ومن الواضح أن الهجمات العسكرية المستمرة على دول الطوائف القوية من طرف القاضي بن عباد والمعتضد بن عباد لم تجعل المعتمد بن عباد يعي العواقب القصوى لتلك السياسة فيما بعد ، أي في سنة 468 هـ . /

45) « الذخيرة » ، القسم 2 ، ج . 1 ، صفحتا 39 ـ 40 . و « البيان المغرب » ، ج . 3 ، صفحات 215 و 283 و 294 .

46) « البيان المغرب » ، ج . 3 ، صفحتا 215 ـ 216 .

1086 م . عند ما التزم الحياد إزاء احتلال ألفونسو السادس لطليطلة ، بدل المسارعة إلى نجدة سكانها . ولذلك أدت انتصارات إشبيلية على الطوائف القوية في النهاية ، بصورة حتمية ، إلى مواجهة عسكرية مع قشتالة ، دون أن يكون الجيش الاشبيلي قادراً على مواجهة ذلك التحدي بقلة أنفاره وانخفاض مستواه .

(3) الحرب الدفاعية : العلاقات بين قشتالة والمغرب

أ ـ انعكاسات سقوط طليطلة على إشبيلية

لقد غير سقوط طليطلة والمناطق التابعة لها في قبضة ألفونسو السادس عام 478 هـ . / 1085 م طبيعة العلاقات بين قشتالة ودول الطوائف (47) . فما أن تم له إحتلال طليطلة حتى أنهى سياسة التعايش التي كان يسلكها مع دول الطوائف ، والتي كانت مبنية على فرض ضغوط عسكرية ودبلوماسية بغية الحصول على أموال الجزية . لقد كان إحتلال ألفونسو لطليطلة حدثاً كبيراً بما كان له من العواقب الوخيمة على ملوك

(47) لقد تطرق عدد من المؤرخين القدماء لقضية احتلال ألفونسو السادس لطليطلة . أنظر على سبيل المثال : (« أول تاريخ عام لاسبانيا » ، ج . 2 ، صفحتا 530 ـ 531 و « الذخيرة » ، القسم 4 ، ج . 1 ، صفحات 163 ـ 160 و « كتاب التبيان » ، صفحتا 76 ـ 77 و « كتاب الاكتفاء » ، صفحات 78 ـ 87 . و « وفيات الاعيان » ، ج 5 ، صفحتا 27 ـ 28 و « الكامل » ، ج . 8 ، ص . 150 .

الطوائف . وعظمت قوة الحدث لما جعلها الملك القشتالي عاصمته الجديدة (48) . وقد تسببت غطرسته ومعاملته القاسية لسكان طليطلة المسلمين في إثارة الغضب بجميع أطراف الاندلس . فإذا كان الكاثوليكيون في بلاط ألفونسو قد رحبوا بتحويل مسجد طليطلة الاعظم إلى كاندرائية فإن ذلك التصرف قد كان إهانة للمسلمين الاندلسيين الذين استنكروه بشدة (49) ، بل إن المستعربين أنفسهم لم يساندوه . ولعل مثل هذا التصرف المتطرف يرجع إلى أن ألفونسو قد أصبح يعتبر نفسه بمثابة الحاكم الشرعي للاندلس كلها (50) . وفي إتخاذه الالقاب الفخمة كلقب الامبراطور ذي الملتين ما يشير إلى ذلك (51) .

48) « أول تاريخ عام لاسبانيا » ، ج . 2 ، صفحتا 530 ـ 531 .

49) نفس المصدر ، صفحات 540 ـ 542 و « الذخيرة » ، القسم 4 ، ج 1 ، ص 168 .

50) لقد أفصح ألفونسو السادس لمبعوث المعتمد بن عباد عن عداوته لملوك الطوائف واحتقاره لهم بعد احتلاله لطليطلة : « كيف أترك قوماً مجانين ، تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم المعتضد والمعتمد والمعتصم والمتوكل والمستعين والمقتدر والامين والمأمون ، وكل واحد منهم لا يسل في الذب عن نفسه سيفاً . . . » (« كتاب الاكتفاء » ، ص . 60) .

كما عبر ألفونسو السادس عن عداوته لملوك الطوائف بكل وضوح (« الذخيرة » ، القسم 4 ، ج . 1 ، صفحتا 166 ـ 167) .

51) استعمل ألفونسو السادس هذا اللقب في الرسالة التي بعثها الى المعتمد بن عباد بعد احتلال طليطلة (« الحلل الموشية » ، ص 26) . وهناك إشارة إلى اتخاذ ألفونسو هذا اللقب في مصدر يرجع تاريخه الى القرن السادس الهجري : « . . . وتسمى بالانبراطور ، وهو بلغتهم أمير المؤمنين ، وجعل يكتب في كتبه الصادرة عنه من الانبراطور ذي الملتين ، وأقسم لارسال الرؤساء أنه لا يترك في الجزيرة من الثوار أحداً ، ولا يبقي لهم ملتحداً ، سوى من اكتسبته رعايتي ، وشملته عنايتي » (« كتاب الاكتفاء » ، صفحتا 68 ـ 69) .

أما السبب المباشر للقطيعة بين ألفونسو والمعتمد فيرجع إلى قتل الاخير لليهودي ابن شاليب ، الذي كان مكلفاً بجمع الجزية لالفونسو ، وذلك عندما رفض الاموال التي دفعها له المعتمد بن عباد ، مدعياً أن النقود كانت مزورة (52) . وقد بعث ألفونسو كتاباً إلى المعتمد ينذره بعبارات صارمة ، ويأمره فيه بتسليم جميع أراضي إشبيلية إلى عامله الجديد . ألفار فانييث . (Alvar Fáñez) (53) .

وبسقوط طليطلة إقتنع ألفونسو السادس بوجوب إخضاع الدول الطائفية الاخرى ، بدون استثناء ، لنفس المصير . وخلاصة القول هي أن الملك القشتالي لم يعد مستعداً لقبول أي ثمن مقابل السلم ، سواء اتخذ ذلك الثمن طابع التبعية والولاء السياسي ، أو جاء على شكل أداء الجزية . وقد أدى موقفه المتصلب إلى اعتماده على سياسة جديدة تتجه كلياً إلى تحقيق الاحتلال العام .

وإذا كان سقوط طليطلة وسياسة ألفونسو الجديدة مفاجئين لملوك الطوائف ، فإن هذه السياسة الجديدة جاءت نتيجة للاصطدامات الداخلية في قشتالة بين مجموعات متطاحنة بسبب اختلاف ميولها السياسية . فقد كانت توجد في قشتالة ثلاث قوى ذات أهمية سياسية بارزة خلال القرن الهجري الخامس ، وهي : العرش المشخص في الملك ، والكنيسة الايبيرية الممثلة في المستعربين ، والكنيسة الكاثوليكية التي ألهمها رهبان « كلوني » الفرنسيون

---

52) « الحلل الموشية » ، صفحتا 28 ـ 29 و « الروض المعطار » ، ص . 84 .
53) « الحلل الموشية » ، ص . 25 .

بالدرجة الاولى . ورغم بروز البعد الاجتماعي والديني لهذا النزاع ، فإن الابعاد السياسية وصدى الاصطدام في إشبيلية والدول الطائفية الاخرى هي التي تهمنا بصورة أساسية .

لقد أدى انتقال ألفونسو من سياسته السابقة المبنية على فرض الجزية إلى سياسة التوسع الجديدة إلى إصطدامه بالمستعربين الذين كانت كنيستهم منبثقة عن جماهير المسيحيين الذين تأثروا باللغة العربية ، فكان تعايشهم مع المسلمين يؤثر تأثيراً عميقاً في مزاجهم وأسلوب حياتهم ، بل يؤثر في عقائدهم ذاتها . وكما لم يسع الحكام المسلمون إلى القضاء عليهم ، فإن المستعربين بدورهم لم يتخذوا موقفاً متطرفاً ومتعسفاً من المسلمين . لقد كان انتماؤهم للعرش القشتالي يقوم على الصدق والالتزام ، فاستمروا في تأييد سياسة ألفونسو الرامية إلى انتزاع أكبر قدر ممكن من المكاسب المادية عن طريق تزكية وإلهاب الخلافات الداخلية بين دول الطوائف . وكان سيسناندو دافيديث (Sisnandos Davides) . وهو من مستشاري ألفونسو المستعربين ، والذي عين أول حاكم مسيحي لطليطلة ، قد نصح ملك قشتالة بفرض حكمه على الاندلس ، معتمداً على ملوك الطوائف (64) . وأخذ سيسناندو نفسه ، من خلال تحليله السليم وإدراكه العميق للاحوال السياسية العامة ، بمساندة سياسة مرنة لم تؤثر بطريقة عنيفة في توازن القوى بالاندلس . إذ كان من شأن اختلال ذلك التوازن أن يؤدي إلى تدخل خارجي من

---

64) نصح سيسناندو ألفونسو السادس بالاعتماد على ملوك الطوائف كعمال له بدل احتلال أراضيهم : « . . . ولا تلح ملوك الجزيرة قلمت تستغني عنهم ، ولا تجد عمالا أطوع منهم . . . » (« الذخيرة » القسم 4 ، ج . 1 ، ص : 168 .

المغرب يمس مصالح قشتالة وينال منها . وقد أشار سيسناندو إلى احتمال حدوث تلك النتيجة عند تطبيق سياسة ألفونسو (56) .

كانت مكافحة رهبان كلوني للمذهب الاسباني للمستعربين قد تحولت تحولا هاماً في سنة 473 هـ . / 1080 م . عند ما منع المذهب الاسباني رسمياً ، في مملكة ليون وقشتالة في اجتماع مجلس « برغش » (Burgos) وقد ساهم سقوط طليطلة في تعزيز جانب الكلونيين الذين كانوا قد استقروا نهائياً باسبانيا ، واتخذوا دير ساهكون (Sahagun) مركزاً رئيسياً لهم . ثم عارضت الكنيسة الكاثوليكية كنيسة المستعربين معارضة شديدة ، وساندت ألفونسو في سياسته لفرض الجزية وسياسة مباشرة بامكانها في النهاية أن تؤدي إلى إخضاع الاندلس كلها . وقد كانت الكنيسة الكاثوليكية تعتبر التساهل مع الاندلسيين تنازلا لا تدعو إليه أية ضرورة ، بل كانت تراه خيانة صريحة ولم يتحقق النجاح النهائي للكنيسة الكاثوليكية في إقناع ألفونسو باتخاذ سياسة معادية لدول الطوائف بفضل الخطة المذهبية العريضة لمكافحة الكفار ضمن حركة مسيحية تحريرية أوسع ، بقدر ما كان ناتجاً عن النشاط المنظم للرهبان الكلونيين الذين كانت لدورهم أهمية بارزة كقوة حيوية زودت الدولة القشتالية الناشئة بالوعي الروحي وبالمبرر الشرعي لايثار الكفاح . ولم يكن دعاة السياسة التوسعية المحيطون بألفونسو في قصره من المتدينين ، بل إن عدداً من الموظفين السامين المقربين عند الملك قد عبروا عن تأييدهم لاتخاذ سياسة توسعية وتعسفية قبل سقوط طليطلة بوقت طويل .

---

56) نفس المصدر .

لقد ترأس « بيدرو أنسوريث (Pedro Ansurez) وألفار فانيث (Alvar Fáñez) من مؤيدي السياسة الصارمة مع ملوك الطوائف بعثات ألفونسو لفرض الجزية على الامير عبد الله بن بلقين ، حاكم غرناطة ، حوالي سنة 467 هـ . / 1074 م . ، وسنة 483 هـ . / 1090 م . (56) . ولم تكن هذه السياسة المستقبلية سرا حتى بالنسبة لعبد الله بن بلقين الذي يحكي كيف أخبره سيسناندو دافيديث بنوايا ألفونسو في قهر دول الطوائف وإخضاعها (57) .
ويمكن القول في النهاية بأن الملك القشتالي الذي أثر مباشرة في النتيجة النهائية للتطاحن بين الكنيسة الكاثوليكية والمستعربين هو الذي استفاد أكثر من غيره من ذلك التطاحن ، إذ ازدادت قوته وارتفع شأنه نتيجة اختياره للسلوك الاكثر تعسفاً .

ب ـ معركة الزلاقة وآثارها على إشبيلية

كانت نتائج معركة الزلاقة ذات أهمية بالغة عند يوسف بن تاشفين ، إذ مهدت له السبيل لفرض سيادته على الاندلس . كما كانت أهميتها عظيمة على ألفونسو السادس ، إذ أصيب تخطيطه لاحتلال الاندلس بضربة

56) « كتاب التبيان » ، صفحتا 76 و 120 .
57) نفس المصدر ، ص . 73 .

قاسية (58) . وقد تجلت بوضوح المعنويات المرتفعة للغالبين في تلك المعركة فيما كتبوا من الرسائل في وصف انتصارهم (59) . وكان الجنود وقوادهم والمعتمد بن عباد نفسه محل مدح وتبجيل عظيمين لقاء شجاعتهم في المعركة التي لم يقرر الاشبيليون المشاركة فيها طوعاً ، بل فرضتها

---

58) لقد تطرق كل من المؤرخين المعاصرين للقرن الخامس الهجري والذين جاءوا من بعدهم ، لمعركة الزلاقة بكيفية مفصلة أو مختصرة . أنظر على سبيل المثال : ألفونسو العاشر وسانشو العاشر ، (« أول تاريخ عام لاسبانيا » ، ج . 2 ، صفحتا 557 _ 558) ، وابن عذاري ، (« البيان المغرب » ، ج . 4 ، صفحات 130 _ 140) ، والنويري ، (« نهاية الارب » ، صفحات 99 _ 101) ، وعبد الله بن بلقين ، (« كتاب التبيان » ، صفحات 104 _ 108) ، والحميري ، (« الروض المعطار » ، صفحات 73 _ 86) ، والمراكشي ، (« المعجب » ، صفحات 132 _ 136) ، ومؤلف مجهول الاسم ، (« الحلل الموشية » ، صفحات 44 _ 63) . كما تعرض المؤرخون المهتمون بالتاريخ الاندلسي والمغربي مؤخراً لموضوع معركة الزلاقة ، خصوصاً في إطار احتلال المسيحيين للاندلس بعد سقوط طليطلة في أيديهم وفرض يوسف بن تاشفين نفوذه على الاندلس . على سبيل المثال ، أنظر كتاب أمبروسيو ويثي ميراندا ، « المعارك الكبرى لحرب الاسترجاع خلال الغزو الافريقي (المرابطون والموحدون وبنو مرين) » :
Ambrosio Huici Miranda , *Las grandes batallas de la Reconquista durante las invasiones Africanas (Almoravides, Almohades y Benimerines)* Madrid, 1956 , pp.19 - 82
وكتاب ايفاريست ليفي بروفنسال واميليو غارثيا غوميث و خ . أوليفر آسين ، « معلومات جديدة عن معركة الزلاقة (1086) » :
E. Lévi Provençal E. Garcia Gómez and J. Olivier Asin, *Novedades sobre la batalla llamada al - Zallāqa (1086)*, *A. A.* . X V (1950) , pp. 111 - 155 .
واتخذ عبد الله عنان نظرة مختلفة عندما تطرق لموضوع معركة الزلاقة ، أنظر محمد عبد الله عنان ، « دول الطوائف » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، 1969 ، صفحات 321 _ 332 .

59) على سبيل المثال ، أنظر رسالة يوسف بن تاشفين لتميم بن المعز المنقولة في « دول الطوائف » ، صفحات 446 _ 450 ورسالة المعتمد بن عباد إلى ابنه الرشيد (« الاحاطة » ، ج . 2 ، صفحتا 114 _ 115) .

عليهم الاوضاع الداخلية والخارجية المتقلبة (60) لقد كان الهدف الاساسي من مشاركة إشبيلية في معركة الزلاقة هدفاً دفاعياً ينحصر في العمل على إيقاف حملات ألفونسو المكثفة والمتزايدة على دول الطوائف. وجاء سقوط طليطلة سنة 478 هـ. / 1085 م. فرسم صورة حية في أذهان ملوك الطوائف الذين عظم خوفهم لما أصبحوا يشاهدون مصيرهم شبيهاً بمصير طليطلة. ونظراً لحدة التطاحن بين دول الطوائف وآثارها السلبية من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والتي يرجع وجودها إلى أيام نشأتها الاولى، فلم يكن ملوك الطوائف يتوقعون حدوث رد مشترك على سياسة ألفونسو التوسعية وقد ظلوا على ذلك حتى عند ما أصبحت نهاية وجودهم أمراً لا مفر منه. فلم يبق أمامهم إلا أحد اختيارين: إما الاستسلام لالفونسو بدون قيد ولا شرط، وإما الاستنجاد بيوسف الذي اتفقوا على إيثاره. ومع ذلك فقد أدى تكثيف صفوف ملوك الطوائف أمام سياسة ألفونسو باستنجادهم بيوسف إلى مجال التدخل السياسي في الاندلس من طرف المغاربة، دون أن يولوا أي اعتبار لعواقب ذلك التدخل. إذ لما استغاث ملوك الطوائف

---

60) دفعت عوامل مختلفة بملوك الطوائف إلى الاستنجاد بيوسف بن تاشفين سنة 478 هـ / 1085 م. (سقوط طليطلة والضغوط العسكرية التي مارسها ألفونسو وفشل دول الطوائف في توحيد صفوفها أمام الخطر المشترك). ويعكس الحوار التالي للمعتمد مع ابنه الرشيد تردده قبل اتخاذه قرار الاستنجاد بيوسف: «... وهذا اللعين أدفنش قد أخذ طليطلة من يد ابن ذي النون بعد سبع سنين وعادت دار كفر وها هو قد رفع رأسه إلينا وإن نزل علينا بكلكله ما يقلع عنا حتى يأخذ إشبيلية ونرى من الرأي ان نبعث إلى هذا الصحراوي ملك العدوة نستدعيه للجواز ليدفع عنا هذا الكلب اللعين إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا... رعي الجمال والله عندي خير من رعي الخنازير...» («الحلل الموشية»، صفحتا 31 - 32).

بيوسف وقعوا بالفعل تحت سيطرته فأضاعوا ميزة المبادرة وفرصة التحكم في السياسة الواجب اتخاذها إزاء ألفونسو الذي عجزوا عن مواجهة خطره على إنفراد. فالمعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف لم يقدروا احتمال تدخل يوسف على نطاق واسع في الاندلس حق قدره، ففشلوا نتيجة لذلك في مواجهة تعاظم دور جيرانهم الاقوياء. وقد كان ذلك مفاجئاً لهم في وقت لم يعودوا فيه قادرين على تغيير ذلك الاتجاه. وبذلك أصبح تصاعد الضغوط السياسية الخارجية على الاندلس والتدخل العسكري فيها أمراً محتوماً

وإذا كانت دول الطوائف قد دافعت عن وجودها في الزلاقة فقد أدت نتائج هذه المعركة إلى تطوير عدة عوامل أضعفت ذلك الوجود وجعلت أمده قصيراً. فالآثار التي خلفها يوسف بن تاشفين في طليعة تلك العوامل التي ثبتت جذورها في الاندلس بصورة متينة ونهائية نتيجة مساهمته الفعالة وفضله الكبير في انتصار الزلاقة فلما اعترفوا بانقاذه لهم من حرص ألفونسو على التوسع وقدروا له ذلك الصنيع، وضعوا أنفسهم تحت وصايته الروحية والمعنوية، وأصبحوا ملزمين باستشارته قبل اتخاذ أي قرار من القرارات الهامة. ويأخذ رأيه بعين الاعتبار. وأدى ضعف ملوك الطوائف وتفرقهم إلى التزامهم، سياسياً، بقبول قيادة يوسف بصفته أميراً للمؤمنين والاعتراف به، بل وصل بهم الحال إلى ما هو أبعد من ذلك. إذ أخذ بعضهم يشكو البعض الآخر ليوسف الذي جعلوه حكماً (61). وقد رفض يوسف بصفة

---

61) فعلى سبيل المثال، التجأ تميم بن بلقين الزيري، أخ عبد الله بن بلقين، الى يوسف بن تاشفين ليحسم في نزاعه مع أخيه عبد الله («كتاب التبيان» ص. 106). وطلب ابن رشيق من يوسف ان يقضي في نزاعه مع المعتمد بن عباد (نفس المصدر، صفحتا ←

رسمية أن يصير حكماً بينهم ، إستناداً إلى أنه لم ينو أبداً التدخل في الشؤون الخاصة بدول الطوائف . إلا أن تحكيمهم إياه يبرز مدى تصاعد مركزه الهام في الاندلس بعد الزلاقة . وكان يوسف قد اكتسب القوة الكافية لفرض سياسته على الاندلس فلم يجد ملوك الطوائف أنفسهم قادرين على رفض مثل تلك المواقف .

لقد زعم بعضهم أن مشاركة يوسف في معركة الزلاقة كانت خطوة أساسية في سعيه لاخضاع ملوك الطوائف ، وأن ذلك الاخضاع كان هدفه منذ البداية عند ما قطع البوغاز ونزل بالاندلس لاول مرة . وإذا كان من شأن هذا الادعاء أن يشوه سمعة يوسف ، فلا توجد إلا أدلة قليلة على مساندته . إذ لا يوجد ما يثبت نية يوسف إلى إخضاع الاندلس قبل وقوع معركة الزلاقة التي لم يكن لديه سبيل المتأكد سلفاً من نتائجها . وعلى أي حال فإن ملوك الطوائف هم الذين استغاثوا به . وقد كان يوسف متردداً وحذراً قبل إقدامه على مساندة ملوك الطوائف وقد أدى تردده في إصدار الجواب الفوري إلى أن بعث ألفونسو كتاباً إلى يوسف متهماً إياه بالجبن لتأخره عن المواجهة العسكرية ، بل يتحداه لمعركة يلتقي فيها الجمعان على الارض المغربية نفسها ، شريطة أن يمكنه يوسف من السفن

← ——

110 ـ 111) . وتخلى يوسف بن تاشفين بعد عبوره الثاني للاندلس عن فكرة محاولة إنقاذ الدول الطائفية المتفرقة • من هجومات ألفونسو السادس ، حيث قرر ان يعود الى المغرب في عدة مناسبات نظراً لكون ملوك الطوائف القلوا بشكاياتهم السخيفة من بعضهم البعض (نفس المصدر ، صفحتا 106 ـ 107 و 111 ـ 114) .

اللازمة لجيشه ليقطع المضيق (62) . ولا يمكن لما سلف ذكره أن نستنتج ثبوت النية عند يوسف على إخضاع الاندلس قبل وقوع معركة الزلاقة . إلا إذا سلمنا بتخمينات حول دوافعه الشخصية . أما الادلة المتوفرة فتثبت

---

62) يصف يوسف بن تاشفين نفسه الرسالة التي توصل بها من ألفونسو السادس وذلك في رسالة بعثها لتميم بن المعز بن باديس . ولقد اكتشف الاستاذ عبد الله عنان رسالة يوسف المذكورة ونشر نصها الكامل في «دول الطوائف» ، صفحات 444 ـ 450 ، وهناك بعض الفقرات من رسالة ألفونسو ليوسف في « الحلل الموشية » ، صفحتا 29 ـ 30 ، ويوجد نص هذه الرسالة أيضاً في مصدر شرقي ، وهذا النص أكثر امتداداً من نص « الحلل الموشية » (حسن التوسل) ، ص 4 هناك عدة عناصر تشير الى هذه الرسالة . اولا ، نقلت هذه الرسالة في كتاب لمؤلف موثوق به هو شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي الذي عمل في منصب رئيس ديوان الانشاء في مصر .

وكان الهدف الاساسي الكتاب الذي نشرت فيه هذه الرسالة وهو «كتاب حسن التوسل الى صناعة الترسل » شرح الاساليب الرفيعة والبلاغة في إنشاء الرسائل . فالحلبي نقل رسالة ألفونسو السادس لمجرد اهتمامه بأسلوبها . فليس من المحتمل أن يكون قد غيرها ، خصوصاً إذا اعتبرنا أن اهتمامه الحقيقي كان بجواب يوسف فنقل رسالة ألفونسو في هذا الإطار . وزيادة على ذلك ، كان الحلبي كاتباً مصرياً عاش بعد نسخ الرسالة الاصلية بنحو ثمانمائة سنة فلم يهمه أمر تغيير مضمونها ولم يكن لها أثر عليه . ومع ذلك ، فإن محتوى هذه الرسالة هو الذي يشير إلى أصالتها أكثر من غيره . فالحلبي يعطينا إسم المستعرب ابن الفخار الذي كتب النص الاصلي للرسالة مما يثبت أنها كتبت أصلا بالعربية (نفس المصدر) ، وخلافاً للرسالة التي نسبت إلى ألفونسو في « الحلل الموشية » فإن تلك التي نسخت في « كتاب حسن التوسل » تفتتح بإسم المسيح كما كان من شأن ألفونسو أن يفعل ومن المهم أيضا أن الرسالة التي نقلت في « كتاب حسن التوسل » أكمل من التي نقلت في « الحلل الموشية » حيث يبدو أن هذه الاخيرة عبارة عن تلخيص للأولى . وأخيراً ، إن جواب يوسف في شكل سورة قرآنية قابل للتصديق أكثر من البيت الشعري الذي جاء به صاحب « الحلل الموشية » .

أن قرار إحتلاله للاندلس جاء بعد إقتناعه بعجز ملوك الطوائف عن جمع شملهم ووقاية أنفسهم من عواقب سياسة ألفونسو التوسعية.

وهناك نتيجة سلبية ثانية لمعركة الزلاقة، وهي أنها فجرت القوى الاقتصادية والاجتماعية الداخلية التي كانت تستهدف سحق نظام دول الطوائف نفسه. فقد قاد الفقهاء ورجال الدين بمساندة الجماهير الاندلسية حملة إعلامية على ملوك الطوائف عموماً. وكانت أخطر التهم التي وجهوها إليهم هي فرضهم ضرائب مجحفة تتنافى مع المبادىء الاسلامية. وقد كان ملوك الطوائف قد أرهقوا رعاياهم بالضرائب التي كانوا ينفقونها في تسديد مصاريف قصورهم الباهظة من جهة، وفي أداء الجزية لالفونسو السادس تأميناً لمسالمته من جهة أخرى. وبعد معركة الزلاقة وانتشار صيت يوسف بن تاشفين في الاندلس أخذ الفقهاء البارزون يلحون على يوسف لانهاء سياسة ملوك الطوائف التعسفية في المجال الجبائي. وذلك بتحريم الضرائب المناقضة للمبادىء الاسلامية وقد قام الفقهاء بدور نشيط في مساندة يوسف ومناصرته على ملوك الطوائف الذين كان نفس مبعوثيهم إليه ينتقدونهم إنتقاداً شديداً. إلا أن أولئك الملوك كانوا يجدون أنفسهم عاجزين عن القيام بأي رد، رغم إدراكهم لتلك التطورات. وقد كان الفقيه ابن القليعي معروفاً بتوسطه بين ملوك الطوائف ويوسف بن تاشفين (63). وبعث تميم ابن بلقين الزيري، أخو عبد الله بن بلقين، إلى القاضي ابن سهل، خمسين مثقالا ليدافع عن موقفه لدى يوسف بشأن خلافه مع أخيه. إلا أن ابن سهل

63) «كتاب التبيان»، ص. 109.

امتنع ورفض الارتشاء (64) . ويقدم الامير عبد الله وصفاً شاملا للجهود التي بذلها ابن القليعي لتشويه سمعته (65) . واختلفت الدوافع في عداوة الفقهاء لملوك الطوائف . فإذا كان سلوك القاضي ابن سهل ينطلق من مبادىء شريفة فإن الامر لم يكن كذلك بالنسبة للقاضي بن القليعي الذي كان على خلاف مع باديس . فلم يطمئن له بال حتى انتقم منه بوساطة حفيده عبد الله بن بلقين (66) . ورغم الاستياء الكبير الذي شاع في دول الطوائف بسبب الضرائب المرهقة ، فلم يبذل الملوك أية محاولة لتبرير سياستهم المالية والجبائية باسنادها على أساس شرعي أو منطقي على الاقل ، بل إنهم حاولوا بدل ذلك التقليل من العلاقة بين الجزية التي كانوا يدفعونها لالفونسو والزيادة المستمرة في الضرائب ، مبرهنين على أن الامر الاول لم يكن له تأثير في الثاني إطلاقاً .

واتهم يوسف بن تاشفين والفقهاء الاندلسيون ملوك الطوائف ، زيادة على الضرائب المرهقة ، بتهمة أخطر هي التآمر مع الملك المسيحي ألفونسو السادس ، على الاسلام ، وضداً على مصالح رعيتهم . وكان من العسير دفع هذه التهمة ، لان ألفونسو شرع بعد معركة الزلاقة في شن هجوماته على عدد من الدول الطائفية ، منها غرناطة وإشبيلية ، وفرض الجزية عليها . ويعترف عبد الله بن بلقين بعجزه عن مواجهة ملك قشتالة ، كما حاول تبرير دفعه للجزية التي فرضها عليه ، وذلك عند ما أخبر يوسف بأن الجزية لم

64) نفس المصدر ، ص . 117 .

65) نفس المصدر ، صفحات . 118 ـ 119 .

66) نفس المصدر ، ص . 118 .

تكن ترهق رعيته لانه كان يؤديها من حر ماله (67) . ووجد المعتمد بن عباد نفسه أيضاً عاجزاً عن مواجهة هجومات ألفونسو فزعم أن المعاهدات التي أبرمها معه لم تكن تؤثر في ولائه ليوسف ولا في القيام بواجبه نحو رعيته . وعندما أصبح قرار يوسف باحتلال إشبيلية أمراً واضحاً تخلى المعتمد عن ولائه ليوسف ، باعتبار أن هذا كان ضعفاً عنده وحليفاً له عند ما واجه ملوك الطوائف ألفونسو في معركة الزلاقة . فلما تغيرت الظروف أصبحت ضغوط يوسف بن تاشفين على إشبيلية تساوي بين مركزه ومركز ملوك الطوائف المجاورين لها (68) . ونجد في نهاية التحليل أن ملوك الطوائف فشلوا في دفع الاتهامات الموجهة إليهم ، عند ما أخفقوا في رد خطر ألفونسو السادس لما أحيى سياسته التوسعية من جديد . وعجز ملوك الطوائف عن تلبية مطالب ألفونسو المالية فاضطروا إلى اللجوء إلى فرض الضرائب المرهقة ، الامر الذي أثار عليهم مشكلات مع يوسف بن تاشفين .

ورغم بقاء الجيش الاشبيلي على ولائه التام للمعتمد بن عباد ، فإن قواد الجيوش الاندلسية الاخرى تمكنوا من تأليف مجموعة ضاغطة لحمل يوسف على تنفيذ قراره باحتلال دول الطوائف .

وإذا كان الجنود المغاربة قد ألفوا العمود الفقري لجيش يوسف فهناك أدلة تثبت انخراط بعض العناصر الاندلسية فيه بعد اتخاذه القرار النهائي باحتلال دول الطوائف . وقد كان يوسف يرفض التعاون مع الاندلسيين

---

67) نفس المصدر ، ص . 127 .

68) نفس المصدر ، ص . 169 .

أول الامر ، إلا أن استحالة الاستغناء عن القواد الاندلسيين لمعرفتهم بالمنطقة جعلته يعتمد عليهم إعتماداً كبيراً . فرغم ضخامة النتائج التي أسفرت عنها معركة الزلاقة . وظهور بعض العناصر الجديدة التي ذكرناها فيما سلف ، فإن بعض خصائص الحالة السابقة ظلت على ما كانت عليه من قبل ، فساهمت في الانهيار الكامل لدول الطوائف . ومن تلك الخصائص استمرار تهديد ألفونسو لوجودها . وهكذا كان لمعركة الزلاقة دور هام في صد ألفونسو عن احتلال الاندلس . ولكن الجيش المسيحي لم يصب بشلل كلي ، لان المنتصرين لم يتعقبوه في إنهزامه إلى النهاية . وبما أن يوسف عاد إلى المغرب مباشرة بعد وقوع المعركة ، فقد تمكن ألفونسو من شن هجومات جديدة على دول الطوائف ، الواحدة بعد الاخرى . ثم عاد يوسف إلى الاندلس عند ما طلب المعتمد بن عباد وملوك طوائف آخرون تنظيم وقيادة الحصار لحصن لييط (Aledo) المسيحي . وعند ما علم يوسف بأن ألفونسو قادم لانقاذ الحصن انصرف عن المشروع دون إتمامه ، متعللا بأن ملوك الطوائف أصابتهم التفرقة فبلغت درجة لا يمكن تداركها بالاصلاح ، ومشيراً إلى مسؤوليتهم في توحيد كلمتهم للدفاع عن أنفسهم (69) . وبمجرد ما غادر يوسف أرض الاندلس عائداً إلى المغرب ، بعد الاقلاع عن محاصرة الحصن ، شرع ملوك الطوائف في توطيد قوتهم الدفاعية لدرء أي هجوم مباغت ، سواء كان من طرف يوسف أو من جانب ألفونسو السادس . ويورد الامير عبد الله بن بلقين وصفاً مفصلا للاستعدادات التي اتخذها في غرناطة (70) .

69) نفس المصدر ، ص . 112 .

70) نفس المصدر ، ص . 120 .

واعتمد ألفونسو على تفوقه العسكري في تهديـد أعدائه ، ففرض على ابن هود ، حاكم سرقسطـة ، أداء الجزيـة له (71) . وقد كان الجيش المسيحي بقيادة « ألفار فانييث » ، لما اضطر عبد الله بن بلقين ، بدوره ، لاداء ثلاثين ألف مثقال مقابل أمانه لمدة ثلاث سنيـن (72) . ولم تجد الدول الطائفيـة الاخرى مفراً من الرضوخ لشروط ألفونسو .

وهنـاك مسألة مهمـة أخرى يجب الالحاح عليهـا عند اعتبارنـا لنتائج معركة الزلاقة ، وهي أن الانتصار فيها لم ينه الصراع بين دول الطوائف ، أو يوحدها كما كان متوقعاً ، بل أدى إلى الزيادة في توسيـع شقة الخلاف بينهـا . وبالاضافة إلى أموال الجزية التي كان ملـوك الطوائف يؤدونهـا لالفونسو كانت هناك المبالغ الباهظة التي أنفقت في التودد إلى يوسف ، وفي أداء نفقـات جيشه بالاندلس . وكان من المستحيل أداء كل هـذه المصاريف علماً بأن الرعايا الاندلسيين رفضوا دفع الضرائب فعجز ملوك الطوائف عن معاقبتهم (73) . ومن الامثلة على ذلك أن الفقيه القليعي كان يجهر في غرناطـة بعدم وجوب أداء الضرائب لعبد الله بن بلقين (74) . واستمر الصراع الداخلي بين دول الطوائف حتى عند مـا استأنف ألفونسو السـادس هجوماته بعد معركة الزلاقة . وكانت ردود فعل الدول الطائفية

---

71) نفس المصدر ، ص 123 .

72) نفس المصدر ، صفحتا . 122 و 127 .

73) نفس المصدر ، ص . 108 .

74) نفس المصدر ، ص . 110 .

للعنصر الجديد المتمثل في حضور يوسف بالاندلس ردوداً سلبية ذات نظرة قاصرة شأنها شأن سلوكهم ونظرتهم إلى ألفونسو . ولذلك سار تقدم يوسف ابن تاشفين من الجنوب على نفس الاتجاه الذي انتهجه ألفونسو فيما سبق من الشمال . فقد تمكن يوسف من احتلال دول طائفية مختلفة ، الواحدة إثر الاخرى ، بسرعة وفعالية خارقتين . وأدى شلل دول الطوائف في نهاية الامر إلى تبعثرها على نحو معد لسقوطها بصورة حتمية . وباحتلال يوسف لدول الطوائف ظهر أنه كان أقدر من ألفونسو على القيام بتلك المهمة . وأبرزت الاحوال العسكرية العامة بعد معركة الزلاقة التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي حدثت . فلم تكن جيوش دول الطوائف في المستوى المطلوب للدفاع المشترك عن وجودها . إذ كانت أقل نفراً من جيوش ألفونسو ، ومن جيوش يوسف بن تاشفين أيضاً .

وبالاضافة إلى ما سلف لم يأخذ ملوك الطوائف بتاتاً بعين الاعتبار فكرة اتخاذ تدابير الدفاع الجماعي ، بل انهم لم يتصوروا احتمال توحيد مجهوداتهم عند ما كان ذلك مطلوباً منهم للحفاظ على بقائهم (75) .

الخاتمة : فشل سياسة إشبيلية الخارجية

لم تطل كثيراً فترة تفاؤل ملوك الطوائف بعد معركة الزلاقة . فقد غادر يوسف بن تاشفين الاندلس إلى المغرب ، مرة ثانية ، قبل أن يعود

---

75) عبر الامير عبد الله بن بلقين مراراً في مذكراته عن اعتقاده بان توحيد ملوك الطوائف كان أمراً مستحيلا (مثلا ، نفس المصدر ، صفحتا . 63 و 64) .

ليشارك ملوك الطوائف في محاصرتهم لحصن لييط (Aledo) في سنة 481 هـ / 1088 م . وبعد أن استمر هذا الحصار عدة شهور تخلى يوسف عنه لاسباب لم تكن واضحة تماماً . فقد أشارت بعض المصادر إلى أن يوسف سمع باستعدادات ألفونسو لنجدة الحصن المسيحي فتملكه الخوف ، وعاد إلى المغرب (76) . وتوحي مصادر أخرى بأنه أقلع عن الحصار تخوفاً من خيانة بعض ملوك الطوائف أو بعض المتمردين من أمثال ابن رشيق حاكم مرسية . كما خشي إلتحاقهم بصفوف ألفونسو وإخلالهم بتوازن القوى لصالح المسيحيين (77) . أما العذر الذي كان يتعلل به يوسف فكان يرتكز على أن الفرقة بين ملوك الطوائف بلغت درجة يرثى لها (78) . ولكن يبدو أن يوسف تأكد من ضعف ملوك الطوائف وانشقاقهم خلال حصاره لحصن لييط ، فقرر إحتلال دولهم الواحدة تلو الاخرى تنفيذاً لسياسته التوسعية . وكان الجو قد أصبح ملائماً لتدخل يوسف بعد التحولات الجوهرية التي شهدتها الاندلس .

عاد يوسف إلى الاندلس للمرة الثانية فشرع جيشه في إحتلال دول الطوائف . وقد كان ذلك الاحتلال سريعاً وفعالا لان الدول الطائفية لم تتعاون فيما بينها فاستطاع الجيش المرابطي أن يخضعها ، الواحدة إثر الاخرى . ولم يخف ألفونسو السادس أو أي حاكم مسيحي آخر لنجدتهم ، الامر الذي يشير إلى تفوق جيش يوسف . وانتهت هذه الحملة بنجاح حوالي عام 495 هـ .

---

76) « تاريخ رودريكي » ، صفحتا 930 ـ 931 .

77) « كتاب التبيان » ، صفحتا 112 ـ 113 .

78) نفس المصدر .

/ 1102 م. باحتلال بلنسية التي كانت قد وقعت في أيدي «رودريغو دييات» المعروف بالسيد القمبيطور سنة 478 هـ. / 1085م . وسقطت إشبيلية عام 484 هـ. / 1091 م. بعد مقاومة شديدة وطويلة. ورغم أن بعض دول الطوائف قد أبدت مقاومة عنيفة لجيوش يوسف، ومنها إشبيلية وألمرية، فإن بعض الدول الطائفية الاخرى ، مثل غرناطة ، قد فضلت الاستسلام بشروط ملائمة للملوك وأسرهم (79) وفي النهاية وقعت جميع دول الطوائف تحت سيطرة المرابطين، باستثناء سرقسطة .

وقد فشلت إشبيلية في مقاومة جيش يوسف ، كما أخفقت الدول الطائفية الاخرى . إلا أنه كان لها الفضل في تدخله ، لانه أصبح من الواضح في سنة 481 هـ . / 1088 م . أن دول الطوائف ستقع لا محالة إما في أيدي يوسف، أو في قبضة ألفونسو ، بسبب ما أصابها من التفكك والنزاع المستمر، فلم يعد في الامكان بقاؤها كوحدات مستقلة . ثم إن القوة العظيمة لجيوش مملكة ليون وقشتالة من جهة ، وجيوش المغاربة من جهة أخرى ، أدت إلى إحداث هوة شاسعة بينها وبين دول الطوائف ، ثم إلى حمل هذه الدول على الانضمام إلى إحدى الدولتين القويتين .

ولذلك كان سقوط إشبيلية النتيجة النهائية لضعف سياستها الخارجية التي لم تأخذ بعين الاعتبار إحتمال تدخل ألفونسو السادس بصورة مباشرة ، فأدى بدوره إلى التدخل العسكري من طرف يوسف بن تاشفين . فقد كانت مبادىء سياسة إشبيلية الخارجية ، بطريقة غير مباشرة ، وراء تزايد

---

79) نفس المصدر ، صفحتا 154 ـ 155 .

وجود ألفونسو في الاندلس وتأثيره فيها ثم إنها لم تعتبر قشتالة منافسة لها في عداوتها للدول الطائفية الضعيفة والقوية على السواء. فقد وافقت إشبيلية على أداء الجزية السنوية لقشتالة، دون أن تدرك أن قرارها هذا يجعل مملكة قشتالة دولة قوية تصعب مواجهتها ولو بتوحيد قوة الدول الطائفية. ولم يظهر المعتمد بن عباد، فعلا، أية شكوك عند ما أبرم اتفاقية تحالفه مع ألفونسو، إذ لم يتصور في يوم من الايام أن يسلك الملك القشتالي سياسة يسعى بواسطتها إلى استسلام إشبيلية بدون قيد ولا شرط.

ويلاحظ من جهة أخرى أن المعتمد بن عباد ظل في تطبيق سياسته الخارجية على نفس خطة أبيه المعتضد. فقد ورث المعتمد دولة طائفية أصبحت أقوى بكثير مما كانت عليه سنة 433 هـ. / 1041 م. عند ولاية المعتضد، فواصل السياسة على نسق أبيه. وهكذا اتسعت رقعة نفوذها شرقاً إلى مرسية، ونحو الشمال الشرقي حتى ضمت قرطبة. إلا أن الضعف الاساسي لهذه السياسة كان في عدم أخذها بعين الاعتبار لتطور العوامل الجديدة، وبالخصوص تزايد قوة ألفونسو السادس بفضل الاستقرار الداخلي بعد توحيد مملكتي ليون وقشتالة، واستمرار تدفق الاموال المحصل عليها من دول الطوائف الممزقة بعد تضاؤل قوتها نتيجة نزاعاتها المستمرة المهلكة. ويبدو أن الهدف الاقصى لسياسة إشبيلية لم يكن يقتصر على فرض سيادتها على الاندلس كلها. فإذا نحن اعتبرنا عدم اتصاف أهداف إشبيلية بالطابع الواقعي، ونظرنا على الخصوص إلى التوزيع المتوازن للقوى بين الدول الطائفية، وصلنا حتماً إلى الاستنتاج بأن سياسة إشبيلية الخارجية كانت تتميز بتناقضات داخلية.

ونلخص في نهاية التحليل إلى القول ، بعد إيراد الاعتبارات السالفة ، بأنه ربما كان من غير المعقول أن ننتظر من سياسة إشبيلية أن تنجح في إنقاذ الاندلس من تدخل خارجي محتوم ثم إن الدولة الطائفية لم تكن بكيفية تكوينها قابلة للنمو ، كما لاحظ ذلك كل من ابن حزم وابن حيان وعبد الله بن بلقين ، حاكم غرناطة . ولذلك وجب النظر إلى فشل سياسة إشبيلية الخارجية على ضوء ضعف الدولة الطائفية وهشاشتها كنظام حكم سياسي .

المصادر والمراجع

1) لائحة المصادر

البكري ، أبو عبيد الله بن عبد العزيز ،

جغرافية الاندلس وأوربا من كتاب « المسالك والممالك » ، تحقيق د . عبد الرحمن علي الحجي، بغداد ، 1387 هـ . / 1968 م .

ابن الابار ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القرطبي ،

« الحلة السيراء » في جزءين ، تحقيق د . حسين مؤنس، القاهرة، 1963.

ابن أبي زرع (1) ، أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي .

« الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » ، الرباط ، 1972 .

1) لقد اتفق الاساتذة عبد الله عنون وعبد السلام بن سودة ومحمد الفاسي وابراهيم حركات وشانفيث البورتوث على أن كتاب الانيس المطرب بروض القرطاس ليس لابن أبي زرع ، فمؤلفه الحقيقي هو أبو محمد صالح بن عبد الحليم .

ابن الاثير ، أبو الحسن علي بن محمد ،

« الكامل في التاريخ » ، الجزء 8 من أصل 9 أجزاء ، بيروت ، 1967 .

ابن بدرون ، أبو القاسم عبد الملك بن عبد الله الحضرمي ،

« كمامة الزهر وفريدة الدهر » ،

Commentaire historique sur le poème d'Ibn Abdoun par Ibn Badroun, ed. by **Reinhart P.A. Dozy. Leiden. 1846.**

ابن بسام ، أبو الحسن علي الشنتريني ،

« الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » ، 8 أجزاء ، تحقيق د . إحسان عباس ، ليبيا ـ تونس ، 1395 هـ . / 1975 ـ 1399 هـ . / 1979 م .

ابن بشكوال ، أبو القاسم خلف بن عبد الملك ،

« كتاب الصلة في تاريخ أئمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم » ، في جزءين ، تحقيق عزة العطار الحسني ، القاهرة ، 1374 هـ . / 1955 م .

ابن بلقين ، الامير عبد الله بن بلقين بن زيري ،

« كتاب التبيان » ، تحقيق أ . ليفي بروفنصال ، القاهرة ، 1955 .

ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد ،

« طوق الحمامة في الالفة والالاف » ، تحقيق فاروق سعيد ، بيروت ، 1972 .

« نقط العروس » ، تحقيق سيبولد وترجمه الى الاسبانية لويس سيكو دي لوثينا ، بلنسية ، 1974 .

• جمهرة أنساب العرب •، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، 1962.

ابن حمدون، أبو المعالي محمد بن الحسن.

• تذكرة بن حمدون السياسية والادب الملكية •، القاهرة، 1354 هـ. / 1927 م.

ابن حمديس، أبو محمد عبد الجبار الصقلي.

• ديوان بن حمديس •، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، 1960.

ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن أحمد.

• قلائد العقيان في محاسن الاعيان •، القاهرة، 1283 هـ.
• مطمح الانفس ومسرح التأنس في ملح أهل الاندلس •، قسطنطينية، 1302 هـ.

ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد.

• المقدمة •، في جزءين، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، القاهرة، 1376 هـ. / 1957 م. ـ 1378 هـ. / 1958 م.
• كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر •، الجزء 4 من أصل 7 أجزاء، القاهرة، 1284 هـ.

ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد.

• وفيات الاعيان في انباء الزمان •، الاجزاء 2، 5، 6، ومن أصل 8 أجزاء، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، 1968 ـ 1972.

ابن دحية ، أبو الخطاب عمر بن الحسن .

• المطرب من أشعار أهل المغرب » ، تحقيق إبراهيم الابياري ، حميد عبد المجيد وأحمد بدوي ، بيروت ، 1374 هـ / 1959 م .

ابن زيدون ، أبو الوليد أحمد بن عبد الله .

• «ديوان ابن زيدون » ، تحقيق د . علي عبد العظيم ، القاهرة ، 1957

ابن سعيد ، أبو الحسن علي بن موسى .

• المغرب في حلى المغرب » ، في جزءين ، تحقيق د . شوقي ضيف ، القاهرة ، 1953 ـ 1955 م .

كتاب « رايات المبارزين وغايات المميزين » :

El libro de las banderas de los campeones, ed. and tr. into Spanish by **Emilio García Gómez, Madrid, 1942**

ابن عباد ، المعتمد محمد بن عباد .

• ديوان المعتمد بن عباد » ، تحقيق أحمد بدوي وحميد عبد المجيد ، القاهرة ، 1915 .

ابن عبد البر ، أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري الاندلسي .

• التمهيد لما في معرفة أعيان علماء المذهب» ، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكريم البكري ، الرباط ، 1287 هـ / 1967 م .

ابن عبد الحليم ، أنظر ابن أبي زرع .

ابن عبدون ، أبو محمد عبد المجيد بن عبد الله .

« رسالة في القضاء والحسبة » ، تحقيق أ . ليفي بروفنصال تحت عنوان :
Trois traités hispaniques de hisba : Documents arabes inédits sur la vie social et économique en occident musulman au moyen âge caire 1955, pp. 8-65.
إن الرسالتين الاخيرتين هما : « رسالة في الادب والحسبة » ، لابن عبد الرؤوف و « رسالة في أدب الحسبة » ، المجرسيفي .

ابن عذاري ، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي .

« البيان المغرب في أخبار ملوك الاندلس والمغرب » ، الجزءين 1 و 2 ، تحقيق س . كولن و أ . ليفي بروفنصال ، ليدن ، 1951 والجزء 3 ، تحقيـق أ . ليفي بروفنصال ، باريس ، 1930 ؛ الجزء 4 ، تحقيـق د . إحسان عباس ، بيروت ، 1967 .

ابن العماد ، أبو فلاح عبد الحي بن أحمد العكري الحنبلي .

« شذرات الذهب في أخبار من ذهب » . الجزء 3 ومن أصل 8 أجزاء. القاهرة ، 1350 هـ / 1931 م .

ابن فرحون ، برهان الدين إبراهيم بن علي اليعمري المدني المالكي .

كتاب «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، القاهرة، 1351 هـ

ابن الكردبوس ،

كتاب « الاكتفاء في أخبار الخلفاء » المنشور في كتاب « تاريخ الاندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط ، نصان جديدان » ، تحقيق د . أحمد مختار العبادي ، مدريد ، 1971 .

الادريسي ، أبو عبد الله محمد بن محمد ،

« نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » :

Description de l'Afrique et de l'Espagne, ed. and tr. into French by Reinhart P. A. Dozy and M. J. de Goeje, Leiden, 1866.

الاصفهاني ، عماد الدين محمد بن محمد ،

« خريدة القصر وجريدة أهل العصر » ، الجزء 1 و 2 . تحقيق د . عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم ، القاهرة ، 1964 .

نصوص من « خريدة القصر » في كتاب دوزي :

« تاريخ بني عباد » ; Historia Abbadidarum

ص 383 ـ 97 ، 417 ـ 19 ، 423 .

الحلبي ، شهاب الدين محمود بن سليمان ،

كتاب حسن التوسل إلى صناعة الترسل، القاهرة، 1291 هـ / 1881 م.

الحميدي ، أبو عبد الله محمد بن فتوح ،

« جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس » ، القاهرة ، 1966 .

الحميري ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم ،

« كتاب روض المعطار في خبر الاقطار » :

La péninsule ibérique au moyen âge d'après le Kitab ar-Rawd al-Mi'tar fi Habar al-Aktar d'Ibn abd-al-Mun-im al-Himyari, ed. and tr. into French by Evariste Lévi-Provençal, Leiden 1938.

الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد ،

« العبر في ذكر خبر من غبر » ، الجزء 3 ومن أصل 14 أجزاء ، تحقيق فؤاد سيد ، الكويت ، 1960 ـ 1963 م .

ألفونسو العاشر وسانشو الرابع (آمرا بجمعه) . « أول تاريخ عام لاسبانيا » :
Alfonso X and Sancho IV, compiled by order of, *Primera crónica general de España*, ed. by Ramon Menendez Pidal with the collaboration of Antonio G. Solalinde, Manuel Numos Cortes and Jose Gómez Perez, vol. 2 : 2 vols. , Madrid, 1955.

الزجالي ، أبو يحيى عبد الله بن أحمد ،

« ري الاوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام » ، تحقيق د . محمد بن شريفة كالجزء الثاني من كتاب « أمثال العوام في الاندلس لابي يحيى الزجالي (617 ـ 694 هـ) » ، فاس، 1391 هـ/ 1971 م .

الضبي، أبو جعفر أحمد بن يحيى القرطبي ،

« بغية الملتمس في ذكر رجال الاندلس » ، تحقيق فرنشسكو كودرا وخ . ريبرا ، مدريد ، 1885 .

الطرطوشي ، أبو بكر محمد بن الوليد .

« سراج الملوك » ، القاهرة ، 1319 هـ .

القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي ،

« صبح الأعشى في صناعة الانشاء » ، الجزء 5 من أصل 14 أجزاء ، (نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية) ، القاهرة ، 1963 .

دوزي، رينهارت ب. أ. (تحقيق) ،

« تاريخ بني عباد: نصوص مخطوطات عربية لم تنشر » :
Historia Abbadidarum : praemissis scriptorum Arabum de ea dynastia locis nunc primum editis, vols, 1-3 (vols. 2-3 are entitled *Scriptorum Abbadis*), Leiden, 1846-63.

عياض ، القاضي عياض بن موسى السبتي اليحصبي ،

« ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك » ،
الجزء 1 ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، الرباط ، 1384 هـ . / 1965 م .
والجزء 2 ، تحقيق عبد القادر الصحراوي، الرباط ، 1386 هـ . / 1966 م .

عياض ، أبو عبد الله بن القاضي عياض ،

« التعريف بالقاضي عياض » ، تحقيق د . محمد بن شريفة ، الرباط ،
(تاريخ نشره غير مثبت) .

مالك ، ابن أنس ، (جمعه سحنون بن سعيد التنوخي) ،

« المدونة الكبرى »، الجزء 10 من أصل 11 جزء، القاهرة ، 1323 هـ .

مؤلف مجهول ،

« الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية »، تحقيق أ. س .
علوش ، الرباط ، 1936 .
« كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء » ، (المنسوب الى أبي جعفر بن
عبد الحق الخزرجي) ، توجد نصوص هذا الكتاب في كتاب دوزي
(تاريخ بني عباد) : *Historia Abbadidarum*, II, pp. 13-27.

« قصيدة ميوسيد » : *Poema de Mio Cid*, ed. by Colin Smith, Oxford. 1972.

« تاريخ رودريكي » ، منسوب إلى المطران رودريكو :
(attributed to Archbishop Rodrigo). Historia Roderici, ed. by Ramón Menendez Pidal, in vol. 2 of *La España del Cid*, Madrid, 1929, pp. 915-67.

2) لائحة المراجع العربيـة

ابن شريفة ، د . محمد ،

« أمثـال العـوام في الاندلس لابي يحيى الزجالي 671 ـ 694 هـ . » ، الجزء 1 ، فاس ، 1395 هـ . / 1975 م .

الحجوي ، الثعالبي محمد بن الحسن ،

« كتاب الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي » ، الرباط ـ فاس ، 1345 هـ .

الحجي ، عبد الرحمن علي ،

«تاريخ الأندلس من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة (92 ـ 897هـ . / 711 ـ 1492 م .) » ، دمشق ، 1976 .

السعـود م . م . ،

« ديوان المعتضد بن عباد» ، في مجلـة « المشرق » ، عـدد 5 ، (1976 م .) ، صفحات . 105 ـ 118 .

السعيد ، محمد مجيد ،

« الشعر في ظل بني عباد » ، القاهرة ، 1972 م .

الطوخ ، عبد السلام أحمد ،

« بنو عباد باشبيلية » ، تطوان ، 1946 .

العبادي ، أحمد المختار ،

« الصقالبة في إسبانيا » ، مدريد ، 1953 م .

العبادي ، عبد المجيد ،

« المجمل في تاريخ الاندلس » ، القاهرة ، 1964 .

الفاسي ، عبد الرحمن ،

« ذيل وتعليق حول قضية المعتمد بن عباد » ، في مجلة « المناهل » : رقم 1 (1394 هـ . / 1974 م .) ص . 226 ـ 238 ورقم 2 (1395 هـ . / 1975 م .) ص . 334 ـ 352 ورقم 3 (1395 هـ . / 1975 م .) ص . 340 ـ 361 ورقم 4 (1395 هـ . / 1975 م.) ص . 287 ـ 315 ورقم 5 (1396 هـ / 1976 م.) ص . 343 ـ 369 ورقم 6 (1396 هـ / 1976 م.) ص 456 ـ 475، ورقم 8 (1397 هـ / 1977 م) و ص . 351 ـ 371 (يتبع).

المرزوقي ، محمد والجلالي ، يحيى بن الحاج ،

« أبو الحسن الحصري » ، تونس ، 1963 .

المرير محمد ،

« كتاب الابحاث السامية في المحاكم الاسلامية » ، في جزءين ، تطوان ، 1951 الى 1955 م .

الهراس ، عبد السلام ،

« ابن اللبانة » في مجلة « البحث العلمي » . رقم 2 (1384 هـ . /

1964 م .) ص . 245 ـ 263 ورقم 3 (1384 هـ . / 1964 م .) ص . 213 ـ 240 .

بلفريج ، أحمد ، وخليفة ، عبد الجليل ،

« الادب الاندلسي » ، الجزء 1 ، تطوان ، 1360 هـ . / 1941 م .

خالص ، د . صلاح ،

« إشبيلية في القرن الخامس الهجري ، دراسة أدبية ، تاريخية لنشوء دولة بني عباد في إشبيلية وتطور الحياة الادبية فيها (414 ـ 461)» ، بيروت ، 1965 م .

« المعتمد بن عباد الاشبيلي ، دراسة أدبية ، تاريخية » ، بغداد ، 1958 .

« محمد بن عمار الاندلسي ، حياته وشعره » ، بغداد ، 1957 .

زمامة ، عبد القادر ،

« المعتمد بن عباد » ، في مجلة البحث العلمي » . العددان 11 ـ 12 (1387 هـ / 1967 م .) ص . 127 ـ 136 .

ضيف ، د . شوقي ،

« ابن زيدون » ، القاهرة ، 1953 .

عباس ، د . إحسان ،

« تاريخ الادب الاندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين » ، بيروت ، 1960 .

عبد العظيم ، علي ،

« ابن زيدون عصره ، حياته ، أدبه » ، القاهرة ، 1955 م .

عنان ، محمد عبد الله ،

« دول الطوائف » ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، 1969 .

عزام ، عبد الوهاب ،

« المعتمد بن عباد ، الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزا » ، القاهرة ، 1959 .

محمود ، الحسن أحمد ،

« قيام دولة المرابطين ، صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى » ، القاهرة ، 1957 .

مكي ، د . الطاهر أحمد ،

« ابن بسام ، صاحب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » ، في مجلة « البحث العلمي » ، رقم 9 (1387 هـ . / 1966 م .) ص . 186 ـ 192 .

بكن ، عبد القادر ،

« المعتمد بن عباد » في مجلة « البحث العلمي » ، العددان 11 ـ 12 (1387 هـ . / 1967 م .) ص . 127 ـ 186 .

3) لائحة المراجع باللغات الاجنبية

Abdul Qadir, Muhammad al-Aroosi,
The Reception and Devolopment of Malikite Legal Doctrine in the Western Islamic World, unpublished Ph.D. thesis, Edinburgh, 1973.

Altamira, Rafael,
Historia de España y de la Civilizacion española, vols. 3, 4, 4th ed., Barcelona, 1928.

Aluch, Abdelkrim,
Organizacion administrativa de las ciudades en el Islam Español, unpublished doctoral thesis, Granada, 1960.

Amador de Los Rios, José,
Historia social, politica y religiosa de los judios de España y Portugal, Madrid, 1960.

Amedroz, H. F,
The Hisba Jurisdiction in the Ahkam Sultaniyya of Mawardi, J.R.A.S., (1916), pp. 77-101, 287-314.

Antuña, Melchor,
Ibn Hayyan de Cordoba y su historia de la España musulmana, C.H.E., IV (1946), pp. 5-71.

Ashtor, A.,

Prix et salaires dans l'Esdagne musulmane au Xe et XIe siècles, A.E.S.C., XX (1965), pp. 664-79.

Asín Palacios, Miguel,

Abenházam de Córdoba y su Historia crítica de las ideas religiosas, vol., Madrid, 1927.

Un códice inexplorado del cordobés Ibn Hazm, A.A., II (1954), pp. 1-56.

Baer, Yitzhak,

A History of the Jews in Christian Spain, vol. 1, Philadelphia, 1961.

Bernard, Richard,

L'Islam et les musulmans chez les chroniqueurs castillana au miliu du Moyen Age, H.T., XII (1971), pp. 107-52.

Bishko, L, J.,

Fernando I y los orígenes de la alianza castellano-leonesa con Cluny, C.H.E., XLVII-VIII, (1968), pp. 31-135.

Bosch Vila, Jacinto,

Consideraciones sobre «al-Tagr en al-Andalus», in Etudes d'Orientalisme dediées à la mémoire de Lévi-Provençal, vol. 1, Paris, 1962, pp. 23-33.

Brockelmann, Carl,

Geschichte der Arabischen Litteratur, 3 vols. and 2 supplements, Leiden, 1937-49.

Brunschvig, Robert,

Urbanisme médiéval et droit musulman, R.E.I., XV (1947), pp. 127-55.

Polémiques médiévales autour du rite de Malik, A.A., XV (1950), pp. 377-415.

Burckhardt, T.,

Moorish Culture in Spain, London, 1972.

Castro, Américo,

La realidad historica de España, 2nd ed., Mexico 1962,

Los Españoles: como llegaron a serlo, 2nd ed., Madrid, 1965.

Chalmeta y Jendron, Pedro,

El señor del zoco en España, Madrid, 1973.

Historiografia medival hispánica: arabica, A.A., XXXVII (1972), pp. 353-404.

Chejne, Anwar G.,

Muslim Spain, Its History and Culture, Minnesota, 1974.

Codera, Francisco,

Estudios criticos de historia arabe-española, ser. 1-2 (in 3), Saragossa, 1903-17.

Colmeiro, Manuel,

Historia de la economia politica en España, repr., Madrid, 1965.

Compton, Linda,

Andalusian Lyrical Poetry and Old Spanish Love Songs: The Muwashshah and its Kharja, New York, 1976.

Cous, Auguste,

Un poète arabe d'Andalusie: Ibn Zaidoûn, étude d'après le Diwan de ce poète et les principales source arabes, Constantine, 1920.

Cubero Fierro, Antonio,

Al-Motadhid rey moro de Sevilla, Sevilla 1930.

Dozy, Reinhart P. A.

Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyen Age, 2 vols., Leiden, 1860.

Histoire des Musulmanes d'Espagne jusq'à la conquête de l'Andalousie par les Almoradives, 2nd ed., 3 vols ed. by E. Lévi-Provençal, Leiden, 1932.

Drury, Tom,

The Image of Alfonso VI and his Spain in Arabic Historians, unpublished Ph.D. thesis, Princeton, 1974.

Dufourcq, C.-E. and Gautier-Dalché, J.,
Histoire de l'Espagne au Moyen Age. Publications des années 1948-1969. R.H., CCXLV (1971), pp. 127-68, 443-82.
Economies, sociétés et institutions de l'Espagne chrétienne du Moyen-Age, M.A., LXXIX (1973), pp. 73-122.

Font Rius, José Maria,
Instituciones medievales españolas: la organización política, económica y social de los reinos cristianos de la Reconquista, Madrid, 1949.

Freeman-Grenville, G.S.P.,
The Muslim and Christian Calendars, London, 1963.

García de Cortazar, José Angel,
La época medieval, 2nd., Madrid 1974.
Nueva Historia de España en sus textos: Edad Media, Santiago de Compostela. 1975.

García Gómez, Emilio,
Cinco poetas musulmanes: biografías y estudios, Madrid, 1944.
Poesía arabigondaluza: breve síntesis histórica, Madrid, 1952.
A propósito de Ibn Hayyán, A. A., XI (1946), pp. 345-424.
La poésie politique sous le Califat de Cordoue, R.E.I., XVII (1949), pp. 1940.
Bagdad y los reinos de Taifas, R.O., CXXVII (1944), pp. 1-22.

Gardet, Louis,

La cité musulmane: vie sociale et politique, 4th ed., Paris, 1976.

Gautier-Dalché, J.,

L'histoire monétaire de l'Espagne septentrionale et centrale du IXe au XIIe siècles: quelques réflections sur divers problèmes, A.E.M., VI (1969), pp. 43-95.

Glick, Thomas F.,

Islamic and Christian Spain in the Early Middle Ages, Princeton, 1979.

Glick, Thomas F. and Pi-Sunyar, O.,

Acculturation as an Explanatory Concept in Spanish History, C.S.S.H., VI (1969), pp. 135-54.

Goldman, S.,

The Development of Historical Writing among the Moslems in Spain, unpublished Ph.D. thesis, Oxford, 1956.

Graetz, Hirsch,

Les juifs d'Espagne (945-1905), tr. into French by G. Stenne, Paris, 1872.

Grassotti, Hilda,

Para la historia del botín y de las parias en León y Castilla, Buenos Aires 1964.

Guichard, Pierre,

Structures sociales «orientales» et «occidentales» dans L'Espagne musulmane, Paris and the Hague, 1977.

Hamidullah, Muhammad,

Muslim Conduct of State, 3rd ed., Lahore, 1953.

Hazañas y la Rua, Joaquin,

Historia de Sevilla, repr., Seville, 1974.

Hitchcock, Richard.,

An Examination of the Term «Mozarab» in Eleventh and Twelfth-century Spain, unpublished Ph. D. thesis, St. Andrews, 1984.

El Rito hispánico, las Ordalias y los Mozárabes en el Reinado de Alfonso VI, E.O., VIII (1973), pp. 19-41.

Hitti, Philip,

History of the Arabs from the Earliest Times to the Present, 8th ed., London, 1958.

Hole, Edwin,

Andalus, Spain under the Muslims, London, 1958.

Huici Miranda, Ambrosio,

Historia musulmana de Valencia y su región: Novedades y rectificaciones, vols. 1-2, Valencia, 1969-70.

Las grandes batallas de la Reconquista durante las invasiones africanas (Almorvides, Almohádes y Benimarines), Madrid, 1956,

Las luchas del Cid Campeador con los Almorávides y el enigma de su hijo, Diego, H.T., XI (1965). pp. 79-114.

Immamudin, S.M.,

Some Aspects of the Socio-economic and Cultural History of Muslim Spain, 711-1492 A.D., Leiden, 1965.

A Political History of Spain, Dacca, 1961.

Jackson, Gabriel,

The Making of Medieval Spain, London, 1972.

Jover, Jose Maria,

Panorama of Current Spanish Historiography, tr. into English by Daphne Woodward, C.H.M., VI (1961), pp. 1023-38.

Lacarra, Jose María,

Aspectos económicos de la sumision de los reinos de Taifas (1010-1102), in Homenaje a Jaime Vicens, vol. 1, Barcelona, 1965, pp. 255-77.

Les villes frontières dans l'Espagne des XIe et XIIe siècles, M.A., LIX (1963), pp. 205-22.

Lafuente Alacantara, Modesto,

Historia general de España, vol. 3, Barcelona, 1888.

Lapeyre, Henri,

Interprétations de l'histoire d'Espagne: Américo Castro et Claudio Sanchez Abornoz, A.E.S.C., XX (1965). pp. 1015-37.

Lapidus Ira M.,

Muslim Cities in the Later Middle Ages, Cambridge, Massachusetts, 1967.

The Early Evolution of Muslim Urban Society, C.S.S.H., XV (1973), pp. 21-50.

Lévi-Provençal, Evariste,

Histoire de l'Espagne musulmane, 3 vols., Paris, 1950.

L'Espagne musulmane au Xème siècle, institutions et vie sociale, Paris, 1932.

Inscriptions arabes d'Espagne, Leiden-Paris, 1931.

La civilisation arabe en Espagne, vue générale, Cairo, 1938.

Alfonse VI et la prise de Tolède, H. T., XII (1931) pp. 31-49.

Hispano-Arabica: La « Mora Zaida », femme d'Alfonse VI de Castille et leur fils l'enfant Don Sancho, H.T., XVII (1934), pp. 1-8.

Sur de nouveaux manuscrits de la Dahira d'Ibn Bassam H.T., XVI (1953). pp. 158-61.

En relisant le Collier de la Colombe, A.A., XV (1950), pp. 335-75.

«Mu'tadid», E.I., 1, vol.3, pp. 777-78, «Mu'tamid», E.I., I, vol. 3. pp. 779-81, «Seville», E.I. 1. vol. 4, pp. 234-37, «Abbadids (Banu'Abbad)», E.I., 2, vol. 1, pp. 5-7.

Lévi-Provençal, Evariste and Garcia Gómez, Emilio,

Alfonso VI y su hermana la infanta Urraca, A.A., XIII (1948), pp. 157-66.

Lévi-Provençal, Evariste, Garcia Gómez, Emilio, and Olivier Asin, J.,

Novedades sobre la batalla llamada al-Zallaqa (1086) A.A., XV (1950), pp. 11-55.

Lewis, Archibald R.,

Naval Power and Trade in the Mediterranean A. D. 500-1100, Princeton, 1951.

Lombard, Maurice.

L'Islam dans sa première grandeur, VIII ème - XI ème siècle, Paris, 1971.

Lourie, E.,

A Society Organised for War: Medieval Spain, P.P., no. 5 (1966), pp. 54-76.

Mackay, Angus,

Spain in the Middle Ages, from Frontier to Empire, 1000-1500, London-Basingstoke, 1977

Makki, M.A.,

Ensayo sobre las aportaciones orientales en la España musulmana, y su influencia en la formación de la cultura hispano-arabe, R. I. E. E. I. M., IX-X (1961-62), pp. 65-231.

Margoliouth, D.S.,

Lectures on Arabic Historians, Calcutta, 1930.

Mena, José María de,

Historia de Sevilla, Seville, 1970.

Méndez Bejarano, Mario,

Histoire de la Juiverie de Seville, Madrid, 1922.

Menéndez Pidal, Ramón

La España del Cid, 2 vols., Madrid, 1929.

Historia de España: IV: España musulmana, 711-1031, Madrid, 1957.

Menéndez Pidal, Ramón,
and García Gómez, Emilio,

El conde mozárabe Sinsnando Davidiz y la política de Alfonso VI con las Taifas, *A.A.*, XII (1947), pp. 27-41.

Miles, George C.,

Coins of the Spanish Muluk al-Tawa'if, New York, 1954.

Monès, Hussayn,

Consideraciones sobre la época de los reyes de Taifas, *A. A.*, XXXI (1966), pp. 305-28.

Le rôle des hommes de religion dans l'histoire de l'Espagne musulmane jusqu'à la fin du Califat, *S. I.*, XX (1964), pp. 47-88.

La division político administrativa de los reyes de Taifas, *R.I.E.E.I.M.*, V (1957), pp. 79-135.

Monroe, James T.,

Hispano-Arabic Poetry; a Student Anthology, Berkeley, 1974.

Morales Belda, Francisco,

La marina de al-Andalus, Barcelona, 1970.

Moreno Nieto, José,

Estudio critico sobre los historiadores arábigo-españoles, Madrid, 1864.

Nassif, Boulos Elias,

La Dajira de Ibn Bassam al-Santarini, estudio critico de su contenido, unpublished doctoral thesis, Madrid, 1962.

Neumann, A. A.,

The Jews in Spain : Their Social, Political and Cultural Life during the Middle Ages, 2, vols., Philadelphia, 1944.

Palencia, A. Gonzalez,

Historia de la literatura arábigo-española, 2nd ed., Barcelona, 1945.

Pellat, Charles,

Ibn Hazm, bibliographe et apologiste de l'Espagne musulmane, A. A., XI (1954), pp. 53-102.

Pérès. Henri,

La poèsie andalouse en arabe classique au XIème siècle: ses aspects généraux et sa valeur documentaire, 2nd ed., Paris 1953.

Les éléments ethniques de l'Espagne musulmane et la langue arabe, au Ve / XIe siècles, in Etudes d'Orientalisme dediées à la mémoire de Lévi-Provençal, vol,2,Paris 1962, pp. 717-31.

Pons Boigues, Francesco,

Los histoRiadores y geógrafos arábigo-españoles, 800-1450 A.D., repr. Amsterdam, 1972.

Powers, James F.,

The Origins and Development of Municipal Military Service in the Leonese and Castilian Reconquest, 800-1250, T., XXVI (1970), pp. 91-111.

Prieto y Vives, Antonio,

Los reyes de Taifas: estudio histórico-numismático de los musulmanes españoles en el siglo V de la Hégira (XI de J.C.), Madrid, 1926.

Requena, Fermín,

Muhammad y al-Qasim «amires» de Algeciras, Antequera, 1956.

Russell, P.E.,

Spain: A Companion to Spanish Studies, London, 1973.

The Nessus-Shirt of Spanish History, B.H.S., XXXVI (1959), pp. 219-25.

Sánchez Albornóz, Claudio,

La España musulmana, 2 vols., 3rd ed., Madrid, 1975.

En torno a los orígenes del feudalismo, 2 vols., Buenos Aires, 1972.

Espagne pré-islamique et Espagne musulmane, R. H., CCXXXVII (1967), pp. 295-338.

Sánchez Alonso, Benito,

Historia de la Historiografía española vol. 1; 3 vols., Madrid, 1941-50.

Fuentes de la Historia española y hispano-americana, vol. 1, 3rd ed., Madrid 1952.

Scheindlin, Raymond P.,

Form and Structure in the Poetry of al-Mu'tamid Ibn'Abbad, Leiden, 1974.

Seco de Lucena, Parades Luis,

Sobre el «Naqt-'arus» de Ibn Hazm de Cordoba, Ibn Hazm, historiador politico, A.A., VI (1941), pp. 357-75.

Soldevilla, Ferran,

Historia de España, vol. 1, Barcelona, 1952.

Sordo, Enrique,

Moorish Spain, Cordoba, Seville and Granada, tr. into English by Ian Michael, London, 1965.

Soufi, Khaled,

Los Banû Yahwar en Cordoba, 1031-1070 de J.C.-422-462 H., Cordoba, 1968.

Stern, Samuel Miklos,

Hispano-Arabic Strophic Poetry, selected and ed. by L. P. Harvey, Oxford. 1974.

Suarez Fernandez, Luis,

Historia de España. Edad Media, Madrid, 1970.

Tedgini, B.,

Un roi poète ou al-Mo'tamid Ibn'Abbad, prince de Séville, Casablanca-Fez, 1959.

Terés, Elias,

Linajes árabes en al-Andalus, según la «Yamhara» de Ibn Hazm, A.A., XXII (1957), pp. 55-112.

Enseñanzas de Ibn Hazm en la «Yadwat al-Muqtabis» de al-Humaydi, A.A., XXIX (1964), pp. 147-78.

Terrasse, Herni,

Islam d'Espagne, Paris, 1958.

Caractères généraux des émirats espagnols au XIème siècle, R.O.M.M., no. 2 (1966), pp. 189-98.

La vie d'un royaume berbère au Ième siècle: l'émirat ziride de Grenade M.C.V., 1 (1965), pp. 73-86.

Tibi, Amin Tawfiq,

The Tibyan of 'Abdullah b. Bulugguin, Last Zirid Amir of Granada, unpublished Ph.D. thesis, Oxford, 1972.

Torres Balbas, Léopoldo,

Ciudades hispano-musulmanas, 2. vols., Madrid, 1972.

Notas sobre Sevilla en la época musulmana, A.A., X (1945), pp. 237-66.

Plazas, zócos y tiendas de las ciudades hispano-musulmanas, A. A., XII (1947), pp. 437-76.

Turki, Abdel Majid,

La vénération pour Malik et la physionomie du Malikisme andalous, S. I., XXIII (1971), pp. 41-66.

Ubieto Arteta, Antonio,

Ciclos económicos en la Edad Média española, Valencia, 1969.

Ubieto Arteta, Antonio, Regla, Juan, and Jover, José María,

Introducción a la historia de España, Barcelona, 1963.

Urvoy, Dominique,

Le monde des Ulêmas andalous du V-XIe au VI-XIIe siècle, Geneva, 1976.

Valdeavellano, Luis García de,

Curso de Historia de las Instituciones españolas: de los orígenes al final de la Edad Média, 2nd ed., Madrid, 1970.

Historia de España; de los orígenes a la baja Edad Média, vol. 1, part 2, 3rd ed., Madrid, 1963.

Orígenes de la burguesía en la España medieval, Madrid, 1969.

Valdeón, Julio,

El reino de Castilla en la Edad Média, Bilbao, 1968.

Varliden, Charles,

L'Esclavage dans l'Europe médiévale, péninsule Ibérique-France, vol. 1, Bruges, 1955.

Vernet, Juan Ginés,

Los musulmanes españoles, Barcelona, 1961.

Vicens Vives, Jaime,

Aproximación a la historia de España, 3rd ed., Barcelona, 1962.

Hitoria social y económica de España y América, colonizaciónes, feudalismo, América primativa, vol. 1, Barcelona, 1957.

Vicens Vives, Jaime, with the Collboratio of Jorge Nadal Oller,

Manual de historia económica de España 3rd ed., Barcelona, 1964.

Vilar, Pierre,

Histoire de l'Espagne, 6th ed., Paris, 1965.

Watt, W. Montgomery and Cachia, Pierre,

A History of Islamic Spain, Edinburgh, 1965.

Whishaw, Bernhard and Ellen M.,

Arabic Spain, London, 1912.

4) تعريب لائحة المراجع باللغات الاجنبية

عبد القادر، محمد العروسي،

« تقبل وتطور المذهب المالكي في الغرب الاسلامي » .

الطامرا ، رفائيل ،

« تاريخ إسبانيا والحضارة الاسبانية » .

علوش ، د. عبد الكريم ،

« التنظيم الاداري للمدن في إسبانيا الاسلامية » .

أمادور دي لوس ريوس ، خوسي ،

« تاريخ اليهود الاجتماعي والسياسي والديني في إسبانيا والبرتغال » .

اميدروز ، هـ . ف . ،

« نظام الحسبة في كتاب الاحكام السلطانية للماوردي » .

أنتونيا ، ميلشور ،

« ابن حيان القرطبي وتاريخه لاسبانيا الاسلامية » .

أشطور ، أ . أ . ،

« الاسعار والاجور في إسبانيا الاسلامية في القرنين العاشر والحادي عشر » .

أسين بالاثيوس ، ميگيل ،

« ابن حزم القرطبي وتاريخه النقدي للافكار الدينية » .

« مدونة غير معروفة لابن حزم القرطبي » .

أورفوا ، دومينيك ،

« عالم العلماء الاندلسيين من القرنين الخامس الى السابع الهجري » .

بارناود ، ريتشارد ،

« الاسلام والمسلمون عند المؤرخين القشتاليين في منتصف القرون الوسطى » .

بيشكو ، ل . ج . ،

« فيرناندو الاول - وأصول حلف قشتالة وليون مع كلوني » .

بوش فيلا ، خاسينطو ،

« اعتبارات حول مفهوم الثغر في الاندلس » .

بروكيلمان ، كارل ،

« تاريخ الادب العربي » .

برونشفيك ، روبيرت ،

« تخطيط المدن في القرون الوسطى والقانون الاسلامي » .

« الجدل في القرون الوسطى حول مذهب مالك » .

أسين بالاثيوس ، ميگيل ،

« ابن حزم القرطبي وتاريخه النقدي للافكار الدينية » .
« مدونة غير معروفة لابن حزم القرطبي » .

أورغوا ، دومينيك ،

« عالم العلماء الاندلسيين من القرنين الخامس الى السابع الهجري » .

بارناود ، ريتشارد ،

« الاسلام والمسلمون عند المؤرخين القشتاليين في منتصف القرون الوسطى » .

بيشكو ، ل . ج . ،

« فيرناندو الاول - وأصول حلف قشتالة وليون مع كلوني » .

بوش فيلا ، خاسينطو ،

« اعتبارات حول مفهوم الثغر في الاندلس » .

بروكيلمان ، كارل ،

« تاريخ الادب العربي » .

برونشفيك ، روبيرت ،

« تخطيط المدن في القرون الوسطى والقانون الاسلامي » .
« الجدل في القرون الوسطى حول مذهب مالك » .

بوركهارط ، ط . ،
« الثقافة الاسلامية في إسبانيا ».
كاسطرو ، أميريكو ،
« الواقع التاريخي لاسبانيا » .
« الاسبانيون وكيف نشأوا » .
شالميطا بي خيندرون ، بيدرو ،
« صاحب السوق في إسبانيا » .
شاجنة ، أنوار ،
« إسبانيا الاسلامية ، تاريخها وثقافتها »
كوديرا ، فرانثيسكو ،
« دراسات نقدية للتاريخ العربي الاسباني » .
كولميرو ، مانويل ،
« تاريخ الاقتصاد السياسي في إسبانيا » .
كومبطون ، ليندا فيش ،
« الموشح والخرجة » .
كور ، أوكوست ،
« شاعر عربي من الاندلس ، ابن زيدون ، دراسة من خلال ديوانه

وأهم المصادر العربية ».

كوبيرو فيرو . أنطونيو .
« المعتضد . ملك إشبيلية » .

دوزي . رابنهارط . ب . أ . .
« أبحاث حول تاريخ إسبانيا وأدبها خلال القرون الوسطى » .
« تاريخ المسلمين في إسبانيا إلى احتلال المرابطين للاندلس » .

دروري . طوم .
« صورة ألفونسو السادس وإسبانيا في عهده حسب المؤرخين العرب».

دوفورك . س . أ وجوتيي - دالشي . ج .
« تاريخ إسبانيا في القرون الوسطى : المطبوعات خلال السنوات 1948 - 1969 » .
« الاقتصاد والمجتمع والمؤسسات في إسبانيا المسيحية خلال القرون الوسطى » .

فونت روبس . خوسي ماريا .
« المؤسسات الاسبانية في القرون الوسطى : التنظيم السياسي والاقتصادي والاجتماعي عند الممالك المسيحية خلال حرب الاسترجاع».

فريمان - كرينفيل . ج . س . ب .
« التقويمات الاسلامي والمسيحي » .

كارثيا دي كورطثار ، خوسي أنخيل ،

« عهد القرون الوسطى » .

« تاريخ إسبانيا الجديد من خلال نصوصه في القرون الوسطى » .

كارثيا كوميث ، إيميليو ،

« خمسة شعراء مسلمين : تراجمهم ودراسات عنهم » .

« الشعر العربي الاندلسي : ملخص تاريخي وجيز » .

« حول ابن حيان » .

« الشعر السياسي خلال عهد خلافة قرطبة » .

« بغداد وملوك الطوائف » .

كاردي ، لوي ،

« المدينة الاسلامية : الحياة الاجتماعية والسياسية » .

كوتيي - دالشي ج . .

« تاريخ نقود إسبانيا الشمالية والوسطى من القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر : تأملات حول عدة مشاكل » .

كليك ، طوماس ف . ،

« إسبانيا الاسلامية والمسيحية في أوائل القرون الوسطى » .

كليك ، طوماس ف و بي - سونيار ، أ . ،

« التكييف الثقافي كتصور لشرح التاريخ الاسباني » .

غولدمان ، س . ،
« تطور الكتابة التاريخية عند المسلمين في إسبانيا » .

غرايتز ، هيرش ،
« يهود إسبانيا (945 ـ 1205) » .

غراسوطي ، هيلدا ،
« حول تاريخ الغنيمة والجزية في ليون وقشتالة » .

غيشار ، بيير ،
« التراكيب الاجتماعية (الشرقية) و (الغربية) في إسبانيا الاسلامية » .

حميد الله ، محمد ،
« سيرة الدولة الاسلامية » .

هاثانياس بي لاروا ، خواكين ،
« تاريخ إشبيلية » .

هيتشكوك، ريتشارد ،
« مناقشة لفظ المعرب في إسبانيا خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر » .
« المذهب الاسباني والمعربون في مملكة ألفونسو السادس » .

حتي ، فيليب ،
« تاريخ العرب منذ البداية إلى الحاضرة » .

هول ، إيدوين .

« الاندلس : إسبانيا تحت حكم المسلمين » .

وثي ميراندا ، أمبروسيو ،

« تاريخ بلنسية الاسلامية وناحيتها : محدثات وتعديلات » .

« المعارك الكبرى لحرب الاسترجاع خلال الغزو الافريقي (المرابطون والموحدون وبنو مرين) » .

« كفاح السيد ضد المرابطين ولغز ابنه دييغو » .

إمام الدين ، س . م ،

« مظاهر التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي لاسبانيا الاسلامية » .

« التاريخ السياسي لاسبانيا » .

جاكسون ، كابرييل ،

« صنع إسبانيا خلال القرون الوسطى »

خوفير ، خوسي ماريا ،

« نظرة عامة حول كتابة التاريخ الاسباني الحالي » .

لاكارا ، خوسي ماريا ،

« المظاهر الاقتصادية لخضوع ملوك الطوائف 1010 - 1102 » .

« مدن الحدود في إسبانيا خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر »

لافوينتي الكانترا ، موديستو ،
« تاريخ إسبانيا العام » .

لابيري ، هينري ،
تفسيرات للتاريخ الاسباني ؛ أميركو كاسطرو وسانشيث البورنوث » .

لابيدوس ، إيرا م . ،
« المدن الاسلامية خلال القرون الوسطى المتأخرة » .
« التطور البدائي للمجتمع الحضري الاسلامي » .

ليفي بروفنصال ، إيفاريست ،
« إسبانيا الاسلامية في القرن العاشر ، مؤسساتها وحياتها الاجتماعية » .
« تاريخ إسبانيا الاسلامية » .
« نقوش عربية من إسبانيا » .
« الحضارة العربية في إسبانيا ، نظرة عامة » .
« ألفونسو السادس واحتلال طليطلة » .
« زائدة ، الزوجة المسلمة لالفونسو السادس ملك قشتالة وابنهما الامير دون سانشو » .
« حول مخطوطات جديدة لكتاب الذخيرة لابن بسام » .
« قراءة جديدة لكتاب طوق الحمامة » .
« المعتضد - المعتمد - إشبيلية - بنو عباد » .

ليفي بروفنصال ، إيفاريست ، وكَارثيا كَوميث ، إيميليو ،
« ألفونسو السادس وأخته الاميرة أوراكا » .

ليفي بروفنصال ، إيفاريست وكَارثيا كَوميث ،
إيميليو أولفيي آسين ، خ ، .
« معلومات جديدة عن معركة الزلاقة (1086) » .

لويس ، أرشيبالد ر . ،
« القوة البحرية والتجارة في البحر الابيض المتوسط 600 ـ 1100 م. » .

لومبار ، موريس ،
« الاسلام في عظمته الاولى ، القرن الثامن الى القرن الحادي عشر » .

لوري ، أ . ،
« المجتمع المنظم للحرب : إسبانيا في القرون الوسطى » .

ماكاي ، أنكَوس ،
« إسبانيا في القرون الوسطى ، من حروب الحدود إلى قيام الامبراطورية 1000 ـ 1500 » .

مكي ، م . ع . ،
« عرض حول مساهمة المشرق في الاندلس وتأثيرها في تكوين الثقافة الاسبانية العربية » .

مورگوليوث ، د . س . .

« محاضرات حول المؤرخين العرب » .

مينا ، خوسي ماريا دي ،

« تاريخ إشبيلية » .

مينديث بيخارانو ، ماريو ،

« تاريخ الطائفة اليهودية في إشبيلية » .

مننديث بيدال ، رامون ،

« إسبانيا في عهد السيد » .
« تاريخ إسبانيا الاسلامية 711 - 1031 » .

مننديث بيدال ، رامون وگارثيا گوميث ، إميليو ،

« الكونت المعرب سيسناندو داقيديث وسياسة ألفونسو السادس مع دول الطوائف » .

مايلز ، جورج س ،

« نقود ملوك الطوائف الاسبانيين » .

مؤنس ، حسين ،

« اعتبارات حول ملوك الطوائف » .
« دور الفقهاء في تاريخ إسبانيا الاسلامية إلى نهاية الخلافة » .
« التقسيم السياسي والاداري لممالك الطوائف» .

مونرو ، جايمز ط . ،
« الشعر الاسباني العربي ؛ مجموعة للطلاب » .

موراليس بيلدا ، فرانثيسكو ،
« البحرية في الاندلس » .

مورينو نيطو ، خوسي ،
« دراسة نقدية حول المؤرخين العرب - الاسبان » .

ناصف ، بولس الياس ،
« الذخيرة لابن بسام الشنتريني ، دراسة نقدية لمضمونها » .

نيومان ، أ . أ . ،
« اليهود في إسبانيا : حياتهم الاجتماعية والسياسية والثقافية خلال القرون الوسطى » .

بالينثيا ، آ . غونثاليث ،
« تاريخ الادب العربي الاسباني » .

بلات ، شارل ،
« ابن حزم ، العالم والمرشد في إسبانيا الاسلامية » .

بيريس ، هينري ،
« الشعر الاندلسي بالعربية خلال القرن الحادي عشر : مظاهره العامة وقيمته الوثائقية » .
« العناصر السلالية في إسبانيا الاسلامية واللغة العربية في القرن الخامس الهجري » .

بونس بويگيس ، فرانثيسكو ،
« المؤرخون والجغرافيون العرب ـ الاسبان ، 800 ـ 1450 م . » .

باوېرس ، جايمز ف . ،
« أصول وتطور الخدمة العسكرية في ليون وقشتالة خلال حرب الاسترجاع ، 800 ـ 1350 م . » .

بريتو بي فيفيس ، أنطونيو ،
« ملوك الطوائف : دراسة تاريخية لنقود المسلمين الاسبانيين في القرن الخامس الهجري » .

ريكينا ، فيرمين ،
« محمد والقاسم أميرا الجزيرة الخضراء » .

راسيل ، ب . أ . ،
« إسبانيا : مرشد في الدراسات الاسبانية » .
« خلافات عن التاريخ الاسباني » .

سانشيس البورنوث ، كلاوديو ،

« إسبانيا الاسلامية » .
« حول أصول الاقطاعية » .
« إسبانيا ما قبل المسلمين وإسبانيا الاسلامية » .

سانشيث ألونسو ، بينيتو ،

« تاريخ التأريخ الاسباني » .
« مصادر تاريخ إسبانيا وأمريكا اللاتينية » .

شاندلين ، رايموند ، ب . ،

« الشكل والبنية في شعر المعتمد بن عباد » .

سيكو دي لوثينا ، براديس لويس ،

« حول نقط العروس لابن حزم القرطبي ، ابن حزم مؤرخ سياسي » .

سولدي فيلا ، فران ،

« تاريخ إسبانيا » .

سوردو ، إنريكي ،

« إسبانيا الاسلامية ، قرطبة وإشبيلية وغرناطة » .

الصوفي ، خالد ،

« بني جهور في قرطبة ، 1031 ـ 1071 م / 422 ـ 462 هـ » .

ستيرن ، ساموئيل ميكلوس ،

« الموشحات العربية الاسبانية » .

سواريث فرناندو ، لويس ،

« تاريخ إسبانيا ، القرون الوسطى » .

ديجيني ، ب . ،

« الملك الشاعر أو المعتمد بن عباد ، أمير إشبيلية » .

طيريس ، إلياس ،

« الانساب العربية حسب كتاب الجمهرة لابن حزم » .
« تعاليم ابن حزم في كتاب جذوة المقتبس للحميدي » .

طيراس ، هنري ،

« إسلام إسبانيا » .
« مظاهر عامة للامارات الاسبانية خلال القرن الحادي عشر » .
« حياة مملكة بربرية في القرن الحادي عشر : الامارة الزيرية في غرناطة » .

الطيبي ، أمين توفيق ،

« كتاب التبيان لعبد الله بن بلقين ، آخر أمير زيري في غرناطة » .

طوريس بالباس ، ليوبولدو ،
« المدن الاسبانية الاسلامية » .
« ملاحظات حول إشبيلية في العهد الاسلامي » .
« الساحات والاسواق والحوانيت في المدن الاسبانية ـ الاسلامية » .

التركي ، عبد المجيد ،
« نوازل مالك والمظهر الخارجي لمذهبه في الاندلس » .

أوبييطو أرطيطا ، أنطونيو ،
« دورات إقتصادية في إسبانيا خلال القرون الوسطى » .

أوبييطو أرطيطا ، أنطونيو وريگلا ، خوان وخوفير ، خوسي ماريا ،
« مدخل إلى تاريخ إسبانيا » .

فالديا فيلانو ، لويس غرسيا دي ،
« درس في تاريخ المؤسسات الاسبانية منذ نشأتها الى نهاية العصور الوسطى » .
« تاريخ إسبانيا من نشأتها الى أواخر العصور الوسطى » .
« أصول البورجوازية في إسبانيا خلال القرون الوسطى » .

فالديون ، خوليو ،
« مجاعة قشتالة في القرون الوسطى » .

فيرلاندان ، شارل ،
« الرقيق في أوروبا خلال القرون الوسطى (شبه جزيرة إيبيريا والبرتغال) » .

فيرنيت ، خوان ،
« المسلمون الاسبانيون » .

فيسينس فيفس ، خايمي ،
« الاقتراب من تاريخ إسبانيا » .
« التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لاسبانيا وأمريكا » .

فيسينس فيفس ، خايمي ، (بالتعاون مع خورخي نادال أوليرا) ،
« موجز في التاريخ الاقتصادي الاسباني » .

فيلار ، بيير ،
« تاريخ إسبانيا » .

واط ، مونتغميري وكاشيه ، بيير ،
« تاريخ إسبانيا الاسلامية » .

ويشا ، بيرنارد وإيلمن م . ،
« إسبانيا العربية » .

الفهـرس

المدى ، وكذلك الوسائل المعتمدة للوصول إليها والاختتام بعرض تقسيم عام للسياسة الخارجية .

وكما أن التقسيم الزمني إلى عدة قرون يعتبر أمراً مناسباً ، فإن من الملائم اختيار عهد بني عباد وعزله على مستوى مجرد ، نستطيع به حصر مجال التخصص والوصول إلى إدراك أعمق لهذا العهد . وقد كان تاريخ دولة إشبيلية الطائفية في الواقع جزء لا يتجزأ من تاريخ الاندلس خلال القرن الهجري الخامس ، حيث أننا نجد تشابهاً في الخصائص البارزة التي كانت وراءها دوافع داخلية وضغوط وتأثيرات خارجية متشابهة . فإذا لم نتمكن من إدراك طبيعة علاقة إشبيلية بالوحدات السياسية الاخرى والقوى التي حركت هذه العلاقات فسيستحيل علينا إدراك الابعاد المختلفة لسياسة إشبيلية الخارجية .

2 ـ أهداف السياسة الخارجية

يتعين إدراج سياسة إشبيلية الخارجية خلال عهد بني عباد في إطار شامل للعلاقات الدولية إذا أردنا تقييم طاقتها في إطار الوحدات السياسية المحيطة بها والمجاورة لها تقييماً صحيحاً . فقد كانت إشبيلية بوصفها دولة طائفية تؤثر في مصير الوحدات السياسية الاخرى . إلا أن الاتجاه العام لسياستها الخارجية كان يتأثر باستمرار وبطريقة حاسمة ، بقوى خارجية . والنمط العام الذي نتج عن هذه الظروف يبرز قدرة إشبيلية وسيطرتها الاقتصادية والسياسية على دول الطوائف الضعيفة . كما أن إشبيلية بدورها كانت تخضع للدول الكبرى ، مستسلمة أحياناً ، وأطواراً عن قصد . وهذه

ج

ح

خ

د

ر

ز

ك

ل

م

ن

ص

ط

ع

غ

ف

ق

س

ش

هـ

و

ي

تصحيح الاخطاء المطبعية

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
19	11	لتاريخ	بتاريخ
29	9	المضطر	المضطرب
44	12	بن عباد	ابن عباد
85	1	مقرر	مقررا
87	6	بن عباد	ابن عباد
97	15	أن	إن
98	5	أن	إن
103	4	الوزراء عاشوا	الوزراء الذين عاشوا
103	7	صلة	صلة وصل
107	12	وهان الدوالي	وهان الوالي
110	14	آمر	آمرا
111	2	الانتاج	الانتاع
112	6	تأخد	تأخذ
112	9	الانضام	الانتظام
113	20	فالبضرورة	فبالضرورة
113	21	جاري	جار
116	1	نواحي	نواح
124	12	اعتيال	اغتيال
129	9	اسحاق ابن شعبان	اسحاق بن شعبان
129	12	ابن رازوية	بن رازوية

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
139	22	ابن الهاد	بن الهاد
135	10	دهائك	دهاك
140	11	المحافضة	المحافظة
158	5	بطرقية	بطريقة
166	15	الايجابة	الايجابية
169	2	نواحي	نواح
169	4	اشتغات	اشغات
169	6	خمس	خمسة
173	4	الجرية	الجزئية
176	12	ابن حموه	بن حموه
180	4	عالي	عال
191	6	مركز حضاري عام	مركزا حضاريا عاما
194	16	محض	محضة
196	7	تشتملهم	تفهمهم
202	15	نواحي	نواح
204	12	جذورهم	جذورها
221	6	تغفل عن	تغفل
230	1	باعضا	باعضاء

المشنة . إلى إضعاف ثقة الدول الطائفية بها . وكان الهدف الاول من تقوية سلطة إشبيلية وسيادتها لا يقتصر على حدود معينة . بل أصبح شغلها الشاغل بدلا من إنتاجها لسياسة واضحة تستهدف منافع بعيدة المدى . بل كان من المحتمل أن تصبح الرزانة والحكمة والشرعية من الخصائص التي تميز تلك السياسة التي لم يعط الاعتبار الكافي لاهدافها ونجاحها في المدى البعيد ، فجاء تطور الاحداث ليبرهن على أن شكل الاعتراف الذي رغبت فيه إشبيلية بإلحاح مفرط كان في نهاية الامر مناهضاً لمصلحتها الرئيسية وهي العمل من أجل البقاء . ومع ذلك فإن شرعية مطالبة إشبيلية بالاعتراف الخارجي أمر غير مشكوك فيه ، بل إن الطموح المفرط الذي غذاه كان يساعد سياسة إشبيلية الخارجية والاسلوب السطحي الذي استعمل في تنفيذها . فأدى في النهاية إلى التقليل من قيمتها .

3 ـ دور الحرب في سياسة إشبيلية الخارجية

(1) الحملات العسكرية التخريبية

كان التعسف العسكري وسيلة مباشرة وفعالة في تطبيق سياسة إشبيلية الخارجية خلال الفترة التي لم تتردد فيها الدول الطائفية القوية في فرض تفوقها على الطوائف المستضعفة . وقد اعتمدت هذه الوسيلة من طرف دول الطوائف عموماً ، كما اعتمدها ألفونسو السادس ويوسف بن تاشفين أيضاً . واتخذ التعسف أشكالا مختلفة باختلاف الظروف والاوضاع . وبصرف النظر عن تعقد تلك الظروف أو بساطتها الظاهرية فقد ظل التعسف العسكري أداة حيوية وجوهرية لتنفيذ السياسة الخارجية .

هذا الكتاب

يحتوي الكتاب على أربعة أقسام، يتعلق أولها بموضوع تحليل أسباب نهوض وانهيار دولة بني عباد بإشبيلية مع التركيز على فترة كل حاكم على حدة .

أما القسم الثاني من الكتاب فيتعلق بدراسة النظم السياسية والقضائية والعسكرية لدولة بني عباد الاشبيلية مع مقارنة النظام السياسي لهذه الدولة الطائفية مع نظام دولة بني أمية بالاندلس والمفارقات بينهما بالاضافة إلى إعطاء أهمية خاصة لموضوع هيمنة وانتشار المذهب المالكي في الاندلس ، وذلك ضمن رؤيا ومنهج يختلفان من المناهج المتبعة لحد الآن في مثل هذه الدراسات .

ويعالج القسم الثالث المجتمع الاشبيلي في تركيبه وحركيته الاجتماعية والاقتصادية .

أما القسم الرابع والاخير من الكتاب فيركز على دراسة وتقييم العلاقات الخارجية لدولة بني عباد الطائفية ، على النطاقين النظري والواقعي ، وفي إطار هذه العلاقات بصورة خاصة مع بقية دول الطوائف الاندلسية ، ومع مملكة ليون وقشتالة ، ثم مع المغرب .

رقم الايداع القانوني : 1.983|395

الثمن 50 درهماً

مطابع « الشويخ » - تطوان